كرم ملحم كرم

صقر قريش

قصة وتاريخ

•

مكتبة صادر
بيروت

BOBST LIBRARY
3 1142 02889 0427

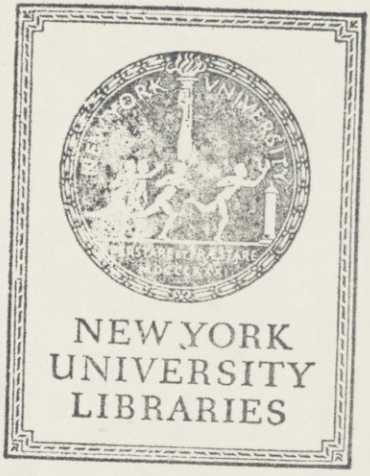

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

Karam, Karam Milhim

كرم ملحم كرم

صقر قريش

رواية

Saqr Quraysh

مكتبة صادر
بيروت

N. Y. U. LIBRARIES

Near East
PJ
7842
A68
S3
c.1

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الجزء الاول

أخت كربلاء

١

— هذا رأسُ عدوّك الطاغية يا امير المؤمنين !

وكالايماضة الخاطفة استلّت يد المتكلم من جراب اغبر، منفوخ، رأسا مضروب العنق ، ناضب الدم ، وعرضته بزهو ودَلّ على الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك. فسدد هشام عينين شائكتين الى الرأس الأبتر، القابضة عليه بعز واعتداد بمين مخاطبه، وما تماسك ان قال بغبطة اتسعت لها عيناه: رأس من ؟... رأس زيد بن علي ؟

— هو هو يا امير المؤمنين . احتزّه عاملك على العراق يوسف بن عمر الثقفي ونبذني به اليك. ولقد طويتُ الفدافد على سنام بعيري لا أنام الليل كي ابلغ دارك في الرصافة قبل ان يعبث النتن بالرأس المقطوع. صان الله اميرَ المؤمنين من كل نكبة، وادامَ ملكه نصرة للحقّ، وتأديباً للمنافقين!

وانتشرت في الرأس صفرة الموت، الا انه لم يبرح في قسماته على جلال. تتوقد فيه القوة، ويرعف انفه بالنبل. ومع إطباق عينيه على غفوتهما الساجية

كان يتراءى منه أنه ينذر باليقظة . فارتاع هشام وقد خيل اليه انه يبصر بالشفتين تتحركان وتكادان تنطقان . وصاح بمن تدلى الرأس في يمينه : والجثمان ؟ ... ماذا فعلتم بالجثمان ؟

فكأنه خشي ان يعود زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب الى الحياة مع دقّ عنقه. فاجاب الرسول وقد أدرك مرمى الخليفة القَلِق: هو في حفرة تتبطن احشاء التراب يا امير المؤمنين. لا تنسلّ اليها العيون ولا تتوهمها الخواطر . فليس من منفذ اليها لسوى الدود النهيم !

فاحتدم هشام واعلن برهبة تناهضها الصولة: ألا انبشوا الحفرة واخلعوا منها الأفّاك واصلبوه عارياً . فمن تجرأ على الانتفاض علينا يجب ان نمثل فيه بغلاظة عبرةً لسواه من المرجفين. وعندما يجفّ عوده احرقوه وانثروا رماده في متناوح الرياح. فلست اطيق ان يبقى للفيّاش، المكابر في رعونة ، أثر يدلّ عليه !

فهو يريد الخلاص من شبح حفيد فاطمة المخوف ، ممن يمثل الدعوة الهاشمية ويجري في عروقه دم النبي العربي الامين . قال : وكيف ظفرتم به ؟... هات ، اطلعني على الخبر اليقين !

واستوى الخليفة البدين ، الوسيم، المشرق البياض، الأحول، على بعض الطمأنينة في مقعده الوثير . وارهف اذنيه لالتقاط كلمات الرسول حرفاً حرفاً . قال الرسول يروي حكاية زيد بن علي وقد ألقى الرأس الى طبق امام الخليفة اليقظ الوعي :

—اعتصم زيد بالكوفة بعد اختصامه وأمير المؤمنين، زاد الله في بسطة دولته وايامه . وفي الكوفة نادى: « يالثارات الهاشميين ! » . فنصره أهل

الكوفة كما نصروا جدّه الحسين وأبا جدّه علياً . وما أحسوا منه الالتواء حتى مالوا عنه شأنهم في علي والحسن والحسين . فتراجع زيد الى خراسان وظل يقاتل . وانطلق عاملك على العراق يا امير المؤمنين ، يوسف بن عمر الثقفي ،يهدم من عزيمة المناوىء المفلول . ولم يكن هذا المناوىء المفلول بالجبان النكس . فاني لأشهد برجولته مع نقمتي على عصيانه . ولولا سهم اصابه في جبينه لمضى في مناصبتنا الطعان . وجيء بحجّام ينتزع النصلة من الجبين فاقتلعها راجحة الوزنة وقد نزع بها روح زيد وأطار انفاسه . وأبى انصار حفيد فاطمة افتضاح أمرهم فكتموا النبأ ، وحملوا سيدهم وقائدهم الى ساقية يدفنونه في مسيلها . وأخفوا القبر بالتراب والحشيش وأجروا عليها الماء . غير ان الحجّام ، وقد شهد ما كان ، لم يعقل لسانه . فأقبل الى عامل امير المؤمنين يدله على الحفرة . فكشف الثقفي عن الجثمان واحتز الرأس ووجهني به الى مولاي !

— وخمدت نار الثورة ؟

— لم يبق من جذوتها غير كومة من بارد الرماد يا امير المؤمنين !

فاطمأن هشام ونفض منه وسوسة طال عليه نكدها . ومال على الرأس المقطوع ينعم فيه النظر تناهياً في اللذة واليقين . ونطق فيه جبروت السلطان فهدد بغيظ جامح : كل معاند في دولتي مصيره الى هذه الوهدة الربداء . بطرت حتى عميت يا ابن علي . شاقك ان تزحمنا في مجدنا وفاتك انك أخرق الرأي ، كليل المنسر . والله ، لولا تيهك وغيّك لأدنيتك مني تنعم بخيري وسعدي . ولكنك شئت ان تزحزحني عن سرير الخلافة ليهدأ عليه جنباك فخاب فألك . نصيبك القبر لا الملك . هذه نهاية المأفونين !

ونضحت كلماته بالشماتة والتشفي . والتفت الى رسول يوسف بن عمر الثقفي وقال مشدداً في القولة : أبلغ الثقفي ان اضرب ولا ترحم . تلك الجذوع النخرة لا تنجع فيها غير الفأس المستأصلة . ليكن فيهم كالحجاج نقمة وفتكة .لو أحسن يزيد بن معاوية لقضى عليهم في كربلاء جميعاً وأنقذ من عنجهيتهم المسلمين . فالدولة لا تقوم برأسين ، والرأس الواحد قد يقوّضها أحياناً ويجعل سافلها عاليها !

ومع حرصه وامساكه أدى بدل البشرى ألف درهم نفح بها الرسول المتحمس شوقاً الى العطية ،معالناً اياه: هذا حقك علينا. ألا عدْ الى قومك وانشر فيهم غضبتنا على كل مرجف عيّاث ورضانا عن كل مسالم كريم المهزة . ليس الأمويون بالقوم الكفرة وذو الولاء عندهم عزيز، أثير ، والناهد الى العصيان مخلوع القلب ، محطم الجناح !

وصرفه بايماءة .وصبّت عيناه على الرأس المقطوع الكره الحالك والابتهاج المدّله . قال يخاطبه وصوته يرتعش حقداً : عيّرتك كونك ابن أمة وليس لابن أمة حق في الخلافة ، فجبهتني باسماعيل .وحجتك ان اسماعيل على كونه ابن أمة أنجب خيراً من سبط اسحق ، كأن نفسك تحدثك بركوب مقعد الخلافة وأنفي راغم . ألا خسئت !... والذي نفسي بيده ، اني لأكرهكم آل البيت كرهي للشؤم في اليوم الأنور .فلا تزال قصيدة الفرزدق في ابيك المفتئت بلقب زين العابدين توقر سمعي وتشك في قلبي .حسبتم اتصالكم المكين بالنبي يضمن لكم سيادة المسلمين فبتم ولا وازع يثنيكم عن هدم كل سبّاق مقدام . ألا رويدكم في مضلتكم . نحن ارباب الزعامة قبل ان تسنوا لها الانياب . فلا تطاولوا الناس في احسابكم ونحن أرسخ عرقاً ، وابعد

خطراً . اذا جمعتنا قريش فلقد رفعتنا عنكم الجاهليـة وما حطّنا دونكم الاسلام . لو لم أقتلك يا ابن علي في عصيانك ، بعد ما وقع في مسمعي من خيلائك ، لأطمعتك السم شأن يزيد بن معاوية في الحسن شقيق جدّك الحسين . ولكنك نلت من دنيـاك حظك . وستبلى بعد مصرعك بما لم يكن في حسبانك. فمتْ في كيدك تلهب كبدك النار !

وصفق بيديه . فأقبل حاجبه ينحني امامه ويقول : انا في خدمة أمير المؤمنين !

فقال هشام بلهجة آمرة، خشنة ، تيّاهة : ابلغ كل من ضمته الرصافة أن يقبل إلى باحة قصري لرؤية من صرعه غضبي وضربت عنقه نقمتي !

واشار الى الرأس المقطوع الجاثم أمامه على الطبق . وتجرأ الحاجب ورفع بصره الى الرأس فارتعد وزَوّى ما بين عينيه . فقال هشام بنبرة المنصور : هذا رأس زيد بن علي صاحب فتنة العراق وخراسان . اجتثه من عنقه رجالي ودفعوه اليّ ذليلًا ابتر. ولقد اجتثوا به الفتنة الصارخة. فلا بد من اذاعة النبأ في الناس وعرض الرأس عليهم انذاراً لكل مفسد لئيم!

وما هي لحظات حتى كان المنادي يصيح في اهل الرصافة ان اسرعوا الى صرح امير المؤمنين . فالبشرى بالانتظارَ . فتقلبوا على القصر يفتحون آذانهم للنبأ الصادع. واذا الجلاد يطلع عليهم وفي يمينه السيف وفي يساره رأس زيد بن علي المختنق الأنّة . فصاح بصوت عريض كحمحمة القضاء: امير المؤمنين هشام بن عبد الملك، أدام الله حياته، وزاد في توطيد سلطانه، يذيع فيكم ان فتنة زيد بن علي ركدت ريحها وسكنت فورتها. وهذا رأس زيد يصارحكم بالنبأ. فمن اتعظ وارعوى فهو آمن. ومن سالم ووعى فهو

آمن. والويل للمفسدين !... وقد أمر مولاي الخليفة امعانا في الاقتصاص من الآثمين بنبش قبر زيد ، وصلب الجثمان عرياناً ، واحراقه حين يجف ، ونثر رماده في مهب الريح . فليتعظ كل عنيد !

فهزت القلوب رعشة من هلع . وبدا هشام فهتف له الحشد وارتفعت الاصوات بالتكبير . فاكتفى الخليفة بان يرفع يمينه فيحيي الجموع دون ان تضطرب شفتاه بنأمة . وألقى على الحفل نظرة مبسوطة الرمية ، تضطرم فيها القدرة . وعادت فامتدت يده بالتحية ثم توارى والهتاف له على مضاء . غير ان هذه الحماسة المتأججة باشرافه على الحفل خمدت لدى انصرافه وعلت دمدمة جازعة ووشوشة قلقة لم يكن للناس بهما عهد .

وفي اطراف الجمع الزاخر وقف اثنان ينظران الى الرأس المقطوع والكراهة في اعينهما ، والنار في كلماتهما . رجل وامرأة . قال الرجل بحقد جهير : الى متى يقتل الامويون سادتنا وينثرون رؤوسنا باستخفاف الطغاة المتجبرين ، ونحن آل البيت ، الصفوة المختارة في دنيا الاسلام على فسيح رحبتها ، نذهب لاسيافهم نقيعة ولاحقادهم نجعة ؟... هشام ، هشام بن عبد الملك ، لا بد من يوم نثأر فيه ، فتتطاير تحت مضارب سيوفنا اعناق بني أُمك وتصفر عظامكم كالافاعي المروّعة في جحرها !

وقالت المرأة ولم تكن دون زوجها حنقاً : يوم الانتقام قريب . فالمؤتمر يعقد في البلقاء تلو المؤتمر لهدم الامويين شيعة الغدر والنفاق . زيد ، ليس دمك بالمطلول ورسل ابرهيم الامام في خراسان ينفخون في بوق الثورة ليدحرجوا الخلافة عن المفرق الاموي اللعين !

فقال الرجل بتململ وغصة : إن لم نشق الطريق الى هذه الثورة فأولى

بنا ان نُلطم ونُصفع، وأن نظل عرضة للخزي والمهانة، لا تناط بنا المعالي، ولا تقبض أيماننا على نواصي الاحكام. زيد، اخي زيداً، ابن ابي، لا تجزع. لأكونن مضرم جذوتها ورافع رايتها. فقد طال احتكام الامويين فينا. بيدي سأهدم هذه الدولة وأثلّ عرشها، وأعيد تمثيل فاجعة كربلاء. ولكن الضحايا لن يكونوا من الهاشميين الاقيال، بل من الأمويين الانكاس!

وانبسطت يمينه باتجاه الرأس المقطوع تعاهده على صدق العزيمة. ودعا المرأة الى اللحاق به قائلاً لها: سُميّة، إنك لطالق مني اذا حنثت بيميني. أيرتدي هشام في كل يوم حلة، ويسكب في كل صباح على رأسه قارورة من الطيب، ليثوي أرباب الخلافة في أعماق التراب؟... لا، ورب الكعبة ايها الأحول، أشَرَك لن يدوم. بيننا وبينك يوم حساب!

فرمقته العيون وهو ينفلت من الحشد. وعرفه الناس فراعهم وجوده ومقاله. وأشاروا اليه برهبة. هذا عبد الله بن علي سيف الهاشميين المصلت، ويدهم الهادمة، اخو زيد لابيه. وانفرجت الصدور عن غمغمات تلتهب تشاؤماً وقد سمع القوم كلمات الهاشمي الناقم: الويل للأمويين، يوم الانتقام دنا ميعاده. فليحذر رهط معاوية نقمة الموتور العربيد!

٢

هذا السرير الانيق، الباني دعائمه معاوية بن أبي سفيان، لم يكن وطيد الأس ، منيع الجانب . فالاعاصير ما برحت بعد مأساة كربلاء تهب عليه بغيظ و كيد. فانطوت له النفوس على ضغينة ،وتلفتت اليه العيون بشراسة شزراء ، حتى الأمويون أنفسهم لم يسلموا من التنكيل بعضهم ببعض .

وفي هذا المضطرب المتلبد بالدسائس ، الموّاج بالفتن والثورات ، لم يستروح هشام بن عبد الملك الدعة والطمأنينة مع صبوته اليهما . فما ان يحل مشكلاً حتى تزحف اليه مشاكل ضاعت بها عليه الأهداف . فاذا ساير اليمانيين انقلب عليه القيسيون ، وان عطف على القيسيين لقي من اليمانيين الجفاء والعنت . إذا أطفأ ثورة في خراسان تلظت فتنة في المغرب لا يكاد يكبح جماحها حتى تفاجئه القلاقل في العراق

وهشام ابتغى توطيد هذا الملك الضخم المستطيل من الهند الى الاندلس فاعتمد في سياسته الانصاف . كل من جاءه يلتمس حقاً لقي فيه الخليفة العادل. وحرصه على ضمان الحق أهاب به الى الوقوف في الطريق يستوضح المارة هل من حاجة لهم فيقضيها ؟

ولكن الماضي الأحمر اليد ، النافث الظلم ، اثقل النفوس بالاوتار فعزّ عليها التناسي. وأحس هشام بن عبد الملك بضياع مساعيه فأوجعه سوء لمغبة ،وركن الى استجلاء الغد وهو الراسخ الايمان بأقوال مستطلعي الغيوب

والرجم بالغيب يومذاك زيّ شائع تعقد له المجالس في القصور والدور. ولفرط اقبال الناس عليه عدّوه علماً وفناً . وهشام لم يكن يقدم على امر من الامور الا وقد استند فيه الى طرف من روايات المتكهنين

وفي ذلك اليوم الحفيل، يوم عرض رأس زيد بن علي في قصر الرصافة، استطاب هشام الاصغاء الى اقوال الكهانة في ما يكون غده. فعقد مجلساً طواه على الخاصّ . ودعا اخاه مسلمة يكشف له عن الغيب . ومسلمة بن عبد الملك سيد في الرجم بالغيب وقد ارتفعت له فيه راية منصورة. فيجيده في استيحاء النجوم وفي استبحاث الكؤوس . ولقد اجاب دعوة الخليفة الى بسط الآتي الصفيق . وتحلق المجلس على جمرات تتلظى في كانون من نحاس دقيق الصنعة، مزخرف النقش، يعبق ببخور العنبر والند. وأُقفلت الابواب . واستوى مسلمة في جثمة يطفو عليها التفكير. وبدا منه ، وقد انتشى برائحة الطيب، واخذ يدير بصره في كأس طافحة بين يديه، أنه يحاول النطق ولا يستطيع. فأستبطأه هشام وصاح به على قلق: ما بك ؟... ويحك !

فظهر من مسلمة أنه يتألم وأنه يبغي الافصاح عما لا يهدأ له الخاطر. قال بارتباك: الغد لا يبعث على الرضا يا أمير المؤمنين !

فارتعش هشام وخفق قلبه ، وانتابته الغصة فصاح: وماذا ترى ؟... قل ، قل ولا تخشَ !

فأعلن بعد لأي : لا ارى هذه الدولة مشيدة الركن على صخرة وهي غير ميمونة الطالع يا ابن عبد الملك !

فتعتع هشام وهو يلهث : أينذر نجمها بالافول ؟

فاجاب مسلمة بحرقة : لم يبق لنا فيها رجاء !

فكادت الكلمات تجمد في شفتي هشام ، ولكنه استطاع ان يغالب نفسه على النطق فقال برنّة يشيع فيها الالم الصاهر: أيها الناعي الينا أنفسنا، أيتدحرج بنا سرير الملك ؟

فأدلى مسلمة بقولة يرين عليها الشؤم: نلنا من العزة نصيبنا، وعلينا ان نفسح المجال لسوانا !

فاضطرب هشام واستفهم هلوعاً : لمن يا مسلمة ؟... لك الويل !

وفاض شدقاه بالزبد . وخيل اليه ان الارض تدور به. فقال مسلمة: خفف عنك . لن تنطفىء في زمنك النار على موقوت أمدها. هذه الدولة ستظل قائمة بعدك ، ولكن الى حين. وستنتقل عنا الى بني اعمامنا من آل هاشم ، عترة الرسول العربي المبين !

فارمدت عينه النبوءة واستفهم برعب: أيملكون مثلنا ويرتعون في ما نرتع فيه من سلطان ؟

— هذا ما يوضح علم الغيب يا امير المؤمنين . وعلم الغيب قد يصدق وقد يطيش !

— ونحن ، نحن ، ماذا يحلّ بنا ؟

فقلب مسلمة شفتيه وقال بتأثر ممض : هلا يعفيني من الكلام أمير المؤمنين ؟

— بل انا ادعوك بالحاح الى البيان يا مسلمة. ماذا يحل بنا وقد ركب الهاشميون مقعد الخلافة وأدالونا عنه ؟

فغمغم مسلمة: قاتل الله اللجاجة ، ما لنا وللغيب يا أمير المؤمنين !

فزاد اخاه شوقاً الى معرفة الخفيّ المكتوم. قال حانقاً : لا تخف

عليّ من وقع النبأ. فمن عجم عود النائبات يثبت لهجماتها ثبوت الاطواد !

فتردد مسلمة. اما والخليفة يريده على الافصاح فابى ان تعدّ عليه الممانعة دلالاً . قال وهو يتأنى في اداء كلماته كأنه بائع الذهب يزن بالحبة والقيراط : أرى بحيرة تضطرب بالدماء يا امير المؤمنين. وفي هذه البسطة الحمراء الجائشة نثيرٌ من اشلاء وجماجم يلوح ثم يغيب. يدفعه الموج عالياً ولا يلبث ان تبتلعه اللجة البعيدة الغور . واني لابصر بأيدٍ ترتفع ضارعة وبشفاه يقع في اذني منها سؤال النصرة والعون فلا يهفو اليها مغيث. وكلما حاول منكوب ان ينجو بنفسه من مستنقع الدم اهوى عليه سيف رهيف، طويل الشفرة، يفلقه ويدحرجه الى الاعماق. وحول البحيرة جموع شامتة، ساخرة ، في افواهها الصفير وفي اشداقها ضحكة التشفي . على ان هامة فتيّـة قدّت غشاوة الدم ووثبت الى الضفة النائية من البحيرة تجاهد في الخلاص ويمسكها العياء عن بلوغ طلبتها، فتكاد تتزحلق وتتبطن النجيع . ولكن يديها قبضتا على جذع اسعفها على وهنـه في الوثوب الى اليابسة . وانقض عليها السيف الباتر فاخطأها. واتسع امامها مجال الفرار فنجت من المحنة وقد زانها التاج وتألق في يمينها الصولجان !

فرانت على المجلس رعدة . وضاقت الصدور بالانفاس . وجالت رؤيا بحيرة الدم في الاذهان فارتاع كل من ضمتهم الخلوة . ووهنت عزيمة هشام فألقى رأسه بين يديه كأن منكبيه عجزا عن حمل رأسه الرازح بالوساوس المحرجات . فان ما افضى به اخوه مسلمة لمخوف رهيب . وتمثل فاجعـة كربلاء وما تماسك ان تنهد. سينتقم الهاشميون من الامويين في يوم راعب يعيد الى الخواطر ذكرى المأساة الناخعة المحفوفة بالاهوال

وآمن هشام بن عبد الملك بانقلاب الزمن . يومٌ لنا ويومٌ علينا . وشاء ان يعلم اين يستقر هذا الاموي الهارب من الويل . قال بصوت تغرغر فيه الحشرجة : والى اين ينتهي الفارّ من صولة القضاء يا مسلمة ؟

وظل ممسكاً رأسه بيديه على اطراق كأنه يخشى ان ينظر الى اخيه . فاجاب مسلمة بقوة الواثق ببيانه : الى المغرب يا امير المؤمنين !

– وما يكون منه في تلك الاقاصي ؟

– يعيد المجد المفقود ويرفع الراية الموؤودة . فتزهو دولة تعادل بسناها روعة الدولة المشرقة ، ويحرج الاعداء والخصوم !

فانتعش هشام بعد التراخي ومسلمة يصارحه بان الأمويين لن يضمحلوا . ورفع رأسه وقال : إذن لا خوف على الأمويين !

فقال مسلمة : النواة الصلبة أقوى من الفناء يا امير المؤمنين . ظلّ يتقلص من المشرق ليتألق في المغرب . ألا قرّ عيناً . كل شجرة باسقة تعدو عليها الأعاصير !

فصمت المجلس على ارتباك . ما تنبأ به مسلمة يغلي بالوعيد . ولم تملك العيون لفرط الذعر الجرأة على النظر بعضها الى بعض . وخشي هشام ان تذيع في الناس نبؤة أخيه فتصول المكايد وتتقلقل الدولة الأموية فاعلن : ليعقل كلٌ منا لسانه . ما قيل في هذه الحجرة يجب ألا يتخطاها ، كأنكم لا سمعتم ولا وعيتم . ليس مسلمة بالنبي لتؤمنوا بما زعم . خلوا عنكم الثرثرة اذا شئتم ان تأمنوا فتكة البتّار !

وبدا قاطع المقال ، جازم النبرة . وانفضّ المجلس وفي الضمائر رهبة ووجوم . ونهض هشام تعلو اساريره الكمدة . فكأنه ادرك الهرم . ومشى

الى حديقة القصر متثاقلاً يؤوساً . واندفع في اثره اخوه مسلمة على اطراق وجهامة .

وفي الحديقة صبية يلعبون. فما ابصروا الخليفة حتى تحلقوا عليه مزقزقين كأنهم اطيار الجنة. وانبسطت ايديهم تطالب بالنقود البيض. هؤلاء ابناؤه وحفداؤه . فجلا المشهد الريان عن الخليفة بعض الكربة وابتسم ولامس وجنات الصغار الاطهار ونفض في ايديهم جيوبه. ورفع احدهم اليه وشدد في تقبيله كأنه احبهم الى قلبه. فقال مسلمة: ابن من هذا يا امير المؤمنين؟

قال هشام : هو عبد الرحمن بن معاوية ولدي . مات ابوه عن ثلاثة من الذكور هذا ادناهم الى عطفي واقربهم الى نفسي !

فداعب مسلمة الغلام الوسيم مداعبة مرحة تجلت له بها حدة ذهن الصغير. وما لبث ان حمله بين يديه وسدد اليه نظراً مستطلعاً نافذاً . وكأن قوة الغيب نطقت في مسلمة فهمس في اذن هشام : هذا هو !

فاختلج هشام وقد ومض في عينيه مرمى مسلمة . غير انه أخفى تأثره وسأل باستيضاح الغافل : من هو ؟

— الهارب من الدم ، الحامل الى المغرب التاج والصولجان الامويين!

فانتفض في هشام الغضب . ولم يشأ ان يصبّ نقمته على مسلمة اخيه فتولى متأففاً مدمدماً : ما لنا وللغيب يا مسلمة. فالغيب خزانة مقفلة لسنا نملك مفاتيحها . دعني من تشاؤمك . كل ما نطقت به هو عندي اوهام في اوهام !

ومال الى الكفران بعلم الغيب بعد ما اسمعه منه اخوه . وابى ان يصدق ان الدولة الاموية على اتساع اطرافها تتقوّض وتبيد . وجاهد في

النيل من ضلاعة مسلمة. ليس اخوه بالمعصوم من الخطأ. ولكنه لا يجهل ان مسلمة مالك ناصية علمه فلا يطيش له فيه سهم. عدا ان النقمة على الامويين، الفاشية في كل قطر عربي، نذير شؤم وويل.

وجال هشام في الحديقة الفسيحة الرحاب وهو لا يدري اين تستقر به قدماه. فالاضطراب العاصف بقلبه كاد يذهب برشده. أيذيب الجهد في انصاف رعيته، ويقف نفسه على خير قومه، ولا يجد ممن يروم اسعادهم غير الدس والاعراض؟

ولم يكن يطيق ان تنزل بمن يتفيأ رايته هضيمة والظلم تكرهه نفسه. غير ان عطفه على الناس لم ينجح في استمالة القلوب الثاوية على نفار. قال وهو يجرض بريقه: كم يطيب لي ان اجمع حولي الهاشميين واقيم واياهم على خلوص مودة. هؤلاء ابناء اعمامي. ولكن مطامعهم المترامية الامد تأبى عليهم ان يكونوا في تدبير الملك دوني. حاولت فيهم دهاء معاوية فلم اوفق، واعتمدت بطش يزيد فنبوت عن الهدية. فالدسائس حولي قائمة قاعدة. وبين الامويين أنفسهم من ينقم عليّ ركوب منصب الخلافة. فالطامعون منهم فيه يرتعون في لحمي ويسعون لتهديمي. ولو استطاعوا في الخلاص مني ما حاولوا في عمر بن عبد العزيز لطبخوا لي السم النقيع. ولكني اتقيهم بيقظتي. فاني لشديد الحذر في مأكلي، مفتوح العين في خطوي وسكوني، تنأى عني الثقة حتى باخوتي وابنائي. واضيعة هذا العمر الطويل، لم اقوَ فيه على خطب ود صديق. فمن يشتري مني الخلافة ويبيعني بها بسمة المرح وهناءة الضمير؟

وترجرجت في عينيه نداوة حائرة دلت على ما يعاني من ارتباك وما

يعروه من قنوط . ملك سعيد ، يتوق الى شراء الراحة بملكه ، والراحة تنأى عنه . فما اغلى البدل وأعزّ المنشود !

٣

بردى يجري بفيض السخيّ واهزوجة الطروب . هذا اوان الربيع . فالغوطة ضاحكة ، ودمشق قريرة العين ، وسنى . ونشر الاخضرار على المروج نضرته فبدت ريّا العوارف ، حاليات الابراد . وسرحت الغيد في الظلال المراض يبسمن للطلالة الوارفة ،المغناج .

وما خلا بستان من سرب تغري منه رخامة الصوت وغضارة الفتوّة ، فكأن دمشق وما حولها حطت عصا الترحال في تلك الجنان . والى خميلة عقد عليها العنّاب والياسمين قباباً عاليات درج الشباب الطلق تحفّ به القسامة اللينة الاعطاف . هما اثنان : شاب وفتاة ينطق في قسماتها المجد العريق وتشع في ملبسها الأنافة الفيحاء كأنها في الحسب اللباب صنوان.

وكلما اضطربت منهما القدم الى الخميلة المتشابكة الأغصان حانت منهما التفاتة واعية الى ما حولهما كأنهما يخشيان وقع البصر المرتاب. وتلتقي نظراتهما في انكفائها فيختلج القلبان وقد اقاما من الغرام على فورة عذراء

ويتكلمان . الا ان الهمس يغلب في حديثهما الجهار . قالت وسمرتها العذبة تضيء فدها الرزين الامتشاق : اين نقيم يا عبد الرحمن ؟

فنفذت عينه الى ياسمينة غضّة وقال: ما رأيك في هذه الخيمة الظليلة؟... سماء خضراء تتألق فيها نجوم بيض كالبسمات !

فاومأت انها راضية باستظلال الياسمين الناصع كقلبها ،الطريّ كعمرها.

وتغايدت الى المجثم ومئزرها يكشف في خطاها عن ساقين بضتين، ومعطفها ينمّ على انامل وساعدين يستعذب فيها التقبيل . وخضبت أظفارها الحناء فزادت في روعة أصابعها اللدان .

واقتعدا ظل الياسمينة . وتقاربا حتى كادا يلتصقان . فابتسم عبد الرحمن وقال كمن طال تشهّيه الموعد البهيج : ميمونة ، كم أرقب هذا اللقاء !

فصبغ وجنتيها الخجل ، على أنها قابلت الابتسامة بالابتسامة وقالت : تدعوني اليك ولا قوة تسعفني في براح دارنا . أتجهل غيرة أبي ومنعه اياي من مغادرة المنزل وحدي ؟ ... اذا درى اني ألقاك واجالسك استحل دمي مع كل حبه لي وعطفه عليّ !

فصاح وقد تفتقت لهجته عن ألم دفين : لي الله من ابيك . ما عرفته الا حاقداً علينا ، كارهاً لنا . يكيد للامويين ويحاول ان يروي بدمهم الارض . نقم على جدي هشام بن عبد الملك وناوأه في سلطانه ، وجفا خليفة اليوم مروان بن محمد يبغي هدمه . فما الباعث على البغضاء ونحن وانتم من دوحة واحدة ورفت اغصانها ؟

وكان الزمن قد وثب عشر سنوات . فمات هشام بن عبد الملك وتلاه في الخلافة الوليد بن يزيد المعشاق ، فيزيد الناقص ، فابراهيم المخلوع ، ثم انتهت الى مروان . قالت ميمونة : تلك الاحن الضاربة أكبادنا ضربتُ بها كبد الدهر يا عبد الرحمن . فلا أراني اقيم لها خطراً . فالحب العاقد بيننا يزري بما تلبد في جو العشيرتين من غيوم . أجل ، أنا ابنة عبد الله بن علي ، الهاشمي المنتمى ، الناهد الى استئصال الجذع الاموي ، غير ان قلبي وقفٌ على نبتة اموية بليلة المغرس ، هي انت . ولست اشاطر ابي

ضغينته ، بل يشوقني جمع الشمل . ولكن الوهدة اعمق مما نتوهم يا عبدالرحمن!

فهز رأسه جزعاً وقال : القدر افعى يا ميمونة . لا يلين حتى يعضّ . اخوة واعمام يتناحرون . بئس ما نحن فيه من قوّة وحصانة !

فامسكت بيده تجذبه اليها وتقول عاتبة : عبد الرحمن ، ما تلاقينا لنستسلم الى الاشجان !

فنضت عنه كلمات الاكتئاب المحرج ونظر اليها بهيام الولهان يقول : صدقتِ ، نحن هنا لبث الاشواق . وميمونة مورد الطلاقة عندي . فلا أدري كيف دهمتني وانت الى جانبي الحفائظ الموجعات . على انه يؤلمني ان اقيم واياكِ على وفور هوى وان يبيت أهلنا على موجدة وشحناء !

وأطلق زفرة تفيض اسى كوت في ميمونة رهافة الحس فقالت متأثرة: أتضيمك القطيعة يا عبد الرحمن ؟

فزفر وناح فيه مقاله : انها لتسحق قلبي !

– وما يضيمك منها ؟... قل ، بحياتي !

فاجاب ببيان كسير: أخشى ان تقف حائلاً بيننا وانت مني يومي وغدي!

وتحمس فأعلن : ان القطيعة لهادمة المجد يا ميمونة . ألا ترينها هادرة جارفة في فصل الاخ عن اخيه ؟... جمعتنا قريش في سمط ، فعدت علينا المطامع فانتثرت الحبات . ولو انصفنا انفسنا لتفيأنا ابداً ظلال قريش والقلوب على القلوب . ففي سبيل قريش نحيا على وحدة في الهوى ، ولاجل قريش نموت على اتحاد في اليقين !

فانحنت عليه حتى باتت كتفه لها وسادة وقالت بعذوبة خضلة : أيأبى عليك حبي ان تطيق الجفاء منا يا عبد الرحمن ؟

فتنفس عن شوق وافضت حنجرته بخلجة ضميره فقال: غبطتي معقودة على بسمة شفتيك يا ميمونة ؟ ... أتذكرين يوم تلاقينا ؟... كنا على هذه الضفاف . ما وقعت عيني عليك حتى وثب اليك قلبي. وراقني ان تبادليني النظر وانت بجانب ابيك . وتألقت يمناك بزهرة من الفلّ شممتها ورميت بها على مقربة مني . يا لعطر الفلّ ويا ما أحيلاه من رسول !... فالتقطت الزهرة وعكفت عليها استروح شذاها بتقى العابدين . وحرصت عليها كأنها ذخيرة وليّ . وانا اعرف اباك عبد الله خصمنا اليقظان الغضوب . ولكني لا اعرفك. فسألت عنك فقيل لي انك ابنته. فراعني ان اهوى ابنة عدوي . غير ان الحب يزدري المنابت والطوابع يا ميمونة . ان هو الا عينٌ ابصرت وقلب بلي بالخفقان فجنّ !

قالت وذكريات الامس تشرق في خاطرها فتنتشي: لست انسى الموقف البهيج . منذ بدوت على الضفاف حدثني عنك ابي . ومع كل ما التمع في حديثه من مقت وكره دفعني اليك ميلٌ لم املك صده عني. وابتعدت عنك وخيالك في جناني . ووافاني رسولك يقص عليّ شغفك بي فاضغيت بطرب ولذوى . وضمنا لقاء على لقاء حتى جمعنا هذا الموعد الجميل !

وابتسمت بدفقة من الانس الصفيّ . قال عبد الرحمن : واريد أن تتوالى المواعد ويستمر اللقاء يا ميمونة ، بل اشتاق ان يعقد لي عليك . وأخشى ألا اظفر بالبغية وابوك عدو لنا. فأثار علينا في خراسان أبا مسلم. وعقد وشيعته في العراق مجالس التحريض ينادون فيها الناس الى الانقلاب على الامويين . ولا اخفي عنك ان الخلافة صائرة حتماً اليّ اذا طال بالحياة عهدي . فان لم اكن تلو مروان ففي اثر من يتلو مروان . وليس يضيرك

ان تكوني امرأة خليفة. ولا يضيرني ان اجمع بك في قلادة واحدة الامويين والهاشميين ، فتتفق الكلمة وينتظم الشمل الشتيت !

فاعلنت : ولكن ابي بريء ...

فقاطعها بحدة: لا تدفعي عن ابيك التهمة ولست اجهل نياته . هو قائد الهاشميين الى الثورة. فاذا استطعت ان تشفيه من غليانه خدمتني وخدمت نفسك ، والا قضي علينا بالاخفاق في هوانا السميح !

فقالت بالتياع يشفّ عن عجز الكليل: ابي لا يصغي اليّ يا عبد الرحمن!

فنبر: خاطبيه بشدة. قيل لي انه وافر الاصغاء اليك . فميلي على قلبه واستعطفيه . قد يلين الحجر الصليب !

فهزت رأسها على ارتياب وقالت : لو كنت تعرف ابي معرفه صادقة لامسكت فيه عن هذا الرأي الانيس . عبد الله بن علي مكابر عنيد ، لا ينحني ازاء حجة ولا يهتدي بدليل. فاذا احس مني ميلًا اليك سفك دمي كأني نعجة. غير اني ساحاول اقناعه بالتريث. ربما وقعت منه في نقمته على ملاينة وفتور !

وافلتت قولتها بخفوت الخشيان . فهي لا تطيق الفصل بينها وبين عبد الرحمن وحياتها اضحت وقفاً على الفتى . قال النبيل الاموي وقد تجلت له خلجات نفسها: ميمونة ، لست اعدل بك الدنيا. يمضني ألا تكوني لعبد الرحمن برضا ابيك . انا لو شئت ان اختار سواك للقيت ضالتي في بنات اعمامي . درت بحبي لك ابنة عمي زينب بنت سليمان بن هشام فلامتني وعاتبتني فيك. قالت : « أتهيم بابنة عدونا يا عبد الرحمن ؟. » . قلت : « لكل من دنياه ما يهوى يا ابنة عمي!». فأغضت على ألم. بيد انها لم تلبث ان دلفت اليّ في

احدى الليالي تقول : « دع عنك الهاشمية يا عبد الرحمن وانظر الى حظك فينا نحن بنات اعمامك . فان بيننا الجديرات بحبك ، الوسيمات الصفحة !». وما غاب عني انها تريد نفسها فقلت : « ما تمّ قد تم يا زينب ، فما لنا ولمحو المكتوب !». قالت :«واذا جلوت لك سراً عذب المخبر فهل تصدقني فيه؟». قلت : « هاتي !».فابعدت بارتعاش في صوتها وشفتيها وباطراق في عينيها : «اني اهواك يا عبد الرحمن !». وانتابتها الغصة . وتولاها الخجل القاصم فما تجرأت على النظر اليّ . وانسابت دموعها على خديها تسترحم وتستجير . فوقفت منها موقف الحيرة والاشفاق . الا ان حبك انقذني مما بي فوجمت لا ابيح للساني الكلام. فقالت زينب تختلج في عبراتها :«أيجوز ان تضحي بي وانا ابنة عمك لابيك لتهوى من ينكر دمك دمها ويكيد لنا اهلها ؟». قلت وقد ادركتني الرأفة دون ان يميع كلفي بك :«زينب ،ليس العتب عليّ ،بل على هذا الخافق في جنبي ! » . فقالت بحرقة :« اذن لا سبيل الى مبادلتنا العاطفة ؟ » . قلت :« انت ابنة عمي ومودتي لك موفورة ،راجحة ،غير ان ميمونة تملك مني مستدق الحس وفورة الهيام ،فانا بها مولع مفتون !». وزينب تبطن العجب المتناهي يا ميمونة . فما وقعت في أذنها كلماتي حتى لوت وجهها عني وهي تقول بحقد مستفيض عاودها به زهوها :« شكراً يا عبد الرحمن ، هذا موقف لست انساه !». وانصرفت هائجة غضبى . وتراءى لي انها ستعمد الى الانتقام مني وهي البعيدة الكيد ، غير اني لم أحفل بما ستبدي وليس لها عليّ قدرة وطول . وتحاميت الافضاء اليك بما بيني وبين زينب وليس في اطلاعك على الامر جدوى . ولكن رأيتني الساعة مكرهاً على معالنتك الخبر لتدركي منيف مقامك عندي . فتدبري الامر واقنعي اباك بان يكفّ

عن التحريض علينا وفي التحريض هدم المنى العذاب !

فأقلقها وهو يحدثها عن زينب بنت سليمان بن هشام بن عبد الملك. وليست تجهل ميمونة مبلغ الوضاءة في مزاحمتها على الفتى. ففي زينب من قوة الاستهواء والروعة ، ومن الاعتداد والكبر ، ما لا تنطوي عليه في دمشق فتاة . فان تقبل الى عبد الرحمن في استجداء حبه ، وان يصدها عبد الرحمن ، ففي الطعنة ما لا يرجى به اندمال ولا برء

وفكرت ميمونة بارتياع في ما سوف ينال عبد الرحمن من انتقام ابنة عمه. فلن تسكت زينب عن المهانة. قالت ابنة عبد الله بن علي بجزع : عبد الرحمن ، لن تسلم من عضات ابنة عمك الكافرة الحقد . ربما دفعت اليك من يودي بك بطبخة سم او بطعنة خنجر. كن على حذر. فمن المحال ان تنام زينب عما تجرعت فيك من ضيم وستكون أفتك بك من اعدائك!

فاجاب ببسمة من لا يبالي: لا عليك. هي دون ما يخيل اليك منها حيالي!

فما اطمأنت شديداً الى سكون زينب المتغطرسة الغيور. وتحدثت عن نقمة ابيها الصاهلة وهي خطر سليط يهدد عبد الرحمن في غده فقالت: وسابذل جهدي في صرف ابي عن مناوأته اياكم ، فان اوفق للمهمة فهو حسبي !

وبدا فيها الصدق الاثيل. فما تمالك عبد الرحمن ان طوق خصرها وألقى رأسه الى رأسها وهو يقول بشغف : ميمونة ، لست اخشى من ابيك على نفسي ولا على دولة الامويين في شموخها مقدار خشيتي على حبنا الطالع . فالامويون يملكون العدة لقمع الفتنة ، وانا املك العزم والهمة للذود عن حياتي . ولكن من يضمن لي في مضطرب الاحقاد اني سأقوى على بثك اشواقي ؟ ... يجب العدول بابيك عن اضرام النار الاكول وهو النافخ

في جذوتها لتندلع وتستطير !

قالت : وعدت بالمحاولة وساحاول . فنعيش معاً او نموت !

فالتهبت في جوانحه المسرة وقال : ما اعذب التضحية يا ميمونة !

وضمتها غيبوبة حلوة تعاقدا فيها على النضال عن حبهما المحفوف بالخطر . واذا وهت العزيمة دون المطلب فليجمعهما الموت في حفرة ولا كانت الحياة !

٤

كل مجهود في الامساك بالدولة الاموية عن الزلق باء بالخزية . فهي على شفير مهواة ، ينذرها غدها بالتداعي ويواثبها الاضمحلال

ونظر اليها الخليفة مروان بن محمد الجعدي نظرة الاسيف اللهبان . واعتزم حبكها لتتماسك فما اسعفته يمينه . فالاهتراء طغى عليها فأضحت رخوة مائعة وقد تلبدت فيها اكفان العفن هالات على هالات

ومروان ذو جرأة وتدبير. يذل هواه لعقله ويصبر على المكروه. الا ان الارث انتقل اليه على حشرجة وتفكيك اوصال . فكلما داوى منه جرحاً سال جرح . ما نجا من ثورة الحروري في العراق حتى هبت عليه فتنة نعيم بن ثابت الجذامي في الاردن . فضرب عنق الجذامي فصفر ونقر ابو مسلم في خراسان .

والهاشميون اثاروا الخواطر في كل زاوية من زوايا الدولة على متناهي البساط . وظاهرهم نفر من الامويين في طليعتهم سلمان بن هشام بن عبد الملك. وسليمان لم يكن راضياً عن ركوب مروان مقعد الخلافة وهو يريد المقام لنفسه ،فتنكب عن المبايعة وجاهر بالعداء يقلق به مروان . الا ان الجعدي ثبت على المحنة ودغدغ مقبض حسامه مهدداً ببضع الدمل . ولم يخش سليمان مثله ابا مسلم المستفحل الشوكة . فان ابا مسلم لغضبة جائحة . غاظه ان يستلّ الامويون الخلافة من آل البيت ، أقطابها واربابها ، فازمع

اعادة الحق السليب. وكتب نصر بن سيار ، عامل مروان على خراسان، الى الخليفة في دمشق يحذّره من ابي مسلم ، فاجاب مروان ان تدبر الامر

ونصر بن سيار ان يكن ذا رأي فليس ذا مكنة . لمس الغليان وصارح به امير المؤمنين داعياً الى خنق الفورة المتوعدة دون ان يجرد السيف ويخضب شفرته بدم الشانئين. فاكتفى بالابلاغ كحامل المناعي كأنه موقن انه ينوء بالعبء . قال يخاطب مروان في رسالة تتحرق لهفة :

« ... ومما وقع اليّ يا امير المؤمنين ان الرسل يغدون ويروحون بين خراسان والبلقاء على رمية حجر من مثوى الخليفة. ابو مسلم يكاتب ابرهيم الامام ويقص عليه حديث الثورة المتحفزة وابرهيم يحضه على اذكاء نارها. وما ابرهيم سوى ركن الدعوة الهاشمية وقبلة انظار الناقمين. فاذا استطاع امير المؤمنين انتزاع الشوكة المستقرة بجنبه فانه ليهدم حجر الزاوية في ما يحاول الخصوم من بنيان ! »

فتلظت في مروان الريبة ودفع ارصاده الى البلقاء للقبض على كل رسول شاخص الى ابرهيم الامام، قطب الهاشميين. قال مروان يدعوهم الى الانجاز واليقظة: على ان الخير في ان تقبضوا على هؤلاء الرسل احياء كي نستدرجهم الى البوح بما يبطنون ، فلا تخترطوا بواتركم لسوى ضرب المشمخرّ من الهامات !

وآلمه ان تهدده النوازل من كل جانب ، وان ينغمس الامويون في الكيد بعضهم لبعض. فلو ملكوا المواءمة لذللوا العقبة وأمنوا شر الفتنة. وكرهت نفسه الابهة والدولة في ملتطم الانواء، فانزوى في ديوانه معرضاً عن ملذات الدنيا . وتنكر لجواريه لا يجالسهن ولا يتذوق فيهن مخمور

النشوة. واعمت الغواية احداهن فبرزت له تجرّ مطارف الحسن المطبوع، فانتهرها بزعقة داعرة: اغربي يا ابنة اللخناء، والله لا دنوت منك ولا حللت لك عقدة وخراسان ترجف وتتضرم بنصر بن سيار وقد امسك منه ابو مسلم بالخناق !

فكاد يصرعها . وران عليها الشلل فرسخت في وقفتها لا تندفع في خطوة . واستبطأ مروان انصرافها فنهض اليها متبرماً بها ودفعها بجمع يديه وشفتاه تتدفقان بالقول الحاطم: أتريدينني على المعصية يا قبيحة العرض وقد نهيت عنها نفسي ؟ ... أزنىً وقحة ؟ ... والله ، ما اشتريت اجمل امرأة بفلس زائف وبملكتي على قضقضة وخاطري في ضنى . اذهبي ! ... انت عندي دميمة شائنة على كل وضاءة فيك !

فانهارت كالصنم. وركلها برجله وصاح بحاجبه : ادفع عني مرأى الجبيثة النتنة . ما انا بحاجة الى الفحش ودولتي مظلمة الافق ، جهماء الطلعة !

بيد ان الجارية لم تكن تسمع ، فالاغماء عبث بمكمن الحس فيها . فرفعها الحاجب بين يديه ينطلق بها الى مأوى الحرم ومروان ينظر اليها بعبوس وحنق ويقول بعربدة : تدعوني الزنيمة الى اللهو والمتعة وتحتي يترجرج سريري . والله لا عرفت اللذة الا وقد وطدت هذه الدولة على منعة عصماء !

وتلظى فيه السخط. فالغد يقلقه . وعاد ينادي اليه حاجبه وخاطبه بزئير: لست ابيح لامرأة ان تدوس هذه العتبة. كل معاندة نصيبها الموت، وكل شذوذ يكلفك حياتك . اخرج !

فانحنى الحاجب وتوارى في رمّة عين ، على انه لم يكن من رأي امير

المؤمنين، هذا السيد الضخم العاصي هواه في رياحين الجنة، فغمغم بسخرية لاذعة : دعوه مروان الحمار وقد صدقوا . ما رأيت اقسى منه على كبده، مع ان الحياة هناءة وعبث. والهناءة والعبث بين احضان النساء يا مروان!

غير ان مروان لم يكن يدأب في سوى ترسيخ قدميه ، فلا بسمة ولا فرحة الا وقد استقرت الدولة الاموية على قاعدة صلود . واستوى على سريره يفتح اذنيه لكل ما يحمل اليه عيونه من انباء فتنة خراسان وانتفاض الخوارج في العراق . وكلما سقطت في مسمعه القواصم تململ وصاح : لن تنام الغواشي الا وقد فقأت عينها بنتوء السنان. سأنطلق بنفسي الى الشغب اصرعه وانقذ منه دولتي . فاني لاحمل على كتفيّ اثقالاً جسيمة وتبعات وازنة ، غير اني لن انوء بالحمل الفادح بعون ذي الجلال !

واشد ما كان يزعجه التفاف خراسان على دعوة ابي مسلم . قال بحقد طافح : بطر الجلف المعتلّ النسب حتى بات يهددني في اعلى ذروة من سلطاني، ولكن مروان ليس نصر بن سيار !

ودارت به ايام دُهمٌ لم تغمض فيها عيناه. ومثل الحاجب ذات صباح بين يديه يقول : بالباب رسلك الى البلقاء يا امير المؤمنين !

وهو يرقب هؤلاء الرسل ينقلون اليه اخبار ابرهيم الامام . وود لو افاضوا بما يسعفه في ضرب الحصن العنيد . فمن الخير للدولة الاموية ان يتوارى عنها هذا الوجه الشائم وكل سعي لاتقاء ويله لم يعتصم بنجح . فهو يقيم في البلقاء مكرهاً منفياً نزولاً على مشيئة الخليفة، الا أنه مع اضطراره الى الاقامة في البلقاء لم يكن ينثني عن الاتصال بالنافرين من العهد الاموي، الراغبين في استئصال دولة بنى دعائمها معاوية بن ابي سفيان. وصاح مروان

بحاجبه وقد استشفّ الخير من البشرى: ليدخلوا في طليعة الناس. اني بالانتظار!

فدخلوا يقبلون الارض في حضرة الخليفة. وكانوا اربعة. مع ان مروان يذكر انهم ثلاثة. فسدد الى رابعهم نظرة رهيفة وقال بحذر كأنه يخشى الغريب الدخيل: أعلى السارّ وقعتم؟

واستدل من اساريرهم انهم موفقون فشاع في اساريره الاطمئنان قبل ان يدلوا بجواب. ووهب لهم اذنيه فقال اكبرهم مرتبة: انجزنا كل ما دعانا اليه امير المؤمنين!

فساورته غبطة ارتخت لها شفتاه وقال مستوضحاً: هل قبضتم على رسول ابي مسلم؟

فأشار محدثه الى رابعهم وقال: هذا هو يا امير المؤمنين!

فاصلح مروان من جلسته وارتفعت هامته وهو يسمع ان رسول ابي مسلم بين يديه وعاد يسدد الى الرجل نظرات قاسية، كالحة، ويسأله بامتهان: أأنت هو الانكد؟

فارتعد رسول الخراساني هلعاً. وخشنت لهجة مروان فقال لرجاله: وهل اهتديتم معه الى كتاب من ابي مسلم الى ابرهيم الامام؟

فكان الجواب: بلغنا من الأمر اقصى مداه يا مولاي!

فطنّ صوته كالأهزوجة: واين الكتاب، لا أباً لابيكم؟

فازاح اكبرهم مرتبة عباءته عن صدره وامتدت يده الى عبه يستلّ منه رقعة مطوية ويلقيها بين يدي الخليفة ويتراجع بخشوع التقي اكباراً لمقام رب الدولة. فقبض عليها مروان بعجلة من نفد صبره ونشرها بشوق يقرأ فيها:

« الى امير المؤمنين ابرهيم الامام ، ابن عم رسول الله ، من ابي مسلم الخراساني المؤمن بالله ورسوله

« السلام على مولاي . ادار المسلمون في بلاد فارس الرأي في اصلحنا للخلافة فوقعوا عليك . ولقد نشرنا الدعوة باسمك واوشكنا ان نجلو الرماد عن الجمر . غير اننا نرقب كلمتك وهي عندنا الكلمة الفصل . فاذا رأيت ان نضرم الفتنة اشعلنا نارها ، والا تريثنا حتى تأذن في الوقدة . والاتكال على الله ! » .

ففار مروان . وتراءى له وهو يقبض على الكتاب ان في يمينه افعى . فاحمرّت عيناه وسالت في خديه صفرة الجزع . فالنبأ اذاً صحيح . ابو مسلم يفاوض الامام بهدم الامويين !

وكادت الشتيمة تطفر من شفتي مروان . وحدثته النفس باجتثاث هامة الرسول . الا ان الحكمة تغلبت فيه على الغضب . فملك اعصابه واكتفى ببسمة قاتمة يجلبب بها ألمه . وهزّ رأسه وقال : ارى ابا مسلم يتنمر . استأسد القنيط . لا بأس ، نحن واياه على مديد حساب !

والتفت الى رسول الخراساني يقول : ممن انت يا اخا العرب ؟

والرسول منذ وقع في قبضة عيون الخليفة وهو يلمس رأسه بيديه وقد ايقن انه غار في اعماق الرمس . وارتجف ومروان يخاطبه واحسّ بشفرة السيف تتغلغل في نحره . ولم يكن منه الا ان سجد بين يدي الخليفة وكل ما فيه يخفق ذعراً . وجاهد في النطق والخليفة يستطلعه امره . فاجاب بصوت حائر ، خافت ، يكاد لرقته يمحى : انا من اخوالك من قضاعة يا امير المؤمنين !

فاتسعت بسمة مروان القاتمة وقال : ألا نعم المنتمى . حباً وكرامة. ما قادك الينا يا خالي ؟

فاطرق الرسول وقد دارت به الارض . فقال مروان : لا تخف . هات كل ما عندك. لسنا بالغلاظ الاكباد كما جاءك عنا . ان حلمنا ليطفو على دفقة السخط فينا !

فشعر الرسول على خشيته ببعض الامان وقال بلعثمة ظاهرة : انا رسول ابي مسلم الخراساني الى ابرهيم الامام جارك في الحميمة يا امير المؤمنين!

فضحك مروان ضحكة خشنة وقال : أمن اخوالنا ورسول اعدائنا؟

فانتكس في الرسول شعوره بالامان وعادت اليه مخاوفه فجمجم : ليس الرسول بمن تلقى عليه تبعة الرسالة يا امير المؤمنين !

— صدقت . وإلمامنا بهذه الحقيقة يهيب بنا الى العفو عنك ، على ان تحدثنا عن مبلغ عطية ابي مسلم اليك !

فتنفس الرسول واشتدت اعصابه بعد استرخاء وكلمة العفو تنساب في اذنيه وقال : أغراني بدمي في مقابل الف درهم يا امير المؤمنين . وانا ربّ عيال . فتقاضيت المال وشمّرت للامر مستعيناً بالله !

فقلب مروان شفتيه باستخفاف وقال : الف درهم؟... أتبيع حياتك بهذا المبلغ النزر ؟... ما رأيك اذا نفحناك من مثله بعشرة اضعاف ؟

فجحظت عينا الرسول وتنفس بعنف كأنه خشي ان يختنق. اي وميض غرّار يستهويه به الخليفة ؟... قال والحيرة تدلي في مقاله بحجتها : انها لمنحة ملوك يا مولاي . على اني غير حقيق بها . فماذا استطيع في خدمة امير المؤمنين ؟

—لن نطلب منك المحال. فكل ما ندعوك اليه ان تمضي في نهجك وتحمل الرسالة الى ابرهيم ثم تعود منه بالجواب. ولكن هذا الجواب تلقيه الينا. أتفعل ؟

فارتعد الرسول وجرض بريقه وعاودته رعشة الموت. فما كان من مروان الا ان نادى خازنه وجلاّده وامرهما بالوقوف الى جانبي الرسول. هذا عن يمينه وذاك عن يساره. وعهد الى الجلاد في نصلة سيف قاطعة، وألقى بين يدي الخازن عشرة آلاف درهم، وضحك ضحكة المنتصر القاهر وخاطب الرسول بقوله: عليك ان تختار يا خالي. اما المال او السيف. فلسنا نريدك مكرهاً على امرك !

فانخلع قلب الرسول وعيناه تحومان على نصلة السيف المتلألئة على انذار ووعيد. وسكن جأشه والمال يتوهج في ناظريه. وما تماسك ان قال مع رؤيته من بعيد حسام ابي مسلم يسدد اليه الطعنة الفاصلة: موتي في رضا امير المؤمنين أحبّ اليّ من الحياة في سخطه وقلاه !

فغمرت موجة من المسرة محيا الخليفة وابتسم مروان وقال بلهجة تتبطن الخبث الهنيء: سرّني جميل قولك وبارع تخلصك. أعطوه المال !

واطلقه الى الحميمة رسولاً الى ابرهيم الامام وكتاب ابي مسلم في يمينه. ووكل به عيونه الثلاثة يتبعونه في مسيره ويعودون به. وابرهيم في الحميمة اسير وليس بالاسير. يجول فيها على مداها ولا يقوى على براحها. وهو اذا انسلّ منها الى العراق اندلعت في العراق الثورة. واذا انطلق الى خراسان اشعلها ناراً جائعة. وودّ مروان لو تدحرج هذا الرأس اتقاء للنازلة. ولكن الامويين غرقوا في الدم حتى الناصية، فاذا تحاموا السياسة الحمراء

فقد يوفقون في عرف الخليفة الجعدي حيث خابوا. غير ان كتاب ابي مسلم الى ابرهيم الامام قلقل السيف الاموي في غمده يأبى عليه الاستقرار الرفيق

وفي الحميمة انصرف ابرهيم الى ربه وشيعته. ولقيه الرسول في المسجد يتلو آيات الله. فألقى بين يديه الكتاب وهو يحييه بالخلافة، فتجلت مطاوي الرسالة للامام قبل ان تنفذ اليها عيناه . ولما وقف عليها قال : الحمد لله اولا وآخراً . حقّ الحق وزهق الباطل . شاء الامويون اغتصاب حقنا فنصرتنا عليهم يمين الله !

واكرم الرسول واوسعه في العطاء. واستوضحه الحالة في خراسان وفي العراق. فحدث الرسول عن استفحال دعوة ابي مسلم، وعن اختمار العقول بروح الثورة وكرهها للعدوان الاموي المستشري. فانبسط البشر في ابرهيم الامام وكتب الى الخراساني يقول: «انا لهذه الامة على ما تبغي مني. وما الخلافة غير تراث هاشمي تسلسل الينا من الرسول الامين. وعترة الرسول اولى بها وأحق. هذه يميني أمدّها اليكم. انهضوا لتقويض البطل فتجدوني في طليعة المجاهدين !»

وتهادت الرسالة الى مروان لا الى ابي مسلم، فكوت خاطر الخليفة الاموي واوغرت صدره. وسخنت احقاده فكتب الى عامله على البلقاء ان اقبض على ابرهيم الامام. فاطبق الجند على ابرهيم معتكفاً ابداً على صلاته. فايقن انه هالك ووميض في عينه بتّار مروان يهزه الجواب الفضّاح الى الخراساني. فتمتم بينه وبين نفسه : قضي الامر ! -

غير انه التفت الى الجنود المتحلقين عليه يقول: ما بكم؟... ضللتم الهدية ! فما اجابوا كأن السكوت مقدور عليهم، بل شدّوا منه الوثاق وقادوه

الى حرّان ، مثوى الجعدي المختار ، يطرحونه امام الخليفة الفائر الكبد، المتحفز للانقضاض . على ان مروان امسك عن الاندفاع في نقمته مستعيناً عليها بالمداورة . قال يخاطب اسيره بعتب الصفيّ : أنكرمكم وتسيئوا الينا يا ابرهيم؟... كلما حدبنا عليكم لججتم في الكفران واكرهتمونا على تأديبكم. فكأنكم تبيحون لنا دمكم ثم تلومون. انت في الحميمة مصون الجانب ، هنيء المضجع ، فما يسوقك الى مواطأة ابي مسلم على العصيان ؟

فطمع ابرهيم في لهجة اللين ومال الى الانكار. قال: نصر الله امير المؤمنين وأذلّ اعداءه ، ما لي ولابي مسلم أصافيه واواطئه وانا منقطع الى ربي ، زاهد في دنياي ؟ ... بل ما لي وللعصيان أنفخ في ناره وقد احاطني امير المؤمنين بجليل رعايته وكريم مسعاه ؟

— أليس بينك وبين ذلك النغل الهائج في خراسان كالبعير الشقشاق صلة ولا مكاتبة يا ابرهيم ؟

— أبرأ الى الله من مثل هذا المتطاول الاثيم يا امير المؤمنين !

— عجباً منكم معشر الهاشميين ، عرفتكم ذوي صدق وجرأة ، لا شيعة كذب ونفاق. وددت لو سمعت منك الاقرار بمفاوضة ابي مسلم يا ابرهيم، ولكنك جبنت واستخذيت حيث يستأسد الشجعان !

فبلع ابرهيم ريقه استحياء وألماً وتهاوت قامته على شموخها . الا انه تماسك ونشط في انكاره فقال : ليس الكذب ديدننا يا امير المؤمنين. نحن ابناء عم رسول الله ...

فقاطعه مروان بغضبة حاطمة : لا تجدّف على الرسول ، خزاك الله !

— اتقّ ربك في شتمي يا امير المؤمنين !

– بل اتق الكذب فينا يا ابرهيم، أما نهاك عنه دينك؟ ... انت شريك ابي مسلم في مكره ودسه !

– انا يا امير المؤمنين ؟

– انت يا وقح الوجه. أتجرؤ على انكار التهمة وقد باتت طوقاً في عنقك؟

– في عنقي ؟

– خذها ، ثكلتك أمك !

وضرب بالرسالة النمامة وجه ابرهيم الامام . فما اضطرب ابرهيم مع هول المذلة ، بل استند الى رباطة جأشه في دفع التهمة . قال مروان وهو يأتكل في غليانه . من كتب هذه الرسالة ايها المنافق ، أأنا ام انت؟ ... ألا انشرها وقل لي بمن هي والى من. فقد تذكر ، وانفك يخدشها، ما غاب عن ذهنك ولست ترمقها . من هو كاتب الرسالة يا معقد امل الهاشميين ؟

فما خانت ابرهيم الامام نفسه. فرفع الرقعة عن البساط المالىء الايوان ونشرها بتؤدة. وقرأها على مهل واومأ بالنفي وهو يقول: لست بمن يكتب رسالة تدعو الى فتنة في المسلمين !

فضرب الخليفة الارض برجله وقد هاله الاجتراء البغيض على الحقيقة الصراح وعدر يستشيط نقمة : أتعتصم بانكارك وخط الرسالة خطك ، وبيانها بيانك ؟ ... جاوزت في النفاق كل حد يا ابن الكرام !

ونادى حاجبه يقول: جئني الساعة برسول ابي مسلم . ابرهيم لا يقر بفعلته الا وقد جررناه الى الادلة ندمغه بها . سترى اننا لا نفتري عليك يا ابرهيم !

فاضطرب الامام وهو يسمع ان رسول ابي مسلم في قبضة مروان.

وأطرق على وجل ولم يبق من سبيل الى ستر الفضيحة. فنظر اليه مروان بتشامخ واحتقار. وما اطل الرسول ووقع في بصر ابرهيم حتى ودّ الامام لو غار. قال مروان بشماتة ذابحة: والآن يا ابرهيم، أتخرج عن خبثك ونفاقك؟

فلم يجب وقد راعه الموقف. قال مروان بازدراء: ألا تكلم. اين قحتك المستطيلة و كذبك العريض؟

فما خرج عن صمته. فحدّق اليه مروان الجعدي يتبين من عنقه موضع السيف. غير انه تحامى قتله مخافة التمادي في اراقة الدم وصب الزيت على النار. يكفي الدولة الاموية ما احتزّت من رؤوس الهاشميين. ومضى في احتقاره وشماتته وهو يصيح بجنده: اقفلوا عليه باب السجن. من ينكر ما فعلت يداه ليس جديراً بضربة سيف تخضب عنقه بالشرف الحميّ!

ورشق الامام بنظرة ساحقة لو شبّت نارها لارتجلته هيكلاً من رماد!

٥

قلقت العمائم السود في مستقرها . فالهاشميون على بكرة ابيهم في ارعاد وازباد وقد شكّ في آذانهم نبأ القبض على ابرهيم الامام وليّهم ومشيّد الرجاوة فيهم . فاحتشدوا في دار عبد الله بن علي يدبرون الفتنة ويتآمرون في اعلانها بغيظ فوّار

وعبدالله اشدهم احتداماً . فيهز برأسه والدم يكاد يفور من عينيه ، ويضرب كفاً بكف ، ويتلوى ، ويقول بفحيح يتفجر دمدمة محرقة على شفتيه : عيونكم لم تبصر ما ابصرت عيناي . والله ، تراءى لي بنو هاشم كالنعاج تساق الى المسلخ ورأس زيد بن علي ، اخي ، يعرض في الرصافة تشفياً وارهاباً . ولقد ناشدتني هامة زيد على خرسها ان انتقم لي من الظالمين . فعاهدتها على الاخذ بالثأر . وان فؤادي ليقطر دماً كلما تمثلت الفاجعة وتخيلت رأس اخي المضروب العنق متدلياً في يمين الجلاد يشكو الحيف والجور . وبدا لناظري هشام بن عبد الملك ينتفخ ويتوعد مستهيناً بنا نحن حفدة الرسول . والى متى هذا الخنوع في بني هاشم ، تنزل بنا الطعنة اثر الطعنة ونحن كالاخشاب ؟ ... هل ضاع منا الحس وبتنا من العجماوات تضرب في اعناقنا المطاول و نُجرّ الى المخازي صاغرين اذلاء ؟ ... وحق من انشأها من العدم ، لست ارضاني هاشمياً اذا اطعت صبري في هذا الضيم المبيد ! فنصره اخوه صالح في تظلمه . قال عبد الله بهياج الملسوع ، الممتهن

على رحيب الجاه: أترضى يا ابا العباس عن هذا الاستخفاف بقدر الهاشميين واخوك ابرهيم يرسف في دهاليز مروان بالمهانة والضنى؟... ابرهيم إمامنا ورايتنا في يوم الثارات، فهل تريده على المذلة؟... لا تحسبن الجعدي الحمار سيعفو عنه فتسلم عنقه . لا ، وحق ابيك ، ستنزل به الضربة فتذروه في الرياح السوافي . ان مروان ينتهز للفتكة الحين المؤاتي . ولم يمسك به عن ارواء نصلته من دم الامام سوى خوفه من احتراق الدولة الاموية بنار الثورة المتبرمة بالانتظار !

وابو العباس في شرخ شبابه . اقبل من الكوفة الى دار عمه عبد الله ابن علي ، الضائعة في مصب الخابور من الفرات ؛ يصحبه اخوه ابو جعفر ذلك السيف المصلت الرهيب . وتولاهما غضب دفين آثرا به الصمت على البيان المحموم. بل هما رقبا ما سوف يكون من بني اعمامهما الكثر المحتشدين في المؤتمر الاربد، كأنهما يتعمدان ان يتعرفا مبلغ وفاء الهاشميين لاخيهما ابرهيم

اما وقد ساق عبد الله بن علي الحديث الى ابي العباس فلم يبق للسكوت ندحة. وتحركت شفتا العباسي بالصوت الرزين الهادىء على اختلاجه بالزفرات الحرار فقال : بتنا في ظل الامويين حمى مباحاً . تسدد الينا الفواجع دراكاً كأننا لها اهداف . فلا يعلو فينا ذو همة حتى يقتطع عنقه السيف الاموي بلا حساب. فاذا راعهم سعينا لامتلاك الخلافة فالخلافة طوق في اعناقنا كابراً عن كابر نحن ابناء عم الرسول. ولكنه حق سلبونا اياه عدواناً. ولست ادري ما اقول في هؤلاء البغاة وانتم ترون ما ينضّ لعيني وتلمسون ما تلمس يدي. فالاستطالة علينا جاوزت الزراية باحسابنا. وعلى مَ تريدونني لاتقاء الشر المستطير ؟

فصاح عبدالله بحماسة هادرة: نريدك على الثورة. ليس من اذكاء نارها بد . وهيهات ان تقع منها على موعد يؤاتينا كاليوم الطالع . نحن نشعلها في العراق وابو مسلم يضرمها في خراسان . ثم وادعنا الى الفتك بالامويين يا ابن اخي !

فقال ابو العباس: نعم الرأي يا عمّاه. فالثورة تشتهيها نفسي وتسعى اليها قدمي . ويبهجني ان تفكروا فيها مثلي . فالحطب في يبس . والنار على وهج . والريح الى هبوب !

فتلظت الصيحات : الثورة، الثورة !... يا لثارات الهاشميين !

وحنّت الجوارح الى الفتنة وابتغتها الاحقاد . فمنذ قيام معاوية على شؤون المسلمين واللعنة اقل ما يلقى بنو هاشم من ذرى المنابر وفي صدور المجالس . ولقد سئموا هذا الهوان المضروب عليهم وتشهّوا الخلاص من جو الارهاب والذل. فكأنهم دون النفاية قدراً . قال عبد الله : لنكتب الى ابي مسلم في خراسان نبلغه ما استقرّ عليه الرأي ونتفق واياه على موعد نكون فيه جميعاً على أهبة !

فقال ابو العباس : ومن اولى منك بالكتابة اليه يا عمي ؟

والتهبت العيون كالصدور بالرغبة في النجاة. وان لم تكن نجاة فموت يصون الاحساب ويستبقي الكرامات . وانتثرت الحلقة على عزيمة بعيدة الغور : « الموت للامويين ! . . . » . وما خلت الدار ، وثوى عبدالله ابن علي في مقعده يفكر فيما يخاطب به ابا مسلم لابلاغه ما اتفق عليه القوم، حتى علا صوت منسجم الغنّة يقول: ابي ، على مَ عوّلتم في ما تآمرتم فيه؟ فابتسم . هذه ميمونة ابنته تقبل اليه في مطاوي الليل . وهو يأنس

بمخاطبة هذه الريحانة النضرة ويعجب بذكائها الريّان . فيطلعها ويستشيرها في امره . وميمونة سمعت من شق احدى النوافذ ما تبودل من آراء وم انطوت عليه النيات. فما فاتتها كلمة من اقوال هؤلاء المتوافدين الى دار ابيه من العراق ومن جميع انحاء الشام. الا انها رامت استدراج هذا الاب الى الايضاح كي يتسع لها النفاذ عفواً الى نصرة عبد الرحمن بن معاوية في مطلبه. قال عبدالله وبسمته تملأ وجهه وتترقرق في تضاعيف لحيته : عوّلنا على الافناء يا ميمونة !

فتجاهلت وقالت : إفناء من ؟

فتعجب ابوها من جهلها واستفهم بعتب : ألا تعرفين من نستطيب القضاء عليهم؟... ولكنهم اولئك الذين اغتصبوا حقنا وتنقصونا . وكلما نضجت ثمرة من ثمارنا اقتطفوها عابثين بنا. عوّلنا على افناء الامويين !

وشعّت في كلماته الغضبة والغبطة. فسألت ميمونة: على بكرة ابيهم؟

فاجاب بقوة : على بكرة ابيهم . فلن نبقي منهم جرثومة . ثورتنا ستذهب بالشيخ وبالوليد. فلا نرحم شيباً ولا شباباً ولا طفولة. ومن الحمق ان نصون دم ابن يوم . فالثعبان سليل الافعى ، والثعلب وابن آوى صنوان . لن نرفق حتى بالمقعد الكسيح وسنهدمهم كما هدمونا . حان يوم الانتقام يا ابنتي ولمثلك ان تنكر اباها ان يكن ذلك الجبان الغمر !

فارتاعت . وما روّعها القضاء على الامويين بل كون عبد الرحمن ، صفيّها ، منهم. فالسيف الضارب الحزمة لن يعفّ فيها عن قضيب. قالت: وهل احتشدتم لتعيدوا تمثيل مأساة كربلاء ؟

فاجاب بنفرة الحقد وقد اوجعته الذكرى : مأساة كربلاء كنا لها

ضحايا ، اما مأساة الغد فضحاياها الامويون . ناشدتك الله يا ابنتي ، لا تستشفعيني في الامويين !

ودرى من انقلاب سحنتها ومن جريضها انها تطمع في شفاعة . فليست تستحلّ اراقة الدم . قالت بازدلاف نديّ : أيشوق عبد الله بن علي الغدر بالناس ؟ ... هل دعا اليه اخوته وبني اعمامه يعرّض صدورهم للاخطار ، ويجشمهم المشاق ، كي يدفعهم الى الثورة ؟ ... أليس بين الامويين جميعاً فئة يصونها من الهلكة نزرٌ من تقى وصلاح ؟

فاطلق ضحكة الذئب الجائع حيال الغنيمة الوازنة ، وقال ينعم بشفاء حزازته النغرة : لا صالحات في الحيّات يا ميمونة . فالسم في ناب كل افعى . يجب القضاء على الجميع !

— بلا استثناء ؟

— بلا استثناء . هذا ما اتفقنا عليه قبل ان ينتثر عقدنا . فالحكم شامل مبرم !

— ولكن الامويين ابناء عم الهاشميين وكلنا يرجع في نسبه الى قريش الاسرة الجامعة . أيقتل الهاشميون ابنـاء اعمامهم ؟ ... حذار من سخرية التاريخ يا ابن علي !

فاعجب بمنطقها وفطنتها . الا ان هواه سدّ عليه الى الاقتناع كل سبيل . قال يقرع الحجة بالحجة وفي نبرات صوته لذعات من غيظ دميم : كان على الامويين ان يستهدوا بهذه الحكمة يا ميمونة ويكفونا شر تنكيلهم بنا . فلم يفعلوا وقد انكروا صلة الارحام بيننا وكانوا فينا كالاعصار في كثبان الرمل . نثروا في كل صوب هاماتنا وما ذكروا الله في اعراضنا . فما قامت نبوّة الله

فينا حتى اوغر الحسد صدورهم علينا وبتنا في عيونهم قذى. قاتلوا منا علياً ولعنوه في مجامعهم ودسوا السم لابنه الحسن . ورجموا الحسين وبطشوا ببنيه واخوته وابناء اخوته واعمامه. وفتكوا بزيد ويحيي . وان ابرهيم الامام لفي قبضتهم ولن يسلم من غدرهم . وحتى مَ نصبر على هذا الضيم والريح مسعفة . فالقوم في خراسان إلبٌ واحد على الامويين . والفتنة في العراق واعدة بالشبوب ، فما ان نومىء حتى تندلع وكأنها تقضقض في يابس الهشيم .ألا دعي عنك الحلم يا ميمونة . هذه نهاية الامويين !

– والتاريخ ؟ ... والتاريخ ؟

فهز برأسه هازئاً بحكم التاريخ وقال: لم يرعوا جانبه فلن نرعى جانبه. علينا ان ننتصف مما لحقنا من عار وعلى التاريخ ان يعدل بيننا . اصدق شريعة يا ابنتي شرعة: «سن بسن وعين بعين!» . هم بدأوا والبادىء اظلم ، وربك عدو الظالمين !

وتغنى بالآية : « وسيعلم الظالمون اي منقلب ينقلبون!». فقالت ابنته تنافح عن طلبتها : اذا تسفلوا وهانوا فلنكن اصفى طبعاً واسمى قدراً . فان نجد فيهم من تنكب عن الهدى فقد تعامينا عمن دان بالحق وألف الصواب!

فصاح : ومن دان منهم بالحق وألف الصواب يا ميمونة ، من ؟ ... افصحي ، افصحي !

فاعلنت بمضاء : أتجهل عمر بن عبد العزيز وقد منع شتم علي ؟

– عمر بن عبد العزيز ليس من طينتهم. هذه نغمة شذت عن كريه اصواتهم. ولفرط حقدهم عليه طبخوا له السم . هل لكِ ان تذكري سواه في الطغمة اللئيمة ؟

فوثب الى شفتيها اسم عبد الرحمن . ولاجل عبد الرحمن تولت الدفاع عن الامويين . بيد انها خشيت اذا تلفظت باسمه ان يأخذ عليها ابوها ما لا تريد ان ترمى به . واستبطأ عبد الله جوابها فعدّ عليها بطئها افحاماً وقال بارتياح الصادق اليقين: أرأيتِ ان ليس في الخنافس طيب ولا في الذئاب صلاحٌ يا ميمونة ؟ . . . كلهم للسيف . وقد يكون السيف غالي القدر في استئصالهم . فلسوف نذبحنهم بشسوع النعال !

فلم يبق لها في المداورة متسع . وشعرت بما يدفعها الى النطق مستشفعة في عبد الرحمن اباها وان نالتها في التصريح المذمة . قالت وروح التضحية يسود نهيتها : واذا طلبت الى ابي ان يتقي الله في احدهم ، أيفعل ؟

فساورته الظنة . بيد انه انامها تناهياً في الاستجلاء . قال برفق مصنوع : في من يا بنيّة ؟

فارتجفت شفتاها ورقصت حنجرتها كأنها تقضي بمنكر . واطرقت وهي تتمتم بوجل الخشيان : في عبد الرحمن بن معاوية بن هشام !

فكأنها لطمت وجه ابيها . فانتفض عبدالله والاسم يثقب منه الاذنين ورمى ابنته بنظرة تندلع منها الريبة . وخشن صوته فقال بجفاء لاهب : في عبدالرحمن بن معاوية بن هشام؟... لماذا فيه لا في سواه؟... أتعرفين الفتى؟

فهالها الوعيد المتطاير من ثنايا كلماته . وشاءت الانكار فلم تقو عليه فلزمت الصمت . فامسك ابوها بمعصمها والسخط يغلي في دمه وقال بنزق: أتعرفينه يا خالعة الحياء ؟ ... وكيف عرفته ؟... واين ؟

واشتد به اللهاث . وتولت الرعدة ميمونة فعقد لسانها وارتجفت ركبتاها . فضغط ابوها منها اليد حتى كاد يسحقها ، وانفتحت شفتاه عن نواجذ حداد ،

واعلن بصوت عميق راعب كوحشة الليل في الارماس : لا كنتُ عبدالله ابن علي إن لم اقتلك الساعة اذا مضيت في كتمانك. اين عرفت الفتى؟.. و كيف؟

وساد ذهنه ان بين الفتاة وعبد الرحمن بن معاوية صلات حب وهوى. وخشي ان تكون صلات اثيمة فاختبط عينيه الدم . ولم ترَ ميمونة من الايضاح بدّاً فقالت بصراحة لا تبالي فيها نقمة ابيها وقد زانتها نصاعة الجبين : لا يقلق عبدالله بن علي . ابنته لا تبرح معتصمة بتراث الشرف المتسلسل الينا من فاطمة البتول . عرفت عبد الرحمن يوم دلتني عليه في نزهتنا على ضفاف بردى. ووقعت منه موقعاً رضيّاً فدفع اليّ من يحدثني عن ميله اليّ وشغفه بي !

فكأنما خلعت قلبه . فانتصب على قدميه وقد فارت ضغائنه، وغشيت موجة من النـار عينيه فرفع يده يهدد ابنته ويكاد يهبجها بقبضته وهو في زعقة الموتور : أيهواك فتى أموي انت ابنة عبد الله بن علي ؟...يا لفضيحة الهاشميين!... ماذا فعلت بعصبة التيه المطوّقة بها هامة ابيك؟... لقد ثلمت فيها المنعة واطفأت اللألاء. والله، لاقتلنكِ واغري بك النار. وهل لقيت الفتى؟

وشاء ان يخفف من ألم الخطب في نفسه. فاذا لم يجمع بين الشاب والفتاة موعد فلا ضير على فؤاد أحب ولم يتمتع بلقاء . وأبت ميمونة ان يشوب خلقها كدرة وان تجبن في حبها فملكت الجرأة على القول: عوّدني ابي الصدق في القولة ولن يسمع مني غير الحقيقة المجلوّة . لقيت الفتى الاموي ، ولكن على عفة ونبل !

فاطارت منه نزفة الصواب . وغرزت اظفاره في راحتيه وضاقت به انفاسه فكاد يختنق . وهمّت يمينه بان تقبض على عنق هذه الابنة الهاتكة

عرض الهاشميين فتقصفها ، الا ان الحيرة رجحت فيه على النقمة فبات كالمشدوه . هو لا يصدق انه فُجع بكرامته في أبنته ، ولا يؤمن بان ما يقع في مسمعه على ذرة من يقين. ومضت ميمونة في الحديث تقول بوضوح في الرواية كأنها على اعتقاد مبين انها ما ارتكبت اثماً ولاشوّهت مصوناً: اجل ، لقيت الفتى الاموي فيما نقطن دمشق ، وتبادلنا احاديث الوجد . فان يكن في ما اقدمت عليه غضاضة ومذلة فليقطع عبدالله بن علي رأس ابنته المجرمة . فليس لها على حكم يعلنه اعتراض!

ووقفت منه موقف الصدق والاقدام يزينه الامتثال للمشيئة المقدورة فزادت في ارتباكه وحيرته ، وامسى لا يدري ما يعتمد فيها. أيسفك دمها واقرارها بفعلتها يهيب به الى سفك دمها ، ام يعفو عنها وفي العفو التمادي في المضلة ؟

وما استطاع ان يعيب عليها هيامها بفتى دون مقامها. فليس عبد الرحمن ابن معاوية بالنكرة ولا الحشرة وهو ابن اقيال واقطاب سادوا ولا يبرحون على جلالة. وكل ما نقم عليها فيه ان تهوى عدواً من اعداء ابيها وأسرتها . قال والالتباك يروّض فيه الغضبة : ميمونة ، لا كنتِ !... هدمت معقل الشموخ في ابيك . كان عليّ ان اذبحك كالنعجة ، ولكن صراحتك في القول مالت بي الى الايمان انك استبقيت على عفتك فما خدشتها بشين . انت بعد اليوم اسيرة في هذه الدار ، لا تبرحينها ولا تخاطبين احداً فيها. واني لامنعك من المثول امامي . فلن تأتي اليّ بسوى دعوة مني . ولن تخاطبيني كابيك . انا لست اباك. وقد اقمت عتبة ، تلك النجاشية السوداء ، حارساً عليك ، تحمل اليك مأكلك ومشربك وتبلغك امرنا فيك . الى

« حلقة الحديد » يا مشؤومة الجبين !

وصفق بيديه فاطلّ احد خصيانه . قال والجهامة تنحت في اساريره : اين عتبة ؟ ... جئني بها الساعة !

وجهل ما يقول وما يفعل . ابنته ميمونة ، أحب الناس الى قلبه ، سميره ونديمه في محلولك الدجية ومخضوضر الانس كأنها لديه مستشرف الدنيا ، تهوى عدوه وابن عدوه . وأحسّ بالفجيعة تلوكه بطواحنها العراض فرهب فتكتها . فمن الصعب ان يجفو ومن الويل ان يعفو . على ان القصاص بدا له خيراً من الحلم

ولم تضطرب ميمونة وحكم ابيها ينزل بها . هذا جزاؤها منه وانها لراضية بجزائها . غير انها شاءت ابلاغه رسالة عبد الرحمن بن معاوية مهما اصابها من بطشه . قالت بصفاء في النبرة : ابي قضى وانا رهينة قضائه . واذا اباح لي الكلام اطلعته على خطاب عبد الرحمن بن هشام بن معاوية اليه . فهو يسأله لماذا يتطاحن ابناء الاعمام ؟

فنضنض مقوله : دعيني من ترهات النكس . كان على الباغين ان يذكروا العمومة وهم يبطشون بنا . مصيرك أبرم فامشي الى مصيرك !

واقبلت كهلة سوداء شمطاء تقبل الارض بين يدي عبد الله بن علي . فتنكر عبدالله ازاءها لكل عاطفة من عواطف الابوّة وقد صاح بصوت نفور اجشّ : عتبة ، دونكِ الحمقاء الطائشة . سيري بها الى « حلقة الحديد » واسجنيها فيها وامنعي عنها رؤية النور والمخالطة . لا تطعميها الا بمقدار ولا تسقيها الا بمقدار . واياك ومساقطتها الحديث . اذا باغتكما في مكالمة هدمت عليكما الجدران !

فنظرت اليه عتبة بذهول . ماذا تسمع ؟... هل جُنّ عبد الله بن علي فقضى على ابنته بالانزواء حيث يعاقب الشذاذ الانكاد ؟...ولكن ميمونة ريحانة نفسه،فما به يقسو عليها حتى الموت؟...قالت عتبة وهي تكاد تكون في خبل : نفسي فدى سيدي ، أجادّ هو في ما يدعو اليه ؟

— الجد كله يا عتبة . إنقذيني من مرأى هذه الشقية البغيض !

فقلبت شفتيها وقد ازدادت تعجباً مما ترى وتسمع، وقالت مستطلعة كأنها لا تزال ترتاب بما يلقي اليها : والى اين اسير بها ؟

فدمدم عليها بفحيح : أتجهلين مقر الجهّال ؟ ... الى « حلقة الحديد » يا ابنة الاثم!

فتطايرت صيحتها بدامغ الهول: أإلى حلقة الحديد ؟... محبس العصاة والشذاذ ؟

— سيري بها اليها واحذري اعادة السؤال ، دهتك العلة !

فمانعت في الاذعان واعترضت برطانة عذبة: ابنة عبد الله بن علي اسمى من ان تهوي الى هذا الحضيض !

وهي ذات دالة عليه. فنفرت به اليها الحفيظة يكاد يدق عنقها ورعد: أتعاندين يا فاجرة ؟ ... ألا اطيعي والا سحقتك نعلاي !

فبرطمت، غير انها امتثلت وهي تجمجم: سيدي عبد الله بن علي اضاع عقله . فويل الابناء من الآباء !

وامسكت بذراع ميمونة تجرّ ابنة سيدها الى « حلقة الحديد » وهي تقول بلوعة وطفاء : تعالي يا ابنتي ، مشيئة ابيك نافذة وان يكن فيها على مستفحل الضلال !

- ٦ -

الباب يُطرق في دار سليمان بن هشام بن عبد الملك في الرصافة وقد التفّ الليل بجلبابه الفاحم ، وعرا النجوم الخاشعة في كبد الفلك شحوب عليل. فكل من اظلته تلك السماء نام او جرّ قدميه الى المرقد مستسلماً الى تهويم هنيء. غير ان سليمان ما برح ساهراً يقلّب الرأي في مصير الدولة الاموية القلقة المثوى ، المهددة بالفتن من جوانبها كافة ، الصائرة الى الانهيار. وتتم بحرقة : اضاعنا مروان !

وساورته الشماتة . الا انه ودّ لو قبض بيمينه على الصولجان الاموي فيصونه من التحطيم. وسليمان حاقد على مروان الجعدي وقد جاوزه في الشوط وتسنم ذروة الخلافة وسليمان يطمع فيها. فناوأه وحالف عليه الهاشميين وفي طليعتهم ابا العباس شقيق ابرهيم الامام السجين في دهاليز الجعدي

وناهض الرجال الرجال وعرف سليمان القهر والخيبة . وعاتبه بنو قومه الامويون فما اصغى الى عتاب. قالوا: أيفتك بعضنا ببعض يا سليمان، فنهدم مناعتنا بايدينا ؟

فاجاب: اذا رضيتم بان يسودكم هذا الحمار فوالله لست ارضى به سيداً. فاما انا او هو !

وراقه لقب « الحمار » يُطلق على مروان لطول صبره ومضاء جهاده. وتشهى ان تستعر فتنة عريضة البساط ، بعيدة الامد ، يهوي بها الجعدي

عن اريكته لتنتهي اليه الخلافة ، الى سليمان . وعضد ابا مسلم في قلاقله . وحرّض على الثورة في العراق . ودرى به مروان فضحك منه واستخف به . مقهورٌ يتعثر بحقده . وزادت سخرية الجعدي في ضغينة ابن هشام فزمجر سليمان غيظاً على غيظ يكويه الالم السخين

وما تعجب وهو يسمع الباب يطرق ونصف الليل ينشر اذياله . فقد تعوّد ان يرى الناس يهرعون اليه في العتمة ، ولا سيما الى مأواه في الرصافة ، الى قصر ابيه . وهو مأوى من النادر ان يبيت فيه ومروان يبث عليه العيون ويجاهد في امساكه . الا ان سليمان كان يلمّ بالرصافة كعابر سبيل ، لرؤية نسائه وابنائه ، او لتدبير مكيدة ينسف بها دولة مروان

وانه لاشبه بعبدالله بن علي في هذه الناحية . فكان عبد الله يستقر بدارين ، دار في الكوفة ودار على ضفاف الفرات يقف منها على اخبار عاصمة الامويين . بل كان يتورط احياناً فيقيم في دمشق ، ولا سيما عندما ينتقل منها الخليفة الجعدي الى حرّان مقامه الصفيّ وقد انشأ فيها قصره الانيق

وابى سليمان ان يستطلع امر القادم . فمشى بنفسه الى الباب يفتحه على حذر ويتبين الزائر المفاجىء . وعرفه فقال مستوضحاً ببشاشة رضيّة : من ؟... عبد الرحمن ابن اخي ؟

فعلا صوت يجيب : انا هو يا عمّاه !

فامسك سليمان بيد الطارق وجذبه الى صحن الدار وهو يسأل بلجاجة : ما وراءك ؟

فمن المحال ان يقبل اليه ابن اخيه في مثل هذه الساعة من الليل دون ان يشدّ به اليه امرٌ ذو خطر . فاعلن عبد الرحمن بصوت يتقلقل جزعاً :

بطش مروان بابرهيم الامام يا عمي !

فنتأت عينا سليمان كمن بوغت بخطب جلل واستبحث بشدة: هل سفك دمه ؟... أأقدم الحمار على هذه الفعلة الشنعاء يا ابن اخي ؟

– طلب الى ابرهيم ان يكاتب ابا مسلم في قمع فتنة خراسان، فما كاد ابرهيم يرفض حتى تدحرج رأسه في بهرة الايوان !

فتقلب سليمان على غبطة ونزق. شاقه ان يبلغ الحمق بمروان هذا المبلغ الوخيم الوبال فيثير النار المغلّفة بالرماد، واوجعه ان يطير رأس ابرهيم اخي ابي العباس صديقه فيفقد الهاشميون ركناً أيّداً في مناضلة الجعدي المغتصب مقعد الخلافة في عرف سليمان . الا ان المسرة لم تلبث ان رجحت في ابن هشام على المساءة فقال: اذن لقد استفحل العدوان ولم يبق من سبيل الى دفع النازلة . ما اطيبها من بشرى يا ابن اخي !

وبسمت له الآمال الجسام فأحس بالدنيا في قبضة يمينه. قال عبد الرحمن: ولكني لست ارى غير بلاء اصمّ يا عمي !

فاستجلى سليمان هازئاً : أتشفق على مروان ؟

– بل اشفق على الامويين . فالفتنة نشبت في خراسان وقد اشعل حطبها ابو مسلم . ولا بد ان تمتد الى العراق بعد الفتك بابرهيم الامام . فيناحر الهاشميون الامويين، ويقاتل الامويون الهاشميين. ابناء البيت الواحد يتصارعون والغريب يشمت بنا يا عمي . ولقد جئت اليك ...

– في ماذا يا ابن اخي ؟

– في اقناعك بالعدول عن مناوأة مروان والتوفيق بينه وبين الهاشميين!

فصاح في سليمان الغضب الفوّار وقد هالته المفاجأة: عبد الرحمن، هل

اعترتك جنة؟... أتنسى ما بيني وبين ذلك الصلّ من إحن؟... ولكني سبقت الهاشميين الى مناهضة الخليفة الحمار وساظلّ السبّاق . فمن العار علينا ان يتبوأ المأفون المقام العالي فينا . عمك اولى منه بالخلافة وان يكن رهط من الامويين نصره عليّ في البيعة . عبد الرحمن ، لا تأسف على دولة من لا خير فيه . نفض سداد الرأي وحسن التدبير ايديها من صاحبك الاخرق!

وضمّ ابن اخيه الى صدره وهو يقول : وتربة ابيك معاوية ، اخي ، وحق جدك هشام ، اننا لمغبونون في هذا الخليفة المعتلّ النهية . لنهدمنه يا عبد الرحمن بسواعدنا وسواعد الهاشميين ولن تطير الخلافة منا . فلا يبرح الامويون سادة المطمئن العربي على متادي الوسعة ، عدا ان بني هاشم عاهدوني على المبايعة يوم ينجون من شبح الجعديّ الدميم !

— وصدقتهم يا عمي ؟

وضحك عبد الرحمن ضحكة صفراء شفّت عن ارتياب ساخر . قال سليمان : لم ألمس فيهم غير التأييد والمودة ، فلماذا لا أصدقهم يا ابن اخي؟

وبلغا قاعة الدار واستقرا بصدرها ينيرهما سراج تلهو به ريح لينة . وادهش عبد الرحمن ان يكون عمه على هذا الفيض من صفاء النية ، فيؤخذ بوعود خادعة قطعها له الهاشميون وهم يبغون هدم الدولة الاموية على بناتها وقد كادوا يختنقون في ظلها الضنيك . قال يعاتب ويشير : يؤلمني ان تثق بهم يا عماه وقد ناوأوا اباك وجدك وآلك . فمن قوّض زعامة ابي سفيان ، وفتك بعثمان ، وغالب معاوية ، وعصى يزيد ، واقلق مروان ، وصاول عبد الملك ، وثار على هشام ، لن يعفّ عنك يا ابا ايوب وانت فرع من اصل . هواك يجمح بك يا عمي !

فانتفض سليمان واعلن بمرارة لاذعة : اعتقد اني لست على مضلة . ومن ساءه منكم نهجي فليربأ بنفسه عن اقتفاء خطاي !

فما تنكر عبدالرحمن للهجة الاقناع اللينة والمحرّضة على طراوتها فقال يعتمدها : على الامويين ان ينصروا الامويين يا عماه !

ولكن سليمان الراكب طماحه ابى ان ينثني ويصيخ الى رشد والرشد في معتقده ما يخطر به من رأي . فاستوضح بتهكم تستشري فيه الزراية القارصة : أتريدني على مظاهرة مروان يا ابن اخي ؟

— اريدك على توطيد أُسّ هذه الدولة المهددة بالفناء . فانك لذو امل بالوصول منها الى حيث تشاء وهي منيعة الركن وليس مروان من الخالدين. اما اذا هوت فقد هوينا جميعاً وكان ابو ايوب في قافلة الضحايا !

— انا يا عبد الرحمن ؟

— انت يا عمي. لا تركن الى الهاشميين. فانهم ليستضعفونك وانت تميل عنا لتنجدهم، ويجرفونك وقد طمى سيلهم كما تجرف الساقية الهادرة مستدق الحصى. لا يغرّنك فيهم عذب الابتسام وجميل الملقى، فخير ما تفعل ان تستعين بهم على هدفك، فتوفق بينهم وبين مروان وتسند بهم الدولة الاموية الهاوية، مما يكتب لك الخلافة ويضمن لنا البقاء. لن يعيش مروان حتى ابد الابيد يا عماه !

فصاح سليمان بحنق : عبد الرحمن ، انك لفائل الرأي. أتكون رسول مروان الى عمك ؟ ... لو حدثني سواك بهذا اللغو المنكر لجمعت بعضه الى بعض وطرحته من اعلى هذه الدار اخبط به الارض . ولكنك ابن اخي، واني لاحتمل فيك الجرأة عليّ . غير اني أُحذّرك من التمادي. أتطلب مني

التوفيق بين الجعديّ والهاشميين وصاحبك لم يغسل بعد نصلة باتره من دم ابرهيم الامام قطب بني هاشم ؟ ... انك لغبيّ ، ويحك ! ... مروان جنى على نفسه بيده فليذهب طعمة نار اضرمها. ما انا عليه بالاسيف وحياة ايوب ، ابن عمك ، بكر اولادي !

فاعترض الفتى: ولكن انهياره يجرّ الى انهيارنا فتخزى انت قبل الجميع!

فدمدم عليه سليمان وقد ضاق بالاستطالة ذرعاً : انا ؟ ... لا أم لك !

— انت ، انت ، يا سليمان بن هشام بن عبد الملك !

فارتفع من وراء ستار مسدول على احد ابواب القاعة صوتٌ عذب الرّنة مع كل خشونة تهدر فيه مستقصياً بنفرة: من هذا المندد بابن هشام بن عبد الملك؟

فارتعش عبد الرحمن. عرف الصوت. وتكلف سليمان الابتسامة فقال: زينب؟... ابنتي؟... خففي عنكِ. لا بأس على المندد بنا. هذا عبد الرحمن ابن عمك . ألا تزالين حتى الساعة مؤرقة الجفن يا نور عين ابيك ؟

فانفرج الستار عن قامة تشد صُعُداً وتمشي الى صدر القاعة بخطا قلقة. ولما دنت من السراج لاح فيها وجهٌ يتدفق سنى الا انه راسخ في الغيظ والكمدة. وحيّت بجفاف واستقرت بجانب سليمان ابيها. فقال عبد الرحمن : ألا تنفكين ساهرة يا زينب ؟

وهي لم تكن تقوى على النوم. فالحيبة في حبها رمتها بالارق وشراسة الطبع . وتمثلت عبد الرحمن فيما الباب يُطرق كأن همساً خفياً أسرّ اليها ان الفتى اقبل. وما مشى ابوها الى الباب يفتح للطارق ويقوده الى صحن الدار حتى نهضت من فراشها وأطلت من كوة في حجرتها تتبين المفاجىء وراعها ان يصدق حدسها . هذا ابن عمها الفاتر في مودتها وقد امتدّ صوته

الى مسمعها . فاختلجت وشعرت بالبرد يتغلغل في دمها . فارتدت ثيابها على عجل ورغبت بفضول ملحّ في ادراك الباعث على مجيء عبد الرحمن . فاي ريح قذفت به في مثل هذا الموعد والليل في بهرته مسترخي الاردان؟

ولاح لها بارق امل رفّه عنها على ضؤولة وميضه. ولما جلس الرجلان في القاعة حبت الى ما وراء الستار المضروب وانصتت الى ما يدور عليه الحديث فعادت اليها خيبتها . عبد الرحمن لا يتحدث عنها . وشاءت ان تظهر ازاءه بنفرتها فصاحت تلك الصيحة المتوعدة. ولما سألها الفتى ألا تزال ساهرة اجابت بامتعاض واضح الكشرة : سمعتكما تتحدثان وكأنكما تتناقران ، فألقيت اليكما اذني وادهشني ان ينسلّ الينا من يعارض ابي في ما انتهى اليه من هوى ورأي ، فاستطلعت امر الوقح السليط !

فاحتمل عبد الرحمن الوخزة على مضضها . وحاول ان يصرف ابنة عمه عن حنقها فقال : ألا اكون على صواب في ما ادليت به يا زينب ؟

فهاج فيها الحقد وابن عمها يسوق اليها الكلام عفواً كأن ليس بينها وبينه اشياء. وضحكت ضحكة يموج في قهقهتها الاحتقار تعمدت بها ذبح هذا القاسي الممعن في الاعراض وقالت: أتطلب مني الحكم لك على ابي؟... ولكني اخشى اذا اعلنت حكمي ان افضح فيك سمو الادراك. فاي قدر للغرّ حيال الناضج الرأي يا ابن عمي ؟

فلسعته الاهانة في كبده وصبر عليها بطول أناة . وساء اباها ان تستطيل على ابن عمها فقال ممسكاً بجموحها: زينب، أتجهلين من تخاطبين؟... هذا عبد الرحمن ابن عمك ، فما بالك تزجين اليه قولة الجفاء، ألا يزال لغشية النوم سلطان عليك ؟

فتمادت في خشونتها لا تبالي نهي ابيها . قالت : اعرف ان لا حق لمن لم يعجم عود الدهر في ان يعظ من خبر الايام وغاص على حكمتها الصدوق!

فتجلد عبد الرحمن والوخزة تتلو فيه الوخزة وقال : زينب ، لستُ ممن يجرؤ على الادعاء انه بمقام ابيك . فان اباك لعميدنا ومرجع الابرام فينا. ولكني لا اجد من الهضيمة عليه ان أُبادله الرأي بغيرة المحب واخلاص الوفيّ !

فاجابت بقسوة: هذا لجاج في العناد لا مبادلة آراء. واني لاتعجب من سليمان بن هشام كيف يرضى ان تجبهه بغلاظة وقاح !

فلم يجد سليمان بداً من الشدة يعتمدها في حسم الجدل. قال بنبرة حزوم: ابنتي ، دعي عنك النزق . لابن عمك علينا دالة الابن على ابيه . فليتكلم بما شاء، لن يسطو علينا حتى يمسك بنهيتنا عن رذل الفاسد واستساغة الجهير!

فما انكفأت الى الحلم وقد ظل حبها المقهور يلدغ فيها رحابة الصدر. فان اعراض عبد الرحمن عنها وهي البعيدة الزهو، التيّاهة على فتيات العرب لروعة في الحسن ورفعة في المنتمى ، اقلق صفاء ضميرها وحطم منعتها . ولو استطاعت ان تستصفي دم هذا المدلّ عليها، الهائم بابنة عدو الامويين الانكد، بميمونة بنت عبد الله بن علي، لوثبت عليه تطفىء فيه جذوة الانفاس. قالت وهي في جائح السعير: لا اعتقد ان سليمان بن هشام بن عبد الملك يجيز لمخلوق ، مهما سمت منزلته، الطعن عليه في رأيه والرأي ما يبدي، والصواب ما يقول !

فمضى عبد الرحمن في الصبر على لهبة الالم وقال باسراف في اللين : أحسنت يا زينب. كلنا يرى في عمي الغمامة الصادقة الهَدَل. وجلّ ما دعوته

اليه ان نتناسى ، نحن ابناء العشيرة الواحدة ، ما بيننا من محنة وبغضاء . يكسر قلبي ان تقيم قريش على منابذة وخصام !

فزادتها كلماته الخضلة غضباً ومقتاً . وتشهّت ان يتحطم قلبه ، بل ان يتحطم كله . قالت بسخر : زحزخ مروان عن سوير الملك وعمك كفيل بتحقيق الطلبة !

فاكتفى بان يميل عنها الى ابيها قائلًا : ما هي كلمة عمي ؟

فما خرج سليمان في مقاله عما اعلنت ابنته . فقال عبد الرحمن بلهجة جازمة : لست ارى الخلافة تعود الى الامويين اذا هوى مروان عنها !

فجبهه سليمان بلهجة الجزم نفسها : ولا انا ارى التوفيق بين الهاشميين والامويين مستطاعاً ومروان على سرير الملك !

— ألا سبيل الى اقناع بني هاشم بضرورة الالفة والوئام يا عمي ؟

— هم يرضون بالمسالمة حين ابدو لهم قابضاً على زمام الخلافة يا ابن اخي !

— واذا لم تظفر بهذه البغية ؟

— تظل الامور كما ترى يا عبد الرحمن !

— أيهوي مروان ونهوي معه ؟

— بل يهوي وحده ونرتقي فنسود يا ابن اخي !

— كلامٌ باطل يا عمي !

فاعلن سليمان بتأفف : قل فيه ما شئت . قولتك لا تخرج به عن كونه حقيقة نطّاحة !

فسكت عبد الرحمن حيال المعاندة . من المحال ان يسعى عمه للتوفيق بين مروان والهاشميين وفي هذا التوفيق القضاء على آمال جسام . فان

سليمان ليطمع في الخلافة، ويتراءى له ان بقاء مروان في دستها يحرمه اياها، فعليه ان يجاهد في اقصاء مروان عنها

وابنته زينب من هـذا الرأي . وزادها استمساكاً به نفورها من عبد الرحمن . ولقد كانت تؤيد زحزحة ابيها عن معتقده لو حباها ابن عمها هيامه . اما وهو لا يحفل ببهرج الطلالة فيها فليست تعينه . وتأججت فيها غيرتها فقالت : ما عليك يا عبد الرحمن اذا توليت بنفسك ما تدعو اليه ، أفلا تكون على صلة مورقة بعبد الله بن علي ؟

فلم يطق عبد الرحمن هذا الغمز المحموم من قناته، فثار للكرامة وقال بغيظ يجاهد في كبحـه ولا يستطيع : زينب ، خففي من فحيحك . اذا جاش فيكِ السم فلا تنفثيه على من يستهين باذاك . عبد الله بن علي ليس ألعوبة نلهو بها. حسبك ان تعلمي اننا في مقام رزانة وجد !

فبلعت ريقها وكاد يثب من عينها الدمع لفرط قهرها. بيد انها تماسكت وقالت بمرح مصنوع : لست اراك تثبت على السم يا عبد الرحمن. لو شئت ان اكيل لك منه لصرعتك نفثة . غير اني اشفق على مثلك ان اداويه بما يجب في مثله وانت نكرة في الامويين وخنفساء لدى الهاشميين ، فلا تقضي ولا تمضي !

فصاح بها ابوها وقد اوجعه مقالها الخبيث : زينب، هلا طويت لسانك العضوض ؟

فقال عبدالرحمن بهزء ناتىء كالمخرز: دعها في هرائها يا عمي، فهي تستطيب اللدغ كالعقرب !

فاضاع ظاهرة الصبر فيها . وطفر دمعها على كره منها فكادت تختنق

بنشيجها . فحار سليمان في ما يرى وما يسمع . ما بال ابن اخيه وابنته على خصام ؟ ... فان ما يتبادلان من حديث داعر يدل على حفائظ دفينة . ووقف منهما في شده لا يدري به من يستوضح ،بل من يلوم . وألقى يده الى خصر ابنته يضم اليه هذه الباكية الجازعة ويقول:زينب ، كنتِ على عبد الرحمن أشد منه عليك ، فما يحملك على البكاء ؟

قالت ودمعها يلمع في خديها :ابن اخيك يلعب بدمي .هو يريد موتي !

فهالته كلماتها وحسبها تهذي.واستعادها ما تفوّهت به مستفهماً :ماذا يا ابنتي ؟

فجلجلت بغمرة من نواح :ابن اخيك يريد ذلي،ألا ترى مبلغ استهانته بي؟

فاعلن بارتباك انتصر به لابن اخيه:بل اراه وافر الصبر على الاهانة ، فما بكما في اصطدام ؟

فازدادت نحيباً . وادرك سليمان ان الامر بينهما ابعد مدى . زينب احبت عبد الرحمن فجفاها . واحس ابوها فيها بالوهن فخشي ان يغمى عليها.فرفعها وقادها برفق الى حجرتها وعاد الى ابن اخيه وقد تبدل منه موقفه. فاضحى ازاءه ليناً ، رخو الشكيمة . وألقى يده الى كتف الفتى وقال بلهجة يبللها الالم : عبد الرحمن ، اصدقني الخبر ، بحياتي. لمست في حديثكما ما اقلقني . اذا صدق ظني فقد أحبتك وسلوتها !

فخجل عبد الرحمن من عمه وندم على مجيئه اليه.قال يتحامى الايلام : عمي ، دعني من التصريح ، فليس فيه جداء !

– بل تكلم يا ابن اخي. يجب ان اعلم .لا تبخل عليّ بالحقيقة الصراح وقد لاح لي اني وقعت منها على خبر !

فتنهد الفتى وألقى رأسه بين يديه واجاب بزفير : الحديث ذو شجون!

فازجى سليمان قولته بتؤدة خضلة يستدرج بها الفتى الى البيان: ولكن لا تخش منه على عمك الصلب العود. فكم لقي عمك من صدمات وكم سوف يلقى!

فاعلن عبد الرحمن بجهد من يسلّ من حنجرته الشوك: زينب اسمعتني انها تهواني يا عمي !

فتعجب ابو ايوب من هذا المدّل على زينة فتيات العرب وقد حبت اليه تعرض عليه قلبها فازرى بالعطية على جزالتها، ونغص على الواهبة صفاء المنحة، ونبالة المهزة. واستطلع الاب المفؤود بلهجة ينضنض فيها الالم ولا يجفوها السخر : وانت ، أفلا تهواها يا عبد الرحمن ؟

فتمتم بوجل: كنت قد عقدت هواي على سواها وهي تطلعني على خفيّ ميولها . سبق السيف العذل يا عماه !

فاضطرب سليمان . فالامر خطير . الا انه شدد من عزيمته وقال بصفاء في النبرة ملك به نفسه : ومن تهوى يا عبد الرحمن ؟

— ليست من اهوى بمقام زينب يا عمي ، الا اني اهواها على شقائي في هيامي بها !

فطاب لابي ايوب الوقوف على الخفيّ واستقصى بجمجمة تنتابها الغصة دون ان تخلو من خضاب التهكم والمضض : ابنة من تكون هذه الممتنعة عليك يا عبد الرحمن ؟ ... انا اتولى تذليل ما دونكما من صعاب . زينب اخطأت وهي تسألك في نفسها. اما وقد احبتك فيجب ان تشفى من حبك. ولن تشفى بسوى اقترانك بمن تهوى. لا أريد ان تمسي داري ملعباً لمأساة انا في غنية عنها !

فتلعثم عبد الرحمن . فصاح به عمه : هلا اسمعتني اسم من تهيم بها ؟

وتهدج صوته . وشفّ مقاله عن إلحاح في الاستيضاح . ولم يرَ عبدالرحمن من سبيل الى الاعتصام بالكتمان فقال والخجل الكاوي يلوي منه الهامة : اهوى ابنة عبدالله بن علي يا عمي !

ولصقت نظراته بالارض . فهو لا يجرؤ على الالتفات الى عمه . وتراءى لسليمان انه خولط في عقله فصاح قلقاً : من ؟

فمن المحال ان يهوى اموي مرموق فتاة هاشمية ابوها من اعدى اعداء الامويين وامضاهم كيداً لهم ودساً عليهم . فاجاب الفتى بصوت مهلهل كالخيط الرثّ : ميمونة بنت عبدالله بن علي يا عماه !

فارتعد سليمان وقال بنفاذ من فضّ غلاف السر : ادركت الان ما يهيب بك الى التوفيق بين الهاشميين والامويين يا ابن اخي . كن قرير العين !

فهتف بجذل : هل رضي عمي بان يوفق بيننا ؟

فضحك سليمان بمرارة : التوفيق بين ابناء الاعمام المقيمين على بغضاء ليس من شأني يا عبدالرحمن ، الا اني ساقنع عبدالله بن علي بان يزفّ اليك ميمونة . وهذا كثير مني !

— أتفعل يا عمي ؟

ونطق فيه حبه الجارف . وشعر سليمان بقوة هذا الحب وهو يسمع السؤال واللهجة المعلن بها فاجاب : على الفور يا ابن اخي !

فراعته السرعة واستفهم : وما يدعو الى العجلة يا ابا ايوب ؟

— حملٌ ثقيل أريد ان أُلقيه عن منكبيّ !

وهمّ عجلان بالرحيل الى مصب الخابور من الفرات وليس يخفى عليه

ين يثوي اليوم عبدالله بن علي الهاشمي الجقود. خلاص زينب في ان تقطع كل رجاء من ابن عمها . واذا صيحة ، بل صيحات ، تعلو في حجرة الفتاة. فوثب سليمان الى الحجرة ونهيته تكاد تفلت منه وهو يصيح متأوهاً: وا إبنتاه!

فكأنه ادرك ان زينب على تلف . وهو يحب هذه الروعاء الوثابة الفطنة حبه لابنه ايوب قائد جنده . ولاحت له النساء يولولن حول فراشها فحسبها ماتت تحت وطأة الالم . فدنا منها هاتفاً وقد عمي ناظراه وارتجف قلبه : ما بها ، ما بها ؟

فاجابت امها بنواح قاصم لاطمة خديها ، ناتفة شعرها : ماتت ابنتنا يا سليمان !

فاعول : هل ماتت زينب ؟... هل ماتت رجاوة ابيها ؟

وانحنى على سريرها منادياً بصاهل الحرقة : زينب ، زينب ، اجيبي اباك !

وكاد يمزق باظفاره صدره . وبدا له عبد الرحمن بجانبه فرشقه بنظرة ودّ لو يسحقه بها . ونضحت نظراته بالتهمة الصافعة : انت قاتلها ايها المجرم ، انت المودي بها ايها الجلف المتحجر الفؤاد !

٧

– ميمونة ، مولاتي ميمونة !

وشاعت الكلمات في شبه همس، في حفيف ادنى الى الوشوشة منه الى الجهارة . وكانت ابنة عبدالله بن علي في لجة من بحران . فهي تفكر في قسوة ابيها عليها بحؤوله بينها وبين من تميل اليه . وشاقتها التضحية و«حلقة الحديد» تضمها في سبيل عبد الرحمن . ولكن اقلقها ان يعتقد الفتى سلوّها اياه واستخفافها بما وكل اليها من مفاوضة ابيها

واختلجت وعتبة تناديها . والتفتت الى الزنجية كمن يدفع عنه عبء نعاس كابس . فقالت عتبة بهمسها المكبوت تفضح به الاسرار : سليمان ابن هشام بن عبدالملك على خلوة بابيكِ . وهو يحدثه عنك وعن عبدالرحمن!

فاتسع ناظرا ميمونة ونبأ هذه الخلوة ينفذ الى مسمعها . وقالت بنأمة صافرة كالفحيح : أيحدثه عني وعن عبد الرحمن ؟

فغمزت الامة السوداء بعينها ان نعم ، ونضنض مقولها : وغضب ابوكِ !

– غضب؟... هل غضب وسليمان بن هشام يخاطبه ؟... ألا باي كلام تلفظ يا عتبة ؟

– باللعنة . لعنكِ ولعن عبدالرحمن !

فاهتز قلبها وبلعت ريقها واطرقت ملتاعة . غير ان الفضول وقد ثار فيها شدّ بها الى الوقوف على ما يتبادل الرجلان من كلام يطولها في قلبها

ومستقبلها . قالت تعالن الزنجية بلجوج الشوق الى الاستقصاء : عتبة ، أريد الاطلاع على الحديث بحروفه . فالتقطي لي ما يتخاطبان به كلمة فكلمة !

ولم يكن لعتبة الا ان تجيب : حباً وكرامة يا مولاتي !

ووثبت الى حيث استقرّ الرجلان وثبة الكلب الامين في اثر الطريدة المحطمة الجناح . وعبدالله بن علي رحب بسليمان بن هشام بن عبد الملك وقد وفد عليه في مطلع صبح اغبر . ولم يتعجب من مرآه وقد تعوّد ان يجالسه ليديرا الرأي في الموقف . فهما على وحدة في المذهب والمشرب . ينعيان على مروان سوء تدبيره ويسعيان لهدمه . قال عبدالله : كأني واياك على موعد يا سليمان . لفظ القدر كلمته وبتنا على أهبة . سننكفىء الى العراق للقاء ابي مسلم المقبل من خراسان بجيشه الضخم . فالنار تقضقض في الهشيم يا ابن عمي . ومن السفال ان نصبر على الحزية بعد مقتل راعينا ابرهيم الامام !

فاستطلع سليمان : أتكونون على استعداد لضربة الاجهاز يا عبدالله؟

فاجاب باعتداد تتنفس عنه طلعته ولهجته وكلماته : ان سيوفنا لتتواثب في اغمادها شاكية طول الثواء يا ابن عمي . وقومنا مجلببون بالحديد يرقبون بنفاد صبر ساعة القحمة . فما من موعد اصلح لاضرام الفتنة وهدم الحمار !

فقال ابن هشام بن عبدالملك : انا ورجالي نتشهى ساعة النضال يا عبدالله . فاعلنوا اليوم ونحن في طليعة من يثب الى الميدان . على اني ما جئت لاباحثك في الموقف مثلي في امر أبغي استنجازك اياه ويضيمني ان ألقى فيه الخيبة !

ألا اي امر يهيب بسليمان الى الاستعانة عليه به هو عبدالله بن علي ويحاذر فيه الخذلان ؟... هل من نكبة تهدد ابا ايوب في روحه ، أيكون بحاجة الى الرفد ؟ ... وهتف عبدالله : وما يشدّ بك اليّ يا ابا ايوب ؟ ... اقلقتني ، ويحك !

فغص سليمان بمقاله كأنه يغمس ألفاظه في دمعه وجمجم : قذفني اليك ما يقض مضجعي ويهزني في كرامتي ، فلا تخذلني !

وظهر منه انه يحترق. فاشفق عليه عبدالله وصاح : أتتوجع في كرامتك يا سليمان ؟... والله، ما انا من ابناء اعمام النبي إن تخاذلت عن نصرتك . سل ما تشاء . اني لاطلق يدك في الاختيار والقضاء ومستثناي الاوحد ابنتي ميمونة !

فزفر سليمان بحسرة : لاجلها جئت يا عبدالله !

فجحظت عينا عبدالله بن علي وهو يسمع من سليمان انه جاءه في ميمونة. فمن اذاع في الناس ان الفتاة مضطهدة محبوسة في «حلقة الحديد»؟... ثم ما شأنها في مس كرامة القطب الاموي سليمان بن هشام بن عبد الملك ؟ . . . ورقب عبدالله الايضاح العجلان . فقال ابو ايوب يبثه ما اقبل فيه من استجارة بصوت لا يزال يموج في مطاويه الالم البئيس : بين ابن اخي وابنتك ميمونة طرفٌ من مودة يا عبدالله !

فزوّى عبدالله ما بين عينيه وتولته جهامة المرعوب. ماذا؟... ماذا؟... بمَ ينضنض مقول ابي ايوب ؟ ... أتجلجل هذه المودة الشائنة في اصقاع العرب كافة ويكون عبدالله آخر من ألمّ بها ؟... ونخعته المصارحة فكاد ينشقّ . ومضى سليمان في قولته كأنه لم يبصر بالانقلاب النهّاش الطاغي

على جليسه : وهذه المودة يجب ان ترسخ على دعامة . فنعقد لابن اخي على الفتاة !

فهاجت في السيد الهاشمي النقمة الجموح . أيزفّ ابنته الى اموي ؟... يا للشنار !... على انه ادرك انه في حضرة اموي فامسك بنزقه عن الانفجار وملك نفسه في القول الحاسم معتصماً من الرزانة بمقدار مع كل ما يتلظى فيه من جارف الحقد : اؤثر ان أُسدّ اذنيّ عن هذه الطلبة المحرجة يا سليمان . فليس الزمن بالمؤاتي لعقد الصفقة !

فاستفهم سليمان ببعض الدهش : أتمانع ؟

فاوضح عبدالله وقد زحفت الى فمه اوتاره : اذا انا رضيت فالدم الجاري في عروقي يخيبني في الموافقة يا ابا ايوب . وماذا ترى الناس يقولون في عبدالله بن علي وقد وقع في مسامعهم اني زففت ابنتي الى اموي ؟... نحن فروع دوحة واحدة يا ابن عمي ، ولكننا نحبو على ضغن فائر ، وعداء كالح ، وتلال جماجمنا المتناثرة تحت ضربات سيوفكم ، ولا سيما في كربلاء الزاخرة برمم شهدائنا الابرار ، تأبى علينا اللحمة . فمن المحال ان نلتقي على تقارب وصفاء !

فهتف سليمان يعترض : ولكن ابن اخي يليق بميمونة ، وانا صديقكم الاوفى !

— ابن اخيك قد يرجح على ابنتي قدراً يا ابن عمي . فالعقبة ليست في منزلة الفتى ، بل في ما بيننا من قطيعة وبغضاء !

فاستطلع سليمان بفيض من حماسة : وهل سألت ميمونة عن رأيها في الفتى ؟... عدا اني لست ارى ما يمنع ان تكون اكرمنا وانقانا يا ابن علي !

فاجاب عبدالله بجدة المولى الحريص على سلطانه : انا صاحب الرأي في ابنتي يا سليمان . فما أُقرّه فيها مقدورٌ عليها . واني لابعد من ان أزفّها الى أموي . فلا تستعطفني بطيب السريرة !

فابى سليمان ان يتراجع واعلن يمهد الى البغية : لنخاطبها في الامر معاً يا عبدالله ، فقد تملك من الحجة ما يهيب بك الى الاذعان !

فهدر الهاشمي الغضوب : لست أبيح لاحد ان يخاطبها في ما تنكر نفسي . فهي في « حلقة الحديد » تكفّر عن حبها لابن اخيك يا ابا ايوب !

وصالت فيه حفائظه . والتفت الى القطب الاموي برأس يتشامخ وعينين تلتهبان مضاء وعنفاً . فصاح سليمان وقد اغضبته هذه القسوة الدهماء من أب على ابنته ، بل على كبده : هل طرحتها في « حلقة الحديد » يا عبدالله ولم تذكر انها انت وهي من لحمك ودمك؟... ألا ماذا ابقيت للاشرار الانكاس يا غليظ الجنان ؟

فاذلّ منه عجبه وقد عيرّه جوره على ابنته . فاطرق عبدالله بن علي وقد تقلقلت فيه عنجهيته وتمتم بالم مستفيض : دعني مما كتبت علينا الايام يا سليمان . ابنتي ليست على ضلال في هواها ، ولكنه ظلم الاقدار يا ابن عمي . ابى الزمن ان يخضب بالوئام مواقفنا وقد عبث باصابع اليد الواحدة فنثرها اباديد !

وكاد هذا الرجل المشطور من صخر يتعرّف الى لغة الدمع لولا صلابة في الطبع تندّ به عن مسايرة هواه . فما حبس ابنته في « حلقة الحديد » الا مكرهاً على امره ، اضطراراً الى مواءمة مشيئة بيئته والخضوع لسخائم بني قومه . والا فما كان يحول دون زفاف ميمونة الهاشمية الى عبدالرحمن

الاموي وكلاهما على رجحان في كرم المحتد وعزة العرق ؟ ... وسليمان ابن هشام بن عبدالملك لوى ظهره وهو يعي مقال عبدالله . وتذكر ابنته زينب . فهي ليست على جهالة في هواها وقد شاقتها مهزة الشمم في ابن عمها ، الا انه ظلم الاقدار وما ألأمه واوجعه !

وران على الرجلين سكوت طويل، حزين ، تقلبا فيه على حسرات قواصم . ولم يطق سليمان الابقاء على سره فافشاه بلوعة المنكوب . قال يذيع بليته الهاتكة : عبدالله، ابن عمي ،لا بد ان تسائل نفسك عن موضع الحط من قدري وانت تخذلني في العقد لعبد الرحمن على ميمونة ،ألا فاسمع . سافضي اليك بالمصونات . زينب ابنتي تهوى عبدالرحمن ابن عمها يا عبدالله ، والفتى صدّ عنها وقد مال الى ميمونة . فكادت زينب تنهار ضحية هواها الجديب . واني لاخشى عليها ان تذوي في حرقة صابتها العاثرة وهي مني في مودة اخيها ايوب ،ألقى فيها بسمة الرضا ومستساغ الغبطة . ولم اجد سبيلاً الى انقاذها من اللجة بسوى زفاف ميمونة الى عبد الرحمن ،فتقطع عندذاك ابنتي الامل وتسلو وقد نفذ القضاء . كادت لايام قلائل تجود بروحها استيئاساً من هواها المرضوض !

فراع هذا المنطق البائس عبدالله بن علي . غير انه تعجب من هذا المستجير به منه . ميمونة هي الداء فكيف اقبل سليمان ،مع إلمامه بالواقع ، يتداوى بها؟... قال عبدالله: ولماذا لا تعقد لعبدالرحمن على زينب يا ابا ايوب وتنيل الفتاة طلبتها ويطمئن خاطرك ولا تكلف نفسك ما لا تطيق ؟

فجمجم : ليس يريد زينب وقد هام بميمونة . وينحرني ان تقضي ابنتي وان يذيع في الناس ان حبها العقيم اودى بها . هذه هي وصمة العار الضروس

يا عبدالله وقد جئت استغيث بك منها !

فلم يجد عبدالله بن علي في الاستغاثة القلقة ما يفرض عليه النجدة. قال لا يتزحزح عن راسخ رأيه : سليمان ، انت تعرف حبي لميمونة . فما هو دون حبك لابنتك زينب. الا اني اؤثر ان اراها تموت في «حلقة الحديد» على ان ازفها الى ابن اخيك !

– وتجني عليها ؟

– لتمت . موتها اشهى اليّ من رؤيتها في مضجع أموي !

فغمغم سليمان بلجلجة مرتاعة : يا للحقود الجبّار !

فوثب عبدالله بن علي من مكانه وقد هزه مطلب سليمان في كبده واحس بنفاد همته في الامساك بنزواته وصاح : سليمان ، ما لنا ولحديث شائك لن نخرج منه بجدوى . لك ان تحسب ابنتي من الاموات . فليس في كنف عبدالله بن علي فتاة للزواج . أتتقي العار بان تعصب به جبيني ؟ ... لتمت الاثنتان ، ميمونة وزينب ، ففي موتهما راحة لي ولك !

وتجلت يبوسته في الشراسة . واستطال في نقمته . فاضطربت لحيته الكاسية صدره كأنها في مهب اعصار. ورهبه سليمان ولم يكن يحسبه في هذا الجنف الطحون على ابنته . بيد انه لم يقطع منه الرجاء فقال : عبدالله ، ان سليمان بن هشام بن عبدالملك ليخاطبك. لا تكن فظاً عاتياً. في عقدك قران عبدالرحمن على ميمونة تنقذ خمسة قلوب من النار ، قلبي ، وقلبك ، وقلب ابنتي ، وقلب ابنتك ، وقلب عبد الرحمن !

ولكن عبدالله مضى في صيحته الغضبى : لم اتعوّد ان اشفق على نفسي ، فكيف اشفق على الناس ؟

– أتقتلنا بغلاظتك ؟

– لا بأس ان تكتووا بما اكتوي به من ألم يا ابن هشام !

– ولا ترحم ؟

– لست ارى الرحمة في ما ترتجي مني من شأن الراجح الحصاة !

فغضب سليمان ووثب على عبدالله بن علي مهدداً بقبضته ، مزبداً في القولة: والله لو لم اكن من حلفائكم لسفكت الان دمك . بيد ان تشيّعي لكم يغل يدي عنك . ما كنت اعتقد اني ألقى فيك جلفاً من اجلاف العرب . ان ابنتك لشقيـة فيك . لو حدثتُ الحجر بما استعدي به عليك لنبض بالاحساس الينيع . ولكن الحجر دونك غلاظة . استودعك الله . اقتل ابنتي وابنتك معاً وقد خلوتَ من كرم الطبع . سلمت يمينك يا ابن عمي . فلا بد ان نتلاقى والحساب عسير !

واولاه ظهره وانصرف على غيظ سخين . وجمد عبدالله بن علي تحت وقع المفاجأة الشادخة وهو في خبل المشدوه . ماذا يسمع ؟ ... لم يكن يرقب هذا الوعيد المهين . ورافقت عيناه بذهول سليمان المعرض عنه بتيه وازراء . وتمتمت بخفوت شفتاه : اجل ، سنلتقي . وسيكون الحساب شاقاً عسيراً . اذا ابقيتك حياً يا ابن هشام فلا ابقاني الله . ما نسينا ما كان من ابيك في اخي زيد بن علي ، ولا ما كان من جدك في الاشعث . فالى اللقاء . انت اليوم حليفنا فلا بأس عليك ، اما غداً ، غداً حين تنثر مواضينا رؤوسكم ، فلن نبقي على رأسك يجلو حلكة الزمان !

ولكن سليمان كان قد توارى ولم يسمع . وساءل عبدالله بن علي نفسه لماذا لم يمتشق باتره لرد الاهانة . فالمباغتة صرعت فيه مضاء الوثبة . وتأججت

ضغائنه فحفظ على سليمان بادرته . ليفتكنّ بكل اموي وقد تمكنت من نواصيهم قبضته. كلهم سيلقى حتفه. وابصرته عتبة الزنجية في حنقه واتقاد عينيه فارتعدت وفزعت منه عليها، مع ان خشب النافذة يفصله عنها. وانحدرت الى «حلقة الحديد» في ناخع الهلع . وبلغت باب الحلقة على خور في العزيمة . فارتمت عند الباب تتلفت الى ما وراءها مخافة ان يكون عبدالله بن علي ابصرها في مخبأها، وراء النافذة، تصغي من ثقب في الخشب الى ما يتبادل وسليمان من قوارص ، فشهر سيفه واندفع في اثرها يبغي ان يضرب عنقها شفاءً لغيظ ألهبه في صدره ابن هشام بن عبدالملك ، وإرواءً لغليل ظامىء الى الدم الرويّ

ولم تنهض من كبوتها . فما سمعت ورأت لوى فيها مفتول الهمة ورهيف الادراك

٨

– عتبة ،عتبة ، ما بك لا تبدين ولا تعيدين ؟... هل من ويل دهمك ، هل شعر بك سيدك ؟

وانطلقت الكلمات من «حلقة الحديد» في ما يعلو الهمس تتعثر بالخوف والرعشة . والامة السوداء وقد ارتمت في الارض عقد لسانها وتولاها الغشيان . فعاد الصوت المرتجف ، القلق ، الى مناداتها بحذر واحتراس ، ولكن بنبرة ابعد وقعاً . فالتفتت عتبة بعينين يسودهما الرعب والبله واستطاعت ان تتمتم بانين مذعور : مولاتي ميمونة !

فقالت ابنة عبدالله بن علي باضطراب : ما بكِ ؟ ... خلعت قلبي . هل درى بكِ ونالك منه اذى ؟

وكانت ترقبها ثانية فثانية للوقوف منها على ما تجاذب الرجلان من حديث . فلماذا تناولاها في كلامهما ، هل من اساءة ابلغ مدى ؟ ... هل من رحمة يبتهج بها الضمير ؟... ما سليمان بن هشام بن عبدالملك سوى والد زينب ، وزينب ناقمة على عبد الرحمن وهو يجفوها ، وناقمة على ميمونة وقد سلبتها عبد الرحمن ، فماذا جاء يفعل عند عبدالله ؟

والفضول الناشب في خاطر ميمونة دفعها الى التمادي في النداء : عتبة ، عتبة !

فاشارت الزنجية ان صبراً . فحملت ميمونة طاساً من الماء رشّت به من

الكوة الأمة الوفية المرتمية عند باب «حلقة الحديد» وهي تقول بارتباك: ماذا اصابكِ ؟ ... أنكون حيال نازلة ادهى ؟

فانتعشت الامة السوداء وهي تُرشّ بالماء . على انها ما برحت تتلفت الى الوراء برعب حديد الناب . وبجهد انفرجت شفتاها عن قول تغلّفه الوهلة : لكِ الله من ابيك يا ابنتي !

فايقنت ميمونة ان في الامر ما لا يبعث على المسرة، بيد انها لم تجزع وقد علمتها الشدة طول الاناة . قالت والفضول يزيدها إلحافاً في المسألة : اطلعيني على ما تحادثا فيه . لا تكتمي عني منه حرفاً !

فرددت على مسمعها الحديث بامانة جلية الاداء. غير ان الفتاة لم تصدق ما يلقى اليها . فما اقبل سليمان ليستشفعها الى ابيها في زفافها الى عبدالرحمن . وخشيت ان تكون الزنجية تحت وطأة الغشيان وهي تفضي بالرواية ، او انها لم تفهم فالتبس عليها البيان . قالت : أواثقة انتِ انك سمعت سليمان يتفوّه بما تقصين عليّ ؟

فجهرت : هذا حديثه كلمة فكلمة يا مولاتي . فكأنه حشا به أُذني !

— وماذا كان من ابي ؟... ماذا كان من عبدالله بن علي ؟

— بطر ابوك في عناده . اي والله يا ميمونة . كان اشبه بالزيت على النار . صانك الله من فظاظة ابيك ايتها السجوع المقصوصة الجناح !

— وخيّب سليمان ؟

فاجابت عتبة بمرارة تميع هولاً : خيّبه وحمله على تهديده . فانصرف ابن هشام حانقاً يهيج فيه الغضب ويتلظى الوعيد !

— وابي ؟

– وابوك توعد ، ولكن بعد انصراف سليمان . فاقسم على ابادة الامويين . أتجهلين اباكِ ؟

فتولى الاطراق ميمونة . وعاودها التفكير في هذا الاب الجافي . الا انها تحبه وتجله على جفائه الاسحم . ولكن اذا نقم على الامويين أفليس عليه ان يرفق بها وهو ابوها ، وان يرد كيده عن عبدالرحمن الفتى الاموي وهي تهواه ؟

واكبرت في سليمان بن هشام طفرة النبل . جاء يسلخ من ابنته عبدالرحمن ابن اخيه ليهبه لفتاة تكاد تكون عنه غريبة وهي ابنة من خاصموا اباه ويكيدون لقومه . وابت ميمونة ان تكون دون سليمان مكرمة وحمية فاعتزمت ان تضحي بقلبها في سبيل من اقبل يضحي لاجلها بابنته . قالت بمستطير الاباء : ولماذا اكون دونه اريحية وقدراً ؟

ولم ترهب التضحية . عبدالرحمن لن يكون لها وابوها يسدّ عليها الى الفتى الطريق . فلتنعم بحلاوة التضحية ما دامت لن تتذوق نشوة الهيام . لترحم قلباً تأكله الغيرة وليكن قلبها الفداء . فما اسمى الحياة في انفة وسماح . والتفتت الى الامة السوداء تقول بنبرة جازمة : عتبة ، أُريدكِ الليلة على براح هذه الدار ، فلا سبيل الى الرجرجة !

فاستوضحت الزنجية مدهوشة : ابرحها الى اين يا مولاتي ؟

– الى عبدالرحمن بن معاوية . أتستطيعين ؟

فاستفهمت بارتعاد : الى دمشق ؟... من ضفاف الفرات الى دمشق ؟... ألا ماذا يحل بك ولن اعود اليك الا بعد شهر من الزمن ؟... أأنأى عنك ليقتلك ابوك ؟ ... لست ابالي دمي . فما لقيت من الحياة يزهّدني فيها .

ولكن انت ، انت يا ميمونة . فمن يحمل اليك طعامك وشرابك ويلتفت اليك ؟

قالت بشدة في الاداء : هاتي لي زاد شهر وانصرفي . بل انت لست بحاجة الى قضاء شهر من الزمن في ارتياد دمشق والعودة منها . فامتطي ناقة توجز مدى غيبتك !

فادلت الزنجية بحكيم الرأي معلنة : ولماذا تبعدينني عنك وتعانين في انصرافي الى دمشق الضنى؟... ساجيئك بمن يتولى المهمة على امانة وفطانة فلا تخشى منه ولا تخشى عليه !

فاصاخت ميمونة الى صواب التدبير في عتبة واستبحثت : ومن لنا يحقق الرغبة ولا يكبو فيها ، هداك الله ؟

فافاضت الامة السوداء عفواً بالاسم : زين بن خالد رفيقي في الخدمة . ابوك نفسه سيوفده الى دمشق في رسالة، ولن يتقهقر عن اداء الرسالتين معاً !

فابتسمت ميمونة ارتياحاً الى تذليل العقبة واعلنت بمسرة : اذن فاعتمديه. ارى الريح تؤاتينا . ولكن ليحذر الثرثرة !

فجهرت الزنجية بعهدة الضمين : تبعته في عنقي يا مولاتي. بماذا ترين ان يحدث عبدالرحمن ؟

— ليحدثه عن رغبة ابي في ان يزفني الى هاشمي . وليبلغ الفتى اني سلوته ورضيت بالهاشمي زوجاً ، واني اطلق له يده في اختيار من يشاء رفيقة له في الحياة !

فاصيبت الزنجية بالرعدة وصاحت : مولاتي !

وتوهمت انها حيال فتاة تهذي لفرط ما بليت به في قلبها من ثقوب .

فلسعتها ميمونة بناظرين اهابا بها الى الوقوف عن الاعتراض . قالت ابنة عبدالله بن علي: التقطي مني كلماتي واعملي بها . أريدك على الامتثال لطلبتي!

فاعولت الامة : أتماكر عبدالرحمن ونسحق قلبه ؟

—لا بد من هذه التضحية يا عتبة للتخفيف عن الفتى والميل به الى ابنة عمه زينب بنت سليمان !

فهال الزنجية ما تبدي ابنة سيدها. ولم يبق لديها ريب ان الفتاة تهذي. فقالت باشفاق تساوره الكمدة: أترفقين بمزاحمتك يا ميمونة؟... هل جننت؟

—ارفق بها وبابيها. فلماذا اكوي قلبها بالغيرة ولا امل لي بعبدالرحمن؟

فتجهمت عتبة وهتفت بغيظ: ارى ان تعهدي الى سواي في اداء هذه الرسالة يا مولاتي . فلست اراني املك القدرة على انجازها !

فاعترى الذهول ميمونة وازجت القول المقهور : وكيف يا عتبة ؟

— ليس من الحق في ومضة تحطيم قلوب الاصفياء يا ابنة الاكرمين !

— ولكن حبي لعبدالرحمن ليس من امل يحييه يا عتبة . لا تخشي عليّ . فالتضحية عندي بمقام الظفر بهواي !

فبلغ اعجاب الامة السوداء بابنة سيدها منتهاه. قالت بتعتعة الاكبار: لتسمح لي مولاتي بتقبيل الارض بين يديها . ما كنت اعتقد ان تحت هذه السماء نبلًا يعادل هذا النبل القراح !

فقالت ميمونة بصادع الامر: اعملي بما ادعوك اليه. لينصرف زين بن خالد عاجلًا الى دمشق وليحدث عبدالرحمن عني بما يثير فيه النفرة والاعراض. وليس له ابلاغه انه رسولي، بل ليزعم انه يلقاه عرضاً وليخدش مسمعه بالمحرجات الموجعات كأن ينعى اليه اخلاصي ووفائي !

فماد رأس الزنجية ألماً وعيناها المملؤتان اعجاباً لا ترتفعان عن مولاتها.

قالت ابنة عبد الله بن علي : يجب ان تسرعي الى زين يا عتبة . اخاف ان ينتقل بنا ابي الى العراق وقد اعتزم الهاشميون اذكاء النار !

فماج في شفتيها كلام يئن : سا كون الساعة في اذن الرسول يا مولاتي، وسينطلق زين الليلة الى دمشق لمجاراة ميولك الحوالك على نصاعتها !

وانتشر فيهما صمت كئيب. كلّ منهما انصرفت الى اشجانها. ودرجت عتبة الى رفيقها زين بن خالد تطلعه باسى على رغبة ابنة سيدها وتوصيه بالعمل بها ، ولكن باحتراس وبعد نظر. فليس لعبد الرحمن ان يشعر بالمداورة. فوعد العبد ببذل الحنكة. فلن تكون ميمونة خائبة. وهو ممن يعطفون على الفتاة ويجدون فيها النور الوضاء في دار سيده القاتمة . فلم يكن لولاها لمرتع عبدالله بن علي ان ترطبه نداوة من رفق. وغاظه ان يطرح هذا السيد الجافي ابنته في «حلقة الحديد» وليست تضم غير الشذاذ من العبدان والحشم . فان هذا الدهليز الحقير لينبو عن ميمونة مهما اوغلت في الاثم وابتدعت من منكر

وفي العتمة همّ زين بالرحيل يطوي صدره على الرسالتين . بل هو لم يكن يدري ما تزخر به رسالة سيده عبدالله بن علي الى دمشق وقد وجهها العميد الهاشمي الى احد خلصائه في المدينة الوارفة المجد. اما رسالة ميمونة الى عبدالرحمن بن معاوية فلم تكن مكتوبة بل شفوية. ومن حق الرسول ان يزيد فيها او يوجز منها على ما تتسع له الذاكرة او يسوقه اليه الهوى

وضاق صدر ميمونة بانفاسها وقد ابلغتها عتبة ان الرسول اقتحم المفاوز الى دمشق على مطية سبوح. فكادت الفتاة تختنق. وخطر لها ان تصيح

بالامة السوداء : « ألا فليقف زين بن خالد، ليقف ! » وقد احست بجسامة التضحية، وتراءى لها انها سترزح تحت العبء. غير انها امسكت على وهنها وادارت وجهها عن عتبة لئلا تبصرها الزنجية في ترددها وجزعها فتشمت بها. اعلنت كلمتها وسترسخ فيها وان تكن تحس باضمحلال قواها والتضحية ترجح فيها على الطاقة . ولم تكد الزنجية تغيب عنها حتى سقطت الى الارض كالمطعونة في سويدائها . وعلا من صدرها أنين نواح . فهي تبكي حباً نعمت به زمناً ثم خلعته عنها وهو مكتمل النضرة لتهبه هبة خالصة للمنافسين. وهدأت سورة النشيج على التوالي. واقامت ميمونة ترقب عودة الرسول مثلها لما اوفدت عتبة لالتقاط حديث عبدالله وسليمان . وشاق الفتاة الوقوف على حالة عبدالرحمن فيما يبلغه زين بن خالد نبأ الخيانة المختلق. أيتأثر ويتأوه ام يتلقى النبلة ببرودة غير المبالي ؟

واستطال الليل في الفحمة والزنجية لم تظهر حيال مولاتها فتؤانسها ، كأنها ذابت في الدهمة سواداً في السواد. ولم تكن ميمونة تقوى على براح « حلقة الحديد » والباب مقفل دونها ، وليس من منفذ لديها غير كوة ضيقة يبدو منها وجهها وتمتدّ يداها وحسبها هذا المدى

واقامت على نار ولم تجد قربها من يشفي فيها اكمداد البال . واذا عتبة تأوي الى السرداب بعد طول نوى . فتنفست ميمونة الصعداء وقد لاحت لها الأمة السوداء وبادرتها بالقول بحدة : ماذا دهاكِ فقعد بك عني؟

فاجابت وهي تلهث ، والعرق يتفتق في جبينها حبات تلو حبات : هالني ان يكون درى ابوك بما كلفنا زيناً اداءه فاطلق في اثره من يمسك به . سمعت عبدالله بن علي يتلفظ بما يدل على ارتيابه بالرسول !

فملكت الرهبة ميمونة وصاحت : وهل كان ما حسبتِ ؟

– لا يا ابنة سيدي . ما لبثت الظنون ان خمدت في ابيك الموجس ابداً شراً حتى لا يكاد يثق بذي فضل وحفاظ !

فقالت ميمونة تستطلع امعاناً في الاطمئنان : وما يلوح لك من امر زين ، أيقتنع عبدالرحمن بما ازجيت اليه ؟

فقلبت شفتيها وقالت : من يدري ؟ ... علينا ان نرقب عودة ابن خالد ولست اراها تطول وقد شدد عليه ابوك في استعجال الوثبة !

وزين بن خالد لفّ الى عاصمة الامويين الصحراء على سنام بعيره . وثوى فيها يتولى ما عليه من مفروض الامانة . فانفذ رسالة مولاه عبدالله ابن علي الى صاحبها وجدّ في البحث عن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام . ولم يكن عبدالرحمن بالنكرة . فلقيه زين يشرف على من يشحذ نصلة سيفه ويجهز سرج جواده كأنه على سفر . وراعته فيه نداوة الفتوّة ولهبة العزيمة فدلف اليه بالتحية اليانعة ، اللينة الاداء : السلام على الامير !

فالتفت اليه عبدالرحمن بعين حادة ، يقظى ، تستجلي الاسارير المجهولة واجاب باحتراز : وعليك السلام يا هذا . ممن انت ، وماذا تبغي ؟

فاجاب زين بن خالد ببسمة عريضة فيما يفيض بالقول الممراع كأنه يزف نفيس البشرى : انا رسول ميمونة بنت عبدالله بن علي الى مولاي !

فهتف عبدالرحمن وقد تبدل فيه احتراسه وهو يسمع باسم من طغى هواها على جوانحه : رسول ميمونة ؟ ... انت ؟ ... ألا عوفيت . ماذا تحمل اليّ منها ؟

وانصرف عما يتولى شاخصاً الى شفتي الرسول . فاعلن زين بن خالد

وقد ادرك من ازدهار لهجة الفتى واشراق سحنته بعد جمودها مبلغ شغفه بابنة عبدالله بن علي : ميمونة في اسر ابيها وسيدي عبدالله درى بما بينكما من وثيق مودة . ولقد اوفدتني اليك تشكو جور الحظ عليها وتستنجد بوفائك كي تنقذها من المحنة !

وما استطاع زين حيال ما لاح له من نضرة الفتى ، وبليغ همته ،وتأثره الوضّاح وقد اختلج مسمعه باسم ميمونة ،ان يروّعه بما حثته عتبة على ابلاغه اياه من كاذب المقال. فالكذب بدا له عاراً يجلّ عنه نفسه في الامير النبيل الجلوة،فاستباح العبث بآل الرسالة يروم الترفيه عن ميمونة ووقايتها الضنى. وجلجل عبدالرحمن والنبأ يصدع سمعه ويخضخضه كفاجع الزلزلة : هل أسرها ابوها، قاتلك الله ؟... بماذا تخلع كبدي من هادم دميم ؟

فاجاب زين بلوعة : لست اروي لك غير النبأ الصادق ، حرس الله مهجتك . سيدتي ميمونة في « حلقة الحديد » منذ ما صدفنا عن دمشق . وان اباها ليرسو اليوم في مصب الخابور من الفرات ، في داره المتغلغلة في هاتيك الادغال . والفتاة ترجو عونك . فلا تصمّ عنها اذنيك !

فما برح عبدالرحمن على ارتياب بما يسقط اليه . قال يستقصي وكل ما فيه يفور : أتكون على بيّنة مما تذيع ايها المقلق فينا صفو المهجة ؟

وخشي ان يكون ثمة شرك منصوب لاغتياله اعدّه له عبدالله بن علي وقد نمي اليه ما بين ابنته والفتى الاموي من صلة . وكأن الرسول وقع على ما ينتفض في لب الامير من حكيم الحذر فقال بقوة في الاعلان : لمولاي ان يضرب عنقي ان اكن كاذباً !

فغرز فيه حفيد هشام عينين ثاقبتين صادعتين فما ارتعش زين بن خالد

مما استدل به الامير الاموي على سلامة الطوية وصحة الرواية. واحس بما يملي عليه الموقف من طفرة فرعد : ان يكن ابوها جار عليها حتى اوشك ان يخنق فيها مجرى الانفاس فالويل له مني . اني لمنطلق الساعة الى مصب الخابور من الفرات اهدم على عبدالله بن علي طمأنينة المناخ . اما والله ان تنطق عن مماكرة فانظر الى جمجمتك تتشحط عند قدميك بدمك . فلن يرحمك حتى الله !

فابدى زين بن خالد الاستنامة الى الوعيد وقال: لا يشفق عليّ سيدي الامير في انتفاضة من حس ان اكن اتفوّه بنأمة تشوبها علالة من مواربة!

فهتف عبدالرحمن وقد تضرم به الحقد والحرد : اذن لننطلق الى مقر عبدالله نقوّضه عليه . كن رفيقنا في القحمة !

وابى الا ان يجعل من الرسول رهينة مغالاة منه في اليقظة. وصاح برجاله وقد احتشدوا على مقربة منه وهم يبصرونه والرسول على جدال : ألا امتطوا ركائبكم ولنسرع الى النجدة . علا صوت من ضفـــاف الفرات يستحثنا على الغوث. لن نبقي على عبدالله بن علي ان يكن الرسول اميناً في البلاغ !

وهو على أهبة لهذه الغزوة. امير المؤمنين مروان الجعدي يدفعه اليها. فوقع في مسمع الخليفة ان عبدالله بن علي يقيم عند مصب الخابور من الفرات، في منزل ضائع بين الادغال تعوّد ان ينتجيه وان ينفث منه احقاده لتقويض الدولة الاموية . فرماه مروان باحد قادته الانجاد، بعبدالرحمن بن معاوية. فأمضّ عبدالرحمن ان يتولى مهمة يوجع بها قلب ميمونة الناعمة من صميمه بغمرة الوجد فتردد في الاجابة ، لا عصياناً ، ولكن خشية من الاساءة

الى من يرى في رضاها بهجة الدنيا وزينة الآخرة . بل هو رغب في المسير الى عبدالله بن علي نزولاً على مشيئة مروان ، ولكن لانقاذ عبدالله من قضاء الخليفة لا للقبض عليه وجرّه الى حرّان مهزوماً ذليلاً . اما الآن ، وميمونة تستنجد بالفتى من ابيها ، فسوف يخلع عبدالرحمن قلب ذلك القاسي الحرون . أينقم على ابنته لميلها الى من يعادلها قدراً وفتوّة ؟ . . . ان عبدالله لفظّ ، جلف . وألهب الامير الاموي في رجاله مضاء الهمة فامتثلوا لا يرهبون الصدمة . هذا الزحف في دنيا الرمال ليس لديهم بالمستهجن وقد اذابوا فيه صفوة الليالي . ومشى فيهم الرسول وهو على رضا بالفعلة . لن يحطم قلب سيدته ميمونة ولا قلب هاويها ، اما قلب ابيها الغليظ عبدالله بن علي فلا بأس ان يتحطم . وتراءى له ان الفتاة ستعجب بما اقدم عليه فيها وتغفر له البادرة . وهمّ بان يفضي الى عبد الرحمن بن معاوية بما ارادته ميمونة على اذاعته في مسمع وديدها فسقط في يده . بات لا يطيق ان يجيد مدى انملة عما اعلن

ونفض الركب منه تدمر ذات الصفاح والعمد . وانهال على مصب نهر الخابور من نهر الفرات على حذاء لعبدالرحمن الامير الاموي الرفيع العماد . وتطايرت ذوائب الفرسان في لوافح الهجير . وتلوّت رماحهم في أيمانهم كلما هتفوا للامير الفتى . ولم يكن عبدالله بن علي في عزلته على أهبة للنضال وهو يكاد يكون وحيداً وجميع من حوله من الخدم لا يزيدون على العشرة . فيعتمدهم في التجسس وفي المراسلة وما دقت ساعة الفتنة ليحتشد في فنائه الجيش الرداح . وفي بكور يوم صافي الافق ، صقيل البشرة ، وقد وقف فيه عبدالله يستنبىء الفيافي امر رسوله زين بن خالد ، اذا به

يفاجأ بكوكبة من الفرسان تنهب اليه الهضاب المعتصم بها . فاوجس شراً وغمزت يمينه مقبض سيفه. واذا النبال ترنّ عن جانبيه . فجال فوراً في ذهنه ان الخليفة مروان الجعدي تبين مكانه الخفيّ ورشقه برهط من جنده. وهاله الوقوع في قبضة عدوه ولئن يكون مصيره في حرّان خيراً من مصير ابن اخيه ابرهيم الامام، فيستأصل رأسه امير المؤمنين ويجتث جذعه ويقضي به على دعامة أيدّة من دعائم الثورة، فلجّت به ركبتاه في الهرب وليست المقاومة موفورة . وجنح الى جواده الاشهب يعتليه في ومضة ويطلقه كالشرارة في التهام المفاوز صائحاً بخدمه : ابقوا جميعاً في اماكنكم واحرصوا على ابنتي ميمونة . هي في اعناقكم . هؤلاء جنود امير المؤمنين يطلبونني ولا يريدون بكم شراً . فاذا سألوكم عني فابلغوهم اني لا ارتاد هذا المقر ومنذ شهر لم تبصروني فيكم . إلحقوا بي الى الكوفة وقد أمنتم هول الغاشية. هناك موعدنا !

وغاب عن العيون كأنه غار في بطن الرمال. ورانت الوهلة على الخدم. ماذا سوف يلقون من رجال مروان ؟ ... على انهم شعروا ببعض العزاء وقد قبض سيدهم على مقود الامان. فلن يطوله جند امير المؤمنين. وهوت عتبة الى « حلقة الحديد » هاتفة بمكتنز البشر في اذن ميمونة : مولاتي ، مولاتي ، ضرب جند مروان نطاقه على الدار وفرّ ابوك !

فنخعت كلماتها ابنة سيدها. هل فرّ عبدالله بن علي وما تعوّد الركون الى الهرب؟... وصاحت ميمونة بارتعاد مستفهمة لهفى: هل فرّ ابي يا عتبة؟... ألا بمَ تهزين قلبي، لا حيّاك الله؟... أيفرّ عبدالله بن علي ويلقي ابنته تحت رحمة اعدائه؟... انك لتنعين اليّ فيه الانفة ،لا اطمأن لك بال !

فاجابت الزنجية على مديد ارتياح : نأى عنا واوصانا بك. هو منشود الجند لا نحن. ولقد سلم منهم فلن يمسكوه. وماذا علينا ولن يؤذونا ؟... فلسنا طلبة امير المؤمنين !

وهمست بجزيل الغبطة: من حقك ان تطربي. امسى طريقك مذللاً الى عبدالرحمن !

ولكن ميمونة لم تطرب. هذه الاستهانة من ابيها بها ضعضعتها. فما به ينجو بنفسه ولا ينقذ ابنته وهي عصمة شرفه ، وهو ذلك المستمسك بعروة الشرف الوثقى ؟ ... وشعرت الزنجية بما يساور مولاتها من مخافة ووجع فقالت وهي تبتسم بخبث : لا تجزعي . خلا لنا الجو وتسنى لك مرأى من تهوين !

وفيما تزيل عنها أساها بوغتت الامة السوداء بمن يناديها بشدة تنم على الفرحة : عتبة ، عتبة !

فلم يكن الصوت غريباً عن اذنيها. لا ريب ان زين بن خالد هو ذلك المنادي . والتفتت اليه فعرفته وقد بات على خطوة منها يصيح : عتبة ، عتبة ، هذا عبدالرحمن بن معاوية الضارب حصاره على الدار . هو هو . ابى ان يؤمن بما طلبت مني ان احدثه به فاقبل بنفسه يتبين الخبر !

فتبدلت حالة ميمونة وزين بن خالد يعلن المقال الوضاء. وتناست ما كان من ابيها فيها وعلا الابتسام والاعجاب محياها وهتفت بفيض من فرحة : أيكون عبد الرحمن هنا ، عبد الرحمن بن معاوية ؟ ... بيننا ؟

فشاق هذا التبديل في قسمات ميمونة عتبة الزنجية وقالت فيما تحطم باب «حلقة الحديد» لتنقذ من المعتقل مولاتها : هو بعينه. أما سمعت ما يجود به

زين من بشرى؟... اخرجي الى لقائه. اخرجي. حبيبك بالباب فهنيئاً لك!

ومضى زين بن خالد في الجهر الانيس : ساقوده اليك اذا ابيت ان تسيري اليه . فهو يهرع الى هذه المباءة لانقاذك من اسرك وقد هفا في مكالمته لساني. فعالنته ان اباك وقف على ما بينكما من شغف فنقم عليك وحبسك في « حلقة الحديد » !

فغاظ ميمونة التواء الرسول في اداء الرسالة . الا ان الجذل طغى عليها لوقوف عبدالرحمن على خطوات قلائل منها ومحا من نفسها الامتعاض من ذلك العابث بما تولى من لزام الامانة . وسرّها ان ترى الامير الاموي النازل منها في ارفع مودة مع سعيها لابلاغه انها سلته واطاعت مشيئة ابيها في ان يعقد عليها لهاشمي . قالت واقصى مناها ان يقع في عينها الفتى : واين يكون عبدالرحمن يا زين ، اين يكون ؟

وهفت الى من تترنح اعطافها بهواه يقودها اليه أجير ابيها . ولذّ لها ان تقف على ما اذاع الرسول في سمع عبدالرحمن ، فاختلجت في مبسمها الكلمات الراشحة بالفضول الهنيء الممراع : ولكن بمَ حدثته يا زين عني؟... كيف عميت عن ابلاغه ما اثقلت به وعيك من ايضاح !

فابتسم مبتهجاً بما اسفر عنه سعيه من جدوى وقد تكشف اخلاصه لابنة سيده عن انضج الثمار. قال والسرور يجري في ألفاظه فيهب لها الجزالة والمواهة : هدّ حيلي ان تطبق عليك «حلقة الحديد» يا مولاتي فحقدت على ابيك وهو يغالظك. وهالني ان تجني على قلبك بمغالطة الامير عبدالرحمن في ميولك فامسكني ولائي عن تصويح رجاوتك . وابصرت عبدالرحمن في وسامته وعزته وانا احبو اليه أثلم روعه بنبلتك فما اطاعني لساني في التضليل، بل

لجّ بي في الافاضة بالحق الابلج فاندفعت في طاعته لا يهدأ لي قرار في بيان مظلمتك. فما آمن عبدالرحمن وحسبني اكايده فيك، بيد اني أبحت له دمي ان اكن على مما كرة. فلم يتمالك وقد سقط اليه اني صدوق ان هتف: «والله لاقوضنّ على عبدالله مثواه!». والخليفة دعاه الى مواثبة ابيك في هذه المعامي فداور. اما وما تولاك من ضيم يثقب اذنه فما اطاق مضضاً يعروك واقبل في نظيرة رجاله لدرء الغاشية عنك. وحبسته مودته لك عن ايذاء سيدي عبدالله بن علي لئلا يفجعك بوليّ نعمتك، فما ارتسم في عينه ابوك حتى مال بالجند الى ترويعه بسهامهم كي يفزع الى الهرب لا الى اصابته ومحوه. وما انفك يعالنني في اقتحامه هذه المباءة العزلاء بقوله: «لتعلم ميمونة اني حافظ عهدها مهما استطال ابوها في التجني لـ». قلتُ وانا انحني اكباراً لوضاءة المهزة: «سيدي عبدالرحمن، ميمونة لا تبرح على عهدها. الا ان اباها وقد وقف منها على حبها لك سجنها في «حلقة الحديد». وخشيتْ ان تظن بها سوءاً وقد انقطعت عنك، بل خشيت عليك ان تلتاع ولا سبيل بينكما الى لقاء بعد افتضاح خافية الهوى، فاوفدتني اليك احشو اذنك بالمكاره لتنعم بالسلوان!». وقصصت عليه ما انفذتني اليه فيه وما عدلت عنه في الابلاغ الانكد، فادركه الارتياح وقال وقد انبسطت اساريره والتمع جبينه: «أرأيت مبلغ الوفاء في ميمونة ايها الرسول النيّر اللب؟... والله ما اراني في حبها على زيغان وعوج!». وحال دون ايغال جنوده في المكان ومنع عنهم اللحاق بابيك هاتفاً بهم: «اياكم ان تحرجوه!». ودفعني اليك لاعلامك انه هنا، وانك في حرز مصون!

فتعاظمت في ميمونة النشوة. وما ادهشتها هذه النجائب في عبدالرحمن

ابن معاوية وهو سليل قوم تنشقوا اعراف الجلال والندى فيما تختلج عروقهم برعشة الحس . وشدّت بها اليـه عزماتها على غليان في الخطوة . ولاح لها عند باب السرداب كأنه يرقبها في النور ويحاذر ان يدهمها في العتمة فيلطخ نصاعة غلالتها برشح من ريبة ، فهتفت له وقد جال فيه نظرها : «عبدالرحمن!» ، بل هتف بعضها لبعض . فاهتزت شفتا عبدالرحمن بصيحة : «ميمونة!» . ودنت منه كما دنا منها . وتماسكت الايدي ، ولكن دون عناق ولا تقبيل . بلى ، كان عناق وتقبيل ، الا انهما في الاعين والحواني . واقام الواجدان في حمّى من حبور باتا منها في شبه غيبوبة . فهما لا يطيقان كلاماً وقد عُقد منهما اللسانان وانهلّت في معارفهما نداوة وارفة كأنها في غلواء من حلاوة الرؤيا . وخشعت حولهما الابصار مأخوذة بروعة الفتنة . وتفتحت الافواه على شده بهيج لا تدركه نفثة . فان للحب الصادق ، الحميّ ، من قوة السيطرة على الارواح ما تحسب نفسها فيـه على مشاركة . فكأن في كل ضمير منه نبضة

واذا فارس يقبل على باب السرداب برمحه ودرعه في قحمة عاصفـة . فاقلق في الحشد غفوة السهو والحرس وصاح بالزنجية عتبة الواقفة بجانب سيدتها ميمونة على غشيان من مسرة كأنها في امتع سكرة : عتبة ، عتبة!

فارتاعت كمن شدخته الوهلة . والتفتت الى هذا الناعق في عرس وعرفته . هو ميسور عميد الخصيان في دار عبدالله بن علي . ونبرت بتعتعة من خوف : ميسور ؟

فاعلن لا يبالي الحفل : سيدي عبدالله بن علي كافني انقاذكما . واذا عييت عن الانقاذ فعليّ ان اقتلكما واموت على مقربة منكما . هذه وصية

مولاي واني لعامل بها !

فاعولت عتبة بمستفيض الجزع : أتقتلنا ؟

–قتلكما بيدي ولا وقوعكما في ايدي اعدائنا . كلمة سيدي عبدالله لا مرد لها !

فصاحت ميمونة وقد سرّها هذا الالتفات من ابيها اليها : ميسور ، ها نحن ، ها نحن !

وافلتت من يدي عبدالرحمن واندفعت الى عميد الحصيان في دار ابيها كأنها تروم معالنته انها لا تزال ترقب كلمة عبدالله بن علي فيها . فارتجف صوت الحصيّ بنبرة الاجلال والبهجة وقد اهتدى الى ابنة سيده وجمجم مستهيناً بجميع من حوله كأنه لا يبصر غير ميمونة : مولاتي ، النياق بالانتظار . سيدي عبدالله وقع على ركب من انصارنا فيما يجتاز الفلوات فمال بي الى استلالك من الداهية وقد لحقته في وثبته العاصفة . فلنجاهد في النجاة !

فما كانت لتدري بما تجيب . وارتدّت عينها الى عبدالرحمن كأنها تستشيره في الموقف الحرج . فحبا اليها الفتى بصباحته ونبله يقول باريحيته الراسخة في طبعه العيوف : ميمونة ، عليك بالاجابة ، اسرعي . ليس لك ان تسدّي الاذن عن نداء ابيك !

فتفاقم فيها له الاكبار والكلف وقد عفا عنها وهي من اسراه ، وعفا عن ابيها وكان بوسعه ان يقبض عليه وان يبدد منه الانفاس . ونظرت اليه نظرة تلتهب اعجاباً وحباً كأنها تفيض بالقول : « ما اكرمك نفساً يا عبد الرحمن ، شكراً ايها المتربع في جناني والنابضة بحبه عروقي ! » .

وان من الصمت لبياناً. وللعيون ألسنة تنطق بما تعيا عنه في بلاغته الشفاه. وما استطاعت ميمونة الا ان تسدد الى ميسور قولتها على خفوت وغصة: هيا بنا!

فصاح عبدالرحمن وهو يجيل باصرتيه في خدم المنزل: هلا عجلتم ؟... اذهبوا بسلام. ابتعدوا عن انظار جنودي!

وهمس في اذن ميمونة: سنلتقي في احد الايام. لا عليك!

فجهلت ميمونة كيف تؤدي له بيان الشكر. غير انه لم يكن بحاجة الى هذا البيان على جزالته وعذوبته، وكل ما نهد اليه ان يدفع كل ملامة عن ميمونة، فلا تقع من ابيها موقع الزراية والموجدة وقد تنكبت عن الطاعة. الا ان عبدالرحمن مع جهده في ان يفسح لها الى ابيها خاف عليها من مضي هذا الاب الحشن الروح في ايلامها، فيسد عليها منافذ النور ويحبسها في بطن الارض، فانحنى عليها يقول: ابلغيه ما كان فيك وفيه مني. فقد يخجل ويتحامى تعييرك حبي وايذاءك. لم تكن يدي قاصرة عنه ولو شئت فريت هامته، الا اني اتقيت نسفه كرمى عينك. انت رددت عنه الهلكة. اسرعوا في الفرار!

ووقف ينظر اليهم والنياق تجتاز بهم الغياض وتنأى عنها الى البطاح وقلبه يخفق بالمسرّة. انقذهم بلا عناء. وأحس بقلبه يجري في اثرهم. وافعم ضميره رضا راجح الوزنة وقد توفر على صون من يهوى من شائك التنديد. لن يعجز عنها وسيعقد له ابوها عليها مكرهاً اقراراً بوضاءة هذا الصنيع الحميّ. ولما اوشكوا ان يتواروا عن ناظريه كان المنديل الخافق بيد ميمونة آخر اثر منهم يدل عليهم. فقد شهرت ابنة عبدالله بن علي منديلها تلوّح به للحبيب

المنقذ مودعة واعدة . وتنفس عبدالرحمن بن معاوية بملء رئتيه وقد آمن بخلاص من يحب من كل ملمة . سيستحي ابوها ويقعد عن التضييق عليها ويبيح لها الانطلاق في مسالك هواها. فالجميل لا يذهب ضياعاً. ونادى اليه الامير الاموي رجاله وجمع صفوفهم وهو يقول : لنرجع الى دمشق !

وعاد اليها على متناهي الانشراح. قام بما عليه ومهد الى غده . واوفد الى مروان من يبلغه، بكاوي الالم، نجاة عبدالله بن علي من الفخ ووثبته الى فيافي العراق يعتصم بربوع بني قومه المتحفزين للاقلاق وهز الدولة الاموية في اصولها النخرة العابث باعماقها نهيم السوس

٩

لم يندمل الجرح النازي في الصدور بل سخن ونغر. فالصيحة المنطلقة من حنجرة ابي مسلم في خراسان رددها العراق وسايره فيها شطر من الشام والحجاز، ولكن على حذر . وكشفت الفتنة عن جبينها فاحتشدت قوات الخراساني في الموصل تؤيدها جحافل العباسيين والعلويين ضخامة ومكنة . وضم اليها سليمان بن هشام كتائبه فاستفحل الخطب . وشعر مروان بحرج المأزق فرمى المناوئين بجيوشه يلوي منهم الشكيمة المستفحلة ويردهم على خذلان

وسليمان بن هشام غادر الرصافة ولم يكن يتحسس فيها الامان بعد احتدام النار. فانسلخ منها يؤم الكوفة ويودعها نساءه وهو الملتاع المهجة على ابنته زينب الرازحة بكاسح اشجانها. فالخيبة في قلبها رمتها بالعلة فتوالت كربتها على حسرات زوافر لا يهدأ لها أوار

ومع خوض سليمان المعامع المشبوبة وحسن بلائه فيها يعضده ابنه ايوب لم يكن يسلو زينب . فكلما اباحت له الحرب نهزة تدنيه من هذه الابنة الزكية النكهة ، المندلعة السنى ، هفا اليها يستقصي اخبارها. وإن تشغله عنها المعارك اوفد اليها الرسل للاطمئنان عنها . ووثب ذات يوم الى فناء داره ريحاً عاتية. وترجل عن جواده بسيفه ورمحه وعباءته وكوفيته وعقاله وقد اضاءت وجهه مسحة من غبطة . وعلا قوله في خدمه : كيف

زينب ابنتي ؟... هل ملكت العافية ؟

فاطلت من عليّة الدار وقد سمعت صوته وعلت شفتيها بسمة رخيّة.

فصاح : أتكونين بخير ؟... يا للفرحة !

وقفز اليها السلالم يضمها بين ذراعيه ويقول : اني احمل اليك اروع بشرى !

قالت وفي صدرها ابتهاج : هل انتصرتم ؟

— انتصرنا ودحرنا مروان . صدمنا بتسعين الفاً فاتقيناه بسبعين . وحالفه في البدء الفوز ورمى بنا الى الموصل . فجمعنا فلولنا ولويناه . وكانت المعركة الفاصلة على نهر الزاب، فقهرنا الجيش الاموي وبددنا جموعه. وانه ليتراجع في هزيمته مثلوم الحد . على اننا ماضون في مطاردته حتى نبيده ولو بلغ آخر الدنيا !

— وربحتم الحرب ؟

— ربحناها ولن تقوم لمروان بعدها قائمة، فابشري يا عين ابيك !

فتواثب الى شفتيها اسم عزيز عليها لم تقوَ على كتمانه . قالت وقد سبق لسانها رزانتها : وعبدالرحمن ؟

فقال يتباهى : كدت أشكّ قلبه بهذا الرمح على دفعتين . غير اني ذكرت انه ابن اخي فما أبحت ليدي ان تصميه . ولقد رأيته يغيب في تيار المهزومين . وربما قبض عليه الهاشميون وقتلوه !

فصاحت بوهلة : قتلوه ؟

— ليقتلوه: أتشفقين عليه وقد ذبحك باعراضه اللئيم؟... فتك الهاشميون في معركة الزاب بثلاثمائة اموي ، فلا عجب اذا جرفه التيار وكان في

مطاوي هذا العديد المنكود !

فجرضت بريقها . وشعر سليمان بالكآبة الاليمة تعروها. فالحب الاثيل غلب فيها الحقد العارض. قال ابوها: ألا ينقذك موته من مضض عبثه بك؟

فاراقت دمعة واطرقت على لوعة . فهال اباها ان تظل تحنو على حبها البائس وغص كأنه يبلع الشوك . وساوره الندم على صون ابن اخيه . فلو اطاع فيه حرصه على زينب لاودى به وموته يخلع عنها هواها اليؤوس. قال سليمان يحاول ان يخفف عن ابنته جزعها: ما لنا ولعبدالرحمن يا زينب. فهو ميت عندنا سواء هلك او عاش. وجلّ ماعلينا ان نطرب للغد الثمين، الدرير . ابوك سيتولى مقام الخلافة في المسلمين !

وحدثها عن موقعة الزاب، وعن مجد الرايات السود المتلألئة في ايدي الهاشميين ، وعن خيبة مروان . قاد الجعدي كتائبه بنفسه فدارت عليه الدائرة . قال سليمان : وسوف يقبل بنو هاشم لمبايعتي ، فقد ابتسم لنا الزمن بعد عبوس ولم يبق من اموي يزاحمني على الرجاوة. فاطربي. ستمسين ابنة خليفة وتهزين بيمينك دولة لا تغيب عنها الشمس . من الاندلس حتى الهند . انه لملك ضخم عريض يا بهجة سليمان بن هشام سيد العرب الصيد !

فتمتمت بوهلة نافض : ولكني اخاف من بني هاشم ألا يفوا بما وعدوا بعد هذا النصر السمين !

وجبهته بما جبهه به عبدالرحمن ابن اخيه . فصاح : محال يا زينب ، هؤلاء قوم اذا عاهدوا حققوا . سوف ترين انهم يصدقون !

فلم تجب . وسكوتها اثار في نفسه الريبة. فتضايق وخشي ان يكونوا صانعوه لبلوغ الارب. فيقاتل الى جانبهم برجاله ، وينصرهم على مروان،

وبعد ذاك يديرون له الظهور . وتلجلجت نهيته بالتساؤل : هل يصدق فيه حدس ابنته وابن اخيه ؟

وقلق فالتوى عن ابنته شاخصاً الى ابي العباس صديقه الاوفى وقطب الهاشميين بعد ابرهيم . وهو ما اطلّ في نادي سيد بني هاشم حتى وقف له كل من في المجلس ترحيباً واجلالاً . ومشى اليه ابو العباس يقول مصافحاً ومعانقاً : بشراك ابا ايوب . هوى عدوك عن باذخ مثواه وانتهى الامر الينا . نعمنا بما طالما سعينا له ونهدنا اليه !

وقاده الى صدر المجلس يفسح له الى جانبه . فابتسم ابن هشام بن عبدالملك ابتسامة مستطلعة ورقب ان يبايعه ابو العباس ، فما وقع على البغية . واطال ابو العباس الحديث عن النصر المبين كأن سليمان لم يشهد المعركة ، ولم يعرض صدره لطعنات الاسنة ، ولم يخضب يديه بالدم . قال ابو العباس : قواتنا تطارد مروان الى الشام بعد جلائه عن العراق . وسنلحق به الى حيث يلجأ . فلا هدوء الا وقد حززنا رأسه . عمي عبدالله بن علي في اثره وهو يتحرّق نقمة عليه !

فارتجف سليمان على كره منه وهو يسمع بعبدالله بن علي . فكأنه رسا على شؤم . وانتشرت فيه الكمدة . وكانت ترتعش آناً بعد آن في وجهه البسمة المتكلفة لئلا يقال فيه انه لا يشاطر القوم فرحتهم المستفيضة وقد خلعوا عن رقابهم نيراً مهيناً عانوا مضضه الكاوي تسعين سنة راجحة

واهتزّ المجلس بمن فيه . وانصبت العيون على رجل رهيب المنظر ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، كثّ اللحية ، فاجأ القوم كالايماضة . ودلّ الغبار الكاسي عقاله وكوفيته وعباءته انه مقبل من رحلة بعيدة .

فوقف له الجميع وقد فرضت عليهم طلعته الحشية اكثر منها المسرّة. وضغطت يسراه مقبض سيفه. فشق النادي الى ابي العباس باعتزاز وجرأة. وصافح قطب الهاشميين بدالة ذي الحظوة الوارفة وعانقه بعنف ليجلجل بنبرة المتشامخ المستأسد : اقبل الزمن يا ابن اخي ، فمرحى . اوصى لك ابرهيم الامام ،اخوك ،بالقيادة وانت قائدنا وزعيمنا. وغداً سنبايعك بخلافة المسلمين بعد القضاء المبرم على مروان الحمار ورهطه المناكيد !

فماج النادي بالضحكات المستطيلة وارتفعت صيحات تذيع : الرأي ما يقول عبدالله بن علي. اصاب عمك يا ابا العباس !

ولم يكن الرجل غير عبدالله نفسه . ولقد التفت الى سليمان بن هشام معلناً ببسمة ساخرة، ذات اظفار خوادش : أليس كذلك يا سليمان ؟

فارتج على الاموي. انها لمفاجأة صاعقة زعزعت فيه مثوى الامل واعمت البصيرة . نحره عبدالله بن علي في أعز صبوة . هذا أبعد ما يبلغ الحقد من رهافة في الكيد والانتقام. وأحس ابو ايوب باضمحلال الاماني فكاد يحمى . غير ان الموقف لا يدعو الى السكوت والسكوت يفرض الريبة . فجاهد سليمان مقوله في الكلام يجرّه اليه الاستدراج المتقطّر لؤماً وقال بكشرة مغتصبة ، مريضة ، اشبه ببسمة الطائر الانفاس : كلنا يقرّك على ما تبرم يا عبدالله !

وارتفعت حنجرته وهبطت . وفشا في اساريره الاكفهرار . وبلغت كلماته المسامع اشبه بالحشرجة . اكرهه عبدالله بن علي على مبايعة ابي العباس بمداورة محرجة طغى عليها الدهاء الحاطم. فانكر سليمان بن هشام حقه في الخلافة بخجل واستخذاء وقد انتزعه منه عبدالله بن علي في انكد

موقف بكلاّبة مستأصلة ضروس، وزفّ الخلافة الى الهاشميين كالعروس المجلوّة تفيض طلالة وسنى. فما تعب الهاشميون منذ تسعين سنة في ادراكه ولم يبلغوه ،يوم ركوب معاوية بن ابي سفيان سدة الخلافة والتواء علي بن ابي طالب عنها ، دان لهم في مخاتلة اجاد حبكها عبدالله بن علي وقد تحين لها الفرص ووفق في الاغارة وفي الظفر بالضلول

واطرب هـذا الفوز عبدالله وقد اقتنصه على غير موعد واخزى به سليمان ، الا ان حقده ما اشتفى ولا تبرح اهانة سليمان له تحزّ في قلبـه . قال متوعداً: أُعيد الحق الى نصابه في الدولة العربية يا بني أُمي، واستوى الهاشميون على المنصة الموقوفة عليهم وقد شيدوها بسواعدهم ،الا ان الغلبة لن تستقر على مداها بين ايدينا الا وقد نكلنا بمروان تنكيلاً يطفىء فيه علالة الروح. ولن نكتفي بمروان نجهز عليه وسنطلق للسيف حكمه القاطع في كل اموي !

فتعاظمت الصفرة انتقاعاً في وجه سليمان. هدر دمه عبدالله بن علي الجبار الحقود . غير ان ابا العباس استدرك يدرأ عن صديقه وحليفه هول التهديد فاعلن : باستثناء خدينا الاوفى سليمان بن هشام يا عماه !

فلم يجب عبدالله بن علي. ولكن بريق عينيه المتأججتين بالنقمة والكره، وقطوب جبينه الناطق بالتيه والاعتداد ، دلاّ على انه لن يرحم . فلن يبقي لاموي منخرين يتنفسان . هذه ساعة الابادة الصادعة . فلا تبرح مأساة كربلاء تنهش كبده وتهيب به الى الاخذ بالثأر. يا لثارات بني هاشم ! ولا تنفك رؤيا هامة زيد بن علي بيمين هشام بن عبد الملك ، هشام والد سليمان هذا الراغب ابو العباس في صونه من البلية ، تلطم خياله فتثير فيه

الضغن الاكول .وعبدالله ابصر بعينيه شفار الامويين تحصد هامات العترة الهاشمية ، وسمع باذنيه السخر والتنديد وعاهد على شفاء قلبه من الحرقة العضوض والتنكيل بالجفاة المغتصبين ، ولن يرجع عما عاهد وقد بات الظفر ملء يديه وانتكس اللواء الاموي . فالايام مؤاتية والابله من لا يغتنم موفور السوانح .ثم ان له عند سليمان ديناً يطمع منه في الاستيفاء وفي الابراء . فهل غاب عن سليمان ما هدده به في عزلته ، عند مصب الخابور من الفرات ، وقد توعده بالقتل لولا حرمة الموالاة ؟... بل هو اضمر له الشر وانذر بالحساب يوم ينجلي الافق وتنجاب الغمامة السفعاء . ولقد صحا الافق وانقشعت الغمامة ، وليس عبدالله بن علي بمن يتوارى ويجبن في الحساب. فلن يصفح وقد اذل الرقاب وقبض على النواصي. ولولا وقار المجلس ، ورهبة الساعة ، لاطار فوراً رأس سليمان . على ان الاقدار مسعفة ، وسليمان في قبضة اليد ، فلن ينجو من قتلة حاسمة تنثره غباراً في الهوجاء

وانطوى سليمان على مذلة. صدق ابن اخيه وصدقت ابنته في ما عالناه. استعان به الهاشميون على مقاصدهم ، ولما تمت لهم البغية رذلوه . وعدوه بالخلافة ليثيروا الشقاق في البيت الاموي ، حتى اذا ما توطد لهم الامر لم ينجزوا والخلافة جلّ ما تحنّ اليه النواجذ. وندم سليمان ، وقت لا يجدي الندم ، على تشيعه لاعداء اسرته . ليته اصغى الى نصح عبدالرحمن ووفق بين الامويين والهاشميين ، فتظل كفة البيت الاموي راجحة وترسخ فيه دعامة الخلافة . ولا بد ان تنتهي هذه الخلافة اليه هو سليمان . وان لم تكن اليه فالى ابنائه وحفدته . وودّ لو يلحق بمروان فيقاتل بجانبه ،

ولكن اخلاصه لكرامته قضى عليه بان يبقى حيث اقام . فلن يرجع عن مذهب نادى به وينكص عن طريق شقه بيديه وان افضى به الامر الى الاخفاق فالهلكة

ومال ابو العباس الى مسايرته ليخفف عنه اللذعة الكاسفة، الكاسحة . فشعر سيد بني هاشم بوقع النبلة الغارزة في كبد سليمان وقد رشقه بها عبدالله بن علي يتعمد القهر والذبح . على ان الجرح ما كان لينـدمل في سويداء المولى الاموي والمضض يلتمع في الحين بعد الحين في جهامة طلعتـه وحلكة عينيه

ولم يطق البقاء في مجلس ابي العباس فاعتذر وانصرف وفي ضميره الخذلان وفي جبينه النار. وبحث في منزله عن زينب ابنته ليطلعها على ما لقي من هاصر الهزيمة، فلم تكن زينب في دار ابيها وقد برحتها الى حيث لا يدرك لها قرار !

١٠

اضحت الكوفة موئل قادة الثورة الهاشمية . فهي حماهم الآمن وفيها رسا القوم بالنساء والاطفال واللفيف. وعبدالله بن علي لجأ اليها في نأيه عن مصب الخابور من الفرات. فاستقر بمنزله فيها يردّ عن أهله الخطر، واندفع بنفسه الى الموصل يلقى ابا مسلم الخراساني المقبل اليها بكتائبه للقتال تحت الراية السوداء

وعبدالله تولى قيادة احد الجيوش الهاشمية وهو من المجرّبين في الكفاح. ولا يكاد يذكر ما قصت عليه ابنته ميمونة مما كان فيه وفيها من سماح عبدالرحمن بن معاوية حتى يزوّي ما بين عينيه ويغضب على ابنته المقلقة وعيه بهذه المروّعات. ولقد ادار لها ظهره يكل امرها الى ميسور عميد الحصيان في داره امتهاناً لمكانتها منه . ووقفت ميمونة على انباء القتال فهالها ان ينهزم الامويون بتلك العجلة الفاضحة وخافت على عبدالرحمن من ابيها. فلن يذكر له عبدالله بن علي فضله بل سيطيحه وينجو به من شبح مقيت يسدّ عليه رحابة الانفاس . وخوف ميمونة على الفتى المتبطن جوانيها اهاب بها الى مناداة ميسور تستوضحه ما يعلم من خفايا النزال . فاعلن الخصيّ بطرب: وماذا اعلم منها يا سيدتي غير ما اتصل بك من بشائرها ؟... قهرنا الامويين ورددناهم على اعقابهم فلولاً تنوء بهزيمتها. وابوك ما بدا فينا حتى انطلق للامعان في تهشيمهم . اقسم على محوهم لا يشفق منهم على ابن يوم !

فواثبتها الغصة وتمتمت بالتياع : أتجهل يا ميسور ان منقذنا في مصب الخابور من الفرات ينتمي الى هؤلاء الامويين ؟

فاجاب بنبرة العارف الموقن : لا يا مولاتي ، لست اجهل انه منهم وانه يدعى عبدالرحمن بن معاوية !

فاستطلعت بلهفة : وماذا وقع في اذنيك عنه يا ميسور ، ماذا جاءك عن عبدالرحمن ، هل دارت عليه الدائرة في معركة نهر الزاب ؟

فاجاب بعنف في التفكير ينضو به عن ذاكرته الغبشة : سمعت انه نجا من المكروه يا مولاتي. فقد سلم من المحنة كما سلم منها اخواه . غير ان اباك لن يذكر فيهم رحمة الله وسينثر لحومهم في مهب السوافي . لن يبقى اثر لاموي يعيث في صحوة الجو اعتكاراً وسيدي يغلي حقداً على تلك السلالة النكداء ويأبى الا ان يجلو بدمها نفاثات الارض !

فقالت وعيناها تثقبان عينيه كأنها تحاول ان توقظ فيه حاسة هاجعة : وماذا يجب في المنقذ يا ميسور ، في من فسح لنا الى النجاة ؟

فادرك مرماها ونثل بصوت خافت ،حالم ،وهو يزمّ باصرتيه ويسددهما الى ناظري ابنة سيده كأن ما حاولت ميمونة بعثه فيه قد تنبّه وانتعش : وضح ما ترتجين يا مولاتي !

فاعلنت بشدة في الاداء : يجب انقاذه كما انقذنا يا ميسور . صارحتني عتبة بما تصارحني به عنه . لا يزال في بسطة الاحياء . فما حصده السيف في قافلة الامويين الثلاثمائة المتطايرة ارواحهم في المعمعة الدارسة . فاذهب اليه وعامله بما عاملنا به . حذار ان تطرحه في البركان الهاشمي المذيب !

فابطأ في الجواب ، وغارت باصرتاه وقد تولاه التفكير المرير . وساءل

نفسه : أيجيب ابنة سيده الى ما تدعوه اليه ، ألا يغضب ابوها اذا درى بالسعي المبذول منها لخلاص الفتى الاموي ؟ ... ولكن هذا الفتى ردّ عن ميمونة وعن ابيها الاذى واباح لهما النجاة ، فلماذا انكار يده الخيّرة والاعراض عنه في موقف الاقراز بالجميل ؟

ورقبت ميمونة بشوق وخشية ما سيجاهرها به . فقال بعد تردد شائك ، بمضّ : سيدتي ميمونة ، اوصت السماء المعروف ، والمروءة دين واجب الاداء!

فهتفت راجية اكثر منها قلقة : وعلى مَ عوّلت يا ميسور ، على مَ ؟

— على انقاذ الفتى يا مولاتي . كوني من الامر على يقين !

فراعتها فيه رجاحة الخلق . وما تمالكت ان انتزعت من جيدها عقداً من اللؤلؤ الناصع تهديه اليه جزاء حميته ، فرفض ان يلمس العقد وهو يقول : دين عبدالرحمن بن معاوية يلزم عنقي كما يلزم عنقك ، فدعيني اجاهد في وفاء ديوني !

فزادها اكباراً له واعجاباً بمنيع شممه . فالنبل ليس وقفاً على كبار القوم وفي الصعاليك احياناً من شوامخ الرفعة ما يتخاذل عنه ذوو الخطر . قالت تضرم فيه لهبة العزم : إنطلق اذاً في اثر ابي وهو ينصب للامويين شركاً للايقاع بهم وانتشل عبدالرحمن من الورطة . وابلغه ان يكفر بكل ما يخاطبه به الهاشميون من القول الدميث !

فاندلع شرارة طائرة . واقامت ميمونة بانتظار ما سوف يكون . ولم تضمها في الكوفة « حلقة الحديد » ، وهي بعيدة فيها عن عبدالرحمن ، بل نعمت بمطلق حريتها . وابوها عبدالله بن علي ندم على ما كان منه فيها . واشتدّ به الندم وهو يفرّ من داره في مصب الخابور من الفرات ويدع

ابنته غنيمة رخيصة لانياب الامويين. ولم يصدق انه يراها والصحراء تزفها اليه. فضمها الى صدره وقال بحنان خرج فيه عن صلابته المأثورة: ميمونة، أقلقتني وانت في مهبّ الدواهي فوق ما اقلقني مروان الجعدي!

على انه تنكر لها وقد أذن بما لقي ولقيت من حلم عبدالرحمن. وودّ لو لم يكن لهذا الاموي المشؤوم هباءة من فضل عليه تزيد في شغف ميمونة بالفتى الحصيم وتضرب عليه، هو عبدالله بن علي، ذلة الملاينة. واذابت سميّة، أم ميمونة، الجهد في التوفيق بين ابنتها وزوجها فما أُوتيت الطاقة. واقتحم عبدالله غمرة القتال ونفسه تنزو اضطغاناً. فآلمه ان يقيم من ميمونة، ريحانة نفسه، على جفاء حزين. ومضى للفتك بالامويين وبعبد الرحمن بن معاوية في طليعة الجميع. على انه لم يوفق لقتله في غليان المعركة مع بطش الهاشميين بثلاثمائة اموي. فاعاد عبدالله الكرة ونفسه تصبو الى الاشتفاء النجيع. فيدرأ عن نفسه كدرة تنغص عليه صفو شرابه وترميه بالكمدة، وينشط لمعانقة زهرته الغيداء، ابنته ميمونة، وهي وحدها تحيي فيه الشعور الرفيق

ولكن من هي هذه المقبلة الى دار عبدالله بن علي تسأل عن ميمونة؟... من هي هذه الممشوقة القوام، النبيلة الطلعة، المتهادية الى دار الزعيم الهاشمي على قسوة في الملامح وحزم في الخطوات؟... ودعيت ميمونة الى اجابة الزائرة الوثابة العين، الصارخة الاناقة، فما ابطأت ابنة عبدالله بن علي يسوقها كابس الفضول، غير انها شدهت وهي تبصر القادمة وتلجلجت في الكلام. هذه زينب بنت سليمان بن هشام، فما جاء بها اليها وهي منافستها في عبدالرحمن الحبيب الاريب؟

وسألت ميمونة باصرتيها أتكون المائلة تجاهها زينب بعينها؟... وظلت ترتاب مع يقينها انها ترى حيالها مزاحمتها. واندفعت اليها الاموية الروعاء تحييها وتقول بجهير المؤانسة: ميمونة، لست اجهلكِ ولا انتِ تجهلينني وقد اظلتنا معاً سماء دمشق ومغانيها. وجاءني عنكِ كما جاءكِ عني ان القلبين ينطويان على حب عبدالرحمن ابن عمي . ومع اقراري باني اهوى عبدالرحمن وهو يميل عن مودتي ، وقد وقعتِ منه موقعاً ارفع ، فلا يسعني وانا اراه عرضة للخطر الا ان اقبل اليك متناسية غيرتي وحبي كي تلتمسي للفتى من ابيك الامان وقد سقط اليّ ان اباك يلجّ في استئصالنا. ليشفق وليبقه يا ميمونة. فانت تعلمين مثلي ان عبدالرحمن بريء من مشاين الامويين !

ونزفت عيناها الدمعَ الصبيب . وتلاشى فيها زهوها فباتت في موقف المستجدي. اين عجب زينب بنت سليمان ؟... أذواه الحب الجديب العصيّ فبدده في متناوح الريح . قالت وهي تتقلب على هلع قاصم : ميمونة ، انقذيه وليكن لكِ ، على ان ينجو من المهلكة. اؤثر ان اراه حياً وليمت قلبي. حقدي عليه في ازوراره عني لا يهيب بي الى الراحة وعبدالرحمن يعاني سكرات الموت !

واشرق الصدق في كلماتها . فالتضحية بلغت فيها مداها . وتعجبت ميمونة مما تأذن به من الهوادي فابدت بتأثر بليل: زينب ، بقاء عبدالرحمن حياً هو كل ما اروم . اصبحت لا ابالي امر هواي مثلي سلامة الفتى. واني لاضحي بحياتي لضمان ايامه . ليكن لكِ على ان يسلم من الاذى . انت احق به مني . غير ان ابي لن يلين في القسوة . فقد صمم على الانتقام من جميع الامويين، وفي الطليعة عبدالرحمن . وشفاعتي تزيد في احراج موقفه

وفي نقمة ابي عليه . الا اني انافح عنه بما في وسعي . فاوفدت من ينقذه من بطش والدي بعدما انتهى اليّ انه ينعم بالوجود !

فناح في زينب الخوف على ابن عمها وقالت مستعطفة : انقذي عبدالرحمن يا ميمونة !

فاعلنت ابنة عبدالله بن علي بعزم صليب : انا ساعية لانقاذه فلا تقلقي . سادفع عنه الشر بحياتي !

ووطنت النفس على التضحية . وانتظرت عودة ميسور للوقوف على امر الفتى . وميسور توغل في ضفاف الفرات وقد غارت في مطاويها فلول جيش مروان . فايقن الامويون ان النصر افلت من ايديهم وان الغلبة للهاشميين . وهذا اليقين حمل شطراً منهم على اجتياز النهر سباحة خشية الوقوع في أسر المعقودة لهم رايات العزة

وعهد مروان الى القوّة المالك امرها عبدالرحمن بن معاوية في حماية مؤخرة الجيش . ومروان على ثقة بالامير الاموي الناشىء وقد اثبت له في مواقع الشدة انه خليق بالمعالي ، كفيء في التدبير . ووقف عبدالرحمن على ضفاف الفرات يرد عن الجيش الاموي المدحور عادية الهاشميين ويتقي بصدره وثبات الاخوين عبدالله بن علي وصالح بن علي . الا ان الرعب فشا في جنده فعمد اكثره الى عبور النهر فراراً من النضال . والتفت عبدالرحمن الى من بقي حوله من رجاله فاذا بهم حفنة لا تدفع خطراً ولا تمسك على منعة . فاوجعه ما صار اليه وابى ان يعود بمزق اللواء فثبت في الموقعة . واذا جند عبدالله بن علي يلتفّ عليه ولا يدع له غير النهر منفذاً للنجاة

ودرى عبدالله ان عبدالرحمن بن معاوية ، غريمه ، يقود الفلول المحطمة ،

فشاء القبض عليه حياً للفتك به بيده. فيقطع رأسه ويروي منه الاوتار العطاش ويحمله الى الكوفة منادياً في الاعوان والخصوم : هذا رأس عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام، حملناه اليكم ليعتبر بمصيره من تختلج في قلوبهم نضاضة من حنين الى العهد البائد الخسيس !

فما مثل هشام من مأساة في الرصافة على مرأى من عبدالله، يوم انتضى بيمينه رأس زيد بن علي الثائر على الامويين ، رغب عبدالله في اعادة تمثيله في الكوفة بانتضاء هامة حفيد هشام المضروبة العنق بالسيف الهاشمي المنصور. وتراءى لعبدالله وهو يدحرج رأس عبدالرحمن بن معاوية انه يبلغ هدفين، فيظهر للمرتابين بعظمة بني هاشم انتقامهم الحاصد وقد ساروا فيه على شرعة « سن بسن وعين بعين ! » ، ويسلخ من ابنته ميمونة حبها العقيم

واوفد الى جند عبدالرحمن من يعلن فيه : ايها القوم ، ضاق بكم كل امل بنصر وكل مهيع الى نجاة ، فارأفوا بانفسكم واستسلموا الى مولاي عبدالله بن علي . مولاي يذيع فيكم : « من استسلم سلم ! ». فالقوا السلاح وانتم بامان !

فصاح عبدالرحمن بن معاوية متطيراً: من هذا الناعي الينا انفسنا؟... اقبضوا عليه واقتلوه !

ولكن الموقف لم يكن يأذن في النهوض بالعزائم الخائرة . فالجند الاموي المضطرب الروح طمع في الاستسلام ما دامت النجاة موفورة . وكل ما بذل عبدالرحمن من مجهود للحؤول دون الانهيار افضى الى الخسف. فالشطر الاوفر من قواته مال الى الخلاص بحياته، بعدما رأى النصر يفلت من الامويين ، مهما ادى بدل هذا الخلاص . فلماذا الكفاح الخاسر

العاقر ؟ ... واظلمت في وجه عبدالرحمن الدنيا وعزّ عليه ان يخيب في ما عقد عليه مروان من رجاء ، فناشد رجاله ان قفوا ، اثبتوا ، ناضلوا ! ... فضاعت صيحاته كقطرة في غمر . وشعر بالموت يهزه وهو يبصر رجاله ينصرفون عنه الى معسكر عدوه وغاض فيه كل امل بالمساماة

ولم يبق في سوى رهط ضئيل من الخلّص . وخجل من النظر الى هؤلاء الشجعان فانطوى على نفسه وكاد يفقد رباطة الجأش . أيدفع هذه البقية الصالحة من المجاهدين الابطال الى الموت وليس في الموت عائدة ، ام يدعوهم الى اللحاق باخوانهم ويسير في طليعتهم الى استمطار رحمة عبدالله ابن علي العدو المسرف في الانتقام ، الصلود في الرأفة ؟

وما نسي عبدالرحمن انه ذو فضل على عدوه . فلو شاء ان يودي به في مصب الخابور من الفرات لاستطاع . فما عليه اذا ذكر هذا الفضل وهو يرتمي في عطف عبدالله ؟ ... فانه لينقذ جنده وينقذ اخويه السائرين في ظله . وهالته المجازفة بمن رسا في ركابه من الشوس النجداء فالتفت اليهم يقول برفق في النبرة وبوقار العزيز المقهور : ايها الصيد الميامين ، لا بد مما كتب الله . عبدالله بن علي اكثر منا عدداً وامضى عزماً . فاذا ناوأناه فالموت نصيب كل منا . ولست أبخل على الموت بروحي ، وهو سيدها في الحين المتاح ، الا اني ابخل عليه بارواحكم تذهب سدى وانتم ذوو غد وعيال . لقد استشرت فيكم ضميري فابى عليّ ان اهبكم للفناء ضحايا رخيصة . فلنمش الى عدونا واثقين بنبله ومروءته ، والاتكال على الله !

واندفع في المقدمة ممتطياً جواده . واذا برجل يثب عليه ويقبض على شكيمة الجواد ويصيح به : ماذا تفعل ؟ ... أترجو الحياة وانت تنطلق

لى النار تحترق في أتونها ؟

فجمد على صهوة جواده . وتذكر انه ابصر الرجل . ولكن اين؟...

فغمغم وقد اتسعت عيناه : من انت يا هذا ؟

فاجاب المنذر بالويل ونبرات صوته تموج صدقاً : انا من يسعى لوفاء دين طوّقت به جيدي !

فألهب عبدالرحمن ذاكرته كي تنجلي عن معرفة هـذا الساعي للوفاء . وانتفضت شفتاه بلجلجة تخشى الزيغان : أسائق النياق من مصب الخابور الى الصحراء ؟

فصاح مخاطبه وقد سرّه ان يعرفه القائد النبيل : اني لهو !

وما برح قابضاً على الشكيمة . فذكر عبدالرحمن الموقف الطريّ الصفحة وقال : من اوفدك اليّ ؟ ... أأبنة سيدك ؟ ... ميمونة؟

— هي بعينها يا مولاي !

فخفق قلب الفتى الاموي. هذا رسول شقيقة الروح . قال يستقصي: والى مَ تدعونا ابنة سيدك ؟

— انها لتصبو الى اقالة العثرة ومقابلة الجميل بالجميل . انقذتنـا من الدهمة وسننقذك منها. اذا شاء رجالك ان يسيروا الى عبدالله بن علي فليفعلوا، لا خوف عليهم ولا ضير . اما انت فحـذار ان تحدثك النفس بخطوة . فالقائد الهاشمي في ظمأ الى دمك ، كن منه على احتراس الفطين !

— ولكن عبدالله بن علي يقول : « من استسلم سلم!»، ونحن نجلّ فيه الصراحة ونكرم سمو القولة !

فاعلن الرسول بجلاء لا يتلعثم بلكنة من موارية : عبدالله يستعين عليك

وعلى اخويك بالخدعة . اصرف رجالك عنك والحق بي . هل فاتك ان القائد الهاشمي اقسم على اراقة دم جميع الامويين ؟

فمال عبدالرحمن على رجاله يقول وقد آمن بكلام رسول ميمونة : من رغب منكم في الاستسلام فليقدم عليه . انتم احرار في مصيركم ولم يبق لي عليكم سلطان . صونوا ارواحكم وامشوا في ركاب الهاشميين !

فصاحوا بحماسة أيّدة و كأنهم ينطقون بلسان واحد : نحن بجانب الامير ولن نحيد . الموت في ظله احبّ الينا من العيش في احضان الحصيم !

فجرت في عروقه رعشة اعجاب كادت تندى بها عيناه . فلا يزال حوله قوم يبطنون له الولاء . قال : أتسيرون في خدمة من تتوعده منيته ؟ ... صرعة الموت على مدّة ذراع مني . فانجوا بانفسكم . كتب الله لكم العمر الطويل !

فهتف بهم رسول ميمونة ، وان هو الا ميسور عميد الحصيان في دار عبدالله بن علي : تعالوا ، نحن بحاجة اليكم . علينا ان نشقّ نطاق الحصار المضروب علينا للفرار بالامير واخويه الى الملجأ الآمن ، أتفعلون ؟

فنبروا : ارواحنا فدى الامير !

وماجوا الى حيث اشار ميسور ومهجهم على أسنة رماحهم . وثلموا النطاق الهاشمي في ومضة طائرة كأنهم الشرر و كتبت السلامة للامير واخويه ورجال عبدالله وصالح بن علي في غفلة . قال ميسور : بوسعكم الآن ان تتفرقوا . فاذا طاردونا فلن يدروا بمخبأنا !

فاطاعوا مكرهين ، وما كانوا ليرضوا الانسلاخ من الامير وهو عنوان عهد وشعار عز . وقاد ميسور الفتيان الامويين الثلاثة الى كوخ

ضائع بين القصب النامي على ضفاف الفرات وهو يقول: حققت فيك مشيئة سيدتي ميمونة يا عبد الرحمن . انقذتمونا فانقذناكم . انتم في هـذا الكوخ بمأمن من الخطر المستذئب الكفور !

١١

– ميسور ، هل نجا الامير ؟

فكفتها ابتسامتـه المرفرفة على اساريره الملس شرّ القلق . فالنجح يتكلم فيه. قالت ميمونة بشوق الى الاطلاع على الصنيع: اسرع في الايضاح. اين عبدالرحمن ، هل اتقى البلية ؟

وأصاب زينب من ظمأ الفضول ما اصاب ميمونة. فالاثنتان في حنين الى بيان ميسور. قال الحصيّ بدلال الظافر الجمّ التوفيق: جرى الامر كما تشتهي مولاتي .عبدالرحمن واخواه يستهينون بالاذى. فهم في حمى مأمون!

وقصّ عليها مأتاه بانسجام وتنميق . فصاحت: أحسنت، أحسنت !... بماذا استطيع ان اكافئك ايها المغامر الامين ؟

فاجاب بابتسامته الرويّة : حسبي من سيدتي رضاها عني . انا شريكها في وفاء الفضل . فالامير الاموي انقذنا معاً من المكروه !

وقلقت زينب في مثواها وقد هاجت فيها الصبوة الى رؤية ابن عمها . قالت : هل لك ان تدلني على مقر عبدالرحمن يا ميسور ؟

فقال وهو يعرفها : لست بمن يدفعك الى اشداق النار يا سيدتي !

– لا تخشَ عليّ . انا راضية بان ألقى من الضنك ما يلقى ابن عمي !

وقالت ميمونة متحمسة : اجل ، سر بنا الى عبدالرحمن يا ميسور !

فالاثنتان رغبتا في رؤية الامير الاموي. واستيقظت الغيرة في القلبين

والفتى يحبو بامان ، الا انهما ذللتا من جماحها والموقف يقدر التضحية . وعانقت زينب مزاحمتها وهي تقول : ميمونة، انت انقذته ، واني لابارك لك فيه !

فهتفت ميمونة بمسرة بريئة من الحقد : بل هو لك يا زينب، ولا محيد!

وتعانقتا طويلاً والتضحية عرفت طريقها الى الروحين. وحملها هودج الى الكوخ الضائع على ضفاف الفرات يقودهما ميسور

وكانت فلول مروان الجعديّ تتراجع الى دمشق والاردن وعبدالله ابن علي يضرب السيف في قفاها وينجده عليها صالح اخوه. وكيفما مالت الاذن هدرت فيها الصيحات الزاعقة : الموت للامويين !

وعلى صدى هذه الزعقات طوت ميمونة وزينب المراحل الى عبدالرحمن وبدت لهما جثث القتلى تعضّ الرمل المخضب بالنجيع . وحامت العقبان والغربان على الاشلاء المنثورة تمزقها بمناسرها فتزيد المشهد الفاجع قتمة وهولاً . وأناخ ميسور الناقة بباب الكوخ . هذه هي المحجة. وما لاحت لعبد الرحمن الفتاتان معاً ، يضمهما هودج واحد ، حتى انسابت فيه خلجة الشك . فالضدان يجتمعان . انها لرؤيا بعيدة التصديق !

ولكنه يبصرهما ازاءه تدلفان اليه. ورسختا في عينيه وظل لا يصدق. محال . انه لسرابٌ خادع . وصاحتا بشوق : عبدالرحمن !

ودنت منه ميمونة تقول : مصيرك اقلقنا . شاءت زينب ان نقبل اليك لنتابع معاً مهمة الانقاذ !

فحلت عقدة لسانه وقد ضعضعه اليقين وغمغم : أتعرضان روحيكما للخطر في سبيلي؟... انكما لتروّعانني مع كل ما تنفحانني به من عزاء بليل !

وصافحها بقوة وكاد يضمها الى صدره . فلم يكن يرقب هذه المؤاساة في المصيبة العاوية. قالت زينب: الفضل فضل ميمونة يا عبدالرحمن، لولاها لحصدك الهاشميون !

فقال ببشاشة حافلة بعرفان الجميل : ما غاب عني سمو الصنيع !

فاعلنت ميمونة بسماحة ذكور: عبدالرحمن، كل ما نقدم عليه لا يفي يدك علينا. فلقد منعت عن ابي الهلاك كما منعته عني . فاذا قابلناك ببعض جميلك فلا نبرح مثقلين ازاءك بالدين الوزين !

وزادتها صراحتها نضارة ووسامة . ومضت في القول برصانة وعذوبة فيّاحتين: والآن، والحالة تنذر بتفاقم الضرم، والخطر يواثبك هادراً، رهيف الناب، أُريد ان تصغي اليّ في رأيي. الهاشميون طامعون في القضاء عليك . وكل محاولة في دفع الشر عنك لا تجدي، الا اذا قدرت على الهرب ونجوت، او تزوجت الساعة ابنة عمك زينب، فيشفع ابوها فيك لدى الهاشميين وكلمته فيهم مسموعة نافذة ، فتملك الحرية وترتع في الامان !

فنظر اليهما معاً بحيرة نافض. وقالت زينب تعترض: لماذا انا ولا انت يا ميمونة وابوك من دعائم الهاشميين ؟

فاوضحت بجلاء سديد: اقتران ابن عمك بي يعرضنا معاً للهلاك، فهل يخفى عليك عناد ابي ؟

وامسكت بيد عبدالرحمن وهي تعلن بقوة : ايها السيد ، لست لك . فلا تطمع في نظرة مني. ابي لا يرضى بان يعقد لك عليّ وانا على دين ابي . ابنة عمك وحدها تنقذك من المحنة . عيشا بسلام مديد !

فاكبر تضحيتها. غير ان زينب مانعت شديداً في فصل قلبين متحابين

بعضهما عن بعض . وخاف يحيى ،شقيق عبدالرحمن البكر ،مفاجأة الهاشميين والوقت ينقضي في بث اشواق ومجاملة فقال : تدبير النجاة قبل اعداد الزواج ،عمركم الله .نحن في مخبأ عرضة للعيون الفضّاحة .فاذا ظلّ الهاشميون اليوم في غفلة عنا فلن يضلوا غداً عن المكمن الخفيّ .أليس الى النجاة سبيل؟

واذا ضجة تعلو الكوخ .فتلفت القوم بعضهم الى بعض بهلع . وسألت ميمونة مرتاعة : من الركب ؟

فاطلّ ميسور من كوة في الجدار واضطرب كمن أُصيب في كبده . وادار وجهه الى ميمونة وقد انتشرت فيه صفرة الموت وقال متعتعاً كأن في لسانه شللاً : ابوك يا سيدتي ، ابوك !

فوجم كل من حواهم الكوخ وفشا فيهم الذعر .وصاح يحيى بن معاوية مستوضحاً بخشية صارخة : عبدالله بن علي ؟

— هو ، هو !

فلمسوا بايديهم الموت . وظلت ميمونة على فضلة من ادراك فقالت : عليكم بالفرار ، طيروا الى حيث تسلم ارواحكم . ابي لن يبقي على احد منكم . هذا نهر الفرات فاجتازوه الى شط السلامة .ساشغل ابي عنكم ريثما يتم لكم الخلاص المأمون !

وانطلقت الى لقاء ابيها تميل به عن ارتياد الكوخ . وهفا عبدالرحمن يصحبه اخوه الصغير الى ضفة النهر وهما يحسنان السباحة .فارتميا معاً في مياه الفرات يعبران الضفة الى الضفة صائحين بيحيى اخيهما البكر: إلحق بنا يا يحيى!

ولم تكن ليحيى على السباحة طاقة . فظل بباب الكوخ يرقب الموت وهو موقن انلا نجاة له من الوهلة .ورأى ان يتعادل وميمونة في مداورة

عبدالله بن علي حتى يتفق لعبدالرحمن واخيه الاصغر ان يجاوزا مرمى النبال ويأمنا ويل المطاردة

واعتزم يحيى ألا يموت جباناً .عاش على سخاء في النبل وسيموت على فيض في الاقدام . فما دامت صرعة الموت تغالبه فلماذا يلقاها بمذلة ؟ ... ورقب ما سوف يكون من ميمونة .فقد يلين لشفاعتها قلب ابيها المنحوت من صخر. وعبدالله بن علي وقد جاءه ان عبدالرحمن واخويه لجأوا الى الكوخ المتواري في سيقان القصب نفر بنفسه الى دمغ الهامات تواكبه ثلّة من رجاله. واطمأنت فيه احقاده، سيروي سيفه بدم عبدالرحمن الوبيء. ولكن من يرى؟... انه ليغالط عينيه. أأبنته هذه الواثبة اليه؟... أهي ميمونة ؟... يا للشؤم الناخع ! ... اي اعصار قذف بها الى ضفاف الفرات ؟

وعاند في تصديق ما تجلو الرمال. ولكنها ميمونة بكل قسمة فيها . وهذا صوتها . انها لتناديه : ابي ، ابي !

فانقلبت سحنته وقد ايقن انه يبصر ميمونة ابنته وازداد شراسة على شراسة . فاضحى في متناهي العطش الى الدم. وشهر رمحه يريد ان يخرق برأس السنان القلب الفتيّ المستهام .لا كانت ميمونة .وراعه ما تتقد به نفسها من هيام بعبدالرحمن وقد هفت اليه تبحث عنه في مضطرب الدم ومستجاش الصراع .وعرضت صدرها للفتكة وابوها يشهر عليها رمحه وصاحت بجرأة تسلسلت اليها منه ومن بني هاشم اجدادها: اقتلني ، اقتلني ، يكفي ما ازهقت من ارواح .لا بأس ان يعيّرك الناس قتل ابنتك وانت لا تعرف في تهالكك على امتصاص الدم الارتواء !

فتصاعدت انفاسه حمماً وزمجر: من قادك الى هذا القفر يا خالعة العذار؟

فاجابت بمضاء أنوف : اما خالعة العذار فلا ، وحق من جاد عليك بالقدرة . ميمونة لا تبرح ابنة عبدالله بن علي . واما من قادني الى هـذا المهمه فما جاء بي اليه سوى خوفي من امعانك في استئصال الارواح . هلا اشفقت واكتفيت ؟

فظهر له مرماها . هي تشفع في عبدالرحمن . وتناسى انها ابنته فصاح برجاله : اقتلوها !

فهتفت تغريه بدمها : بل اقتلني بيدك ، برحمك ، ان تكن عبدالله بن علي !

فاحرجته . وهي تبغي من احراجه الوقوف به عن عبدالرحمن ريثما يتسنى للاموي عبور النهر . وانتشت بحب التضحية فيما تدفع اباها الى خطف روحها وتبديد انفاسها . ليعش عبدالرحمن ولتذهب غير مأسوف عليها . ولم تسعف عبدالله بن علي يمينه في الطعنة . ولم يطعه رجاله في الفتك بابنته فادار وجهه عنها وهو يصيح بمن حوله : أبعدوها عن طريقي !

واحس في نفسه بالموت . وبات لا يطيق رؤية هذه الفتاة الناشزة ولا يبيح لرمحه اختراقها . ومال عليها رجاله يبعدونها عنه . فابت ان تتزحزح ومناها ان تطيل وقفة ابيها لتتسع امام عبدالرحمن فسحة الهرب . قالت بحدة : دعوني هنا ، ازاءه ، اني لاشتهي ان تصرعني يمناه !

فلم يقوَ على امتلاك غضبه حيال استفزازها الجيّاش وصرخ بها والسخط يضيع فيه الرشد : خذيها يا قبيحة العرض !

واهتز في قبضته رمحه وقد سدد الى ابنته طعنة نجلاء حطمت صدرها ورمت بها في الارض ملتوية الصواب . وعمي عبدالله بن علي فدفع جواده يضرب جثمانها بحوافره ويثب الى الكوخ وقد تعامى الفارس عن دمه المسفوك

بيده . وبباب الكوخ وقف يحي بن معاوية مستهيناً بالموت. فهو على أهبة للمنايا يشرب منها سلافتها قبل ان يسقيها دمه. والتفت عبدالله بن علي الى رجاله والنقمة معقودة في جبينه ، والحقد يتضرم في عينيه ، وصاح بهم بصوت أجشّ : دونكموه !

فانقض اربعة منهم على يحي ، وطوّقت جماعة الكوخ لئلا يفرّ منه المختبئون فيه. واذا النبيل الاموي يقدّ بضربة سيفه هامتين ويشق طريقه الى والد ميمونة وهو يرعد : والله، لاسقين الارض دمك ايها الزنديق !

واهوى عليه بالطعنة . فضحك عبدالله ضحكة المقتدر وقد اخطأه يحي. فكال له الاموي الفائر ضربة سديدة اتقاها عبدالله بترسه وحطم نصلة السيف في يمين يحي المستميت في الفتك بعبدالله العدو الالد . وتخاطفت سيوف الهاشميين المجاهد الاموي فانبطح مثخناً بالجراح والقائد الهاشمي يمضي في ضحكة الشماتة والجبروت. وتوالت الضربات على يحي ففلقت هامته وهشمتها لا تبقي منها على سوى نثير من لحم وعظم يغيب في غلاف من الدم

وألقى عبدالله بن علي نظرة ازدراء وانتفاخ على الجثمان المهشم وقال وكلماته تنغمس في الاحتقار الشامت : نال اللئيم جزاءه !

والتفت الى الكوخ يقول على حثيث شوق الى البطش: واين الآخران؟

واقتحم الكوخ وسيفه الغائص في النجيع لم تنقع له غلة . بيد ان الكوخ لم يشفِ ظمأه. فالجدران العارية جبهته بالخيبة. وطحنت اسنانه بعضها بعضاً لفرط اللوعة . هل نجا عبدالرحمن؟... واذا احد رجال القائد الهاشمي يصيح : ها هما في النهر يلتمسان الفرار يا مولاي !

فطفر عبدالله بن علي بجواده الى الضفاف يعلن في رجاله: اذيعوا فيهما

الوعد بالنجاة إن هما استسلما الينا. اهتفا بهما ان في الاستسلام الطمأنينة !

فاعاد رجاله النغمة الخادعة : من يستسلم منكما سلم. مولانا عبدالله بن علي يعاهدكما على الامان . فارجعا !

وتعددت صيحات العفو فلم يثق بها عبدالرحمن وظل جادّاً في السباحة يطلب الشطّ الآخر. وتعب اخوه الصغير وآمن بما يسمع من خالب الوعد فانكفأ الى حيث يتعالى النداء الغرّار . فتألم عبدالرحمن وهو يرى اخاه يقع في الاحبولة وناشده ان يتابع طريقه :سيقتلونك وتربة ابيك. فالوعد يبطن الغدر !

فلم يسمع اخوه الواهي العزمة وارتمى في قبضة مما كريه. فطرب عبدالله ابن علي وهو يراه،وشزره بنظرة صاعقة قفّ لها شعر الاموي على ابتلاله بالماء. وصاح الهاشمي برجاله وهم يدفعونه اليه: أتحملون الميّ سليل الافاعي كأنكم لا تدرون ما يجب فيه ؟

ففرعته السيوف في ومضة لا تجيز له فتح شفتيه في استرحام . فقال عبدالله واشلاء الغلام الاموي تتطاير على شفار المواضي: يجب ان نفنيهم حتى لا يبقى منهم من تشرق عليه الشمس . يفجعني ان ينجو الآخر منا !

وهو لا يجهل من الآخر. وكان يبغيه بمستفحل النقمة. فليس يحقد على اموي مثله على عبدالرحمن وقد لعب بفؤاد ميمونة. وسأل عبدالله بن علي عن ابنته وهو يتلظى حرقة لنجاة عبدالرحمن من قضاء النصلة الباترة . فماذا حلّ بابنته ؟ ... ولما قيل له انها لا تزال على رمق من حياة،وان ميسوراً عميد الحصيان في داره ازجاها الى الكوخ يعتني بها،صرف باسنانه وزعق متوعداً: أيكون ميسور هنا ؟

إذن هناك مكيدة مدبرة في ليل. واجابه مخبره بسرّ الكوخ: هو هنا وزينب بنت سليمان بن هشام يا مولاي!

فرفع عبدالله كوفيته عن رأسه حَنَقاً معربداً. ضعضعه سلطان الحب على النهى. أتجرّ ابنته وزينب بنت سليمان كل ما تحملان من اسم ضخم وجهارة نيّرة الى كوخ تائه على ضفاف الفرات لرؤية شاب تقيان منه على جوى؟... وكاد يكفر ابن علي بخالقه وقد حار في تفسير قوة الحب الغشوم. وزمجر وكل ما يتراءى له يهزه في صميم الروح: احملوا اليّ ميسوراً وزينب!

وميسور وزينب فوجئا بنبأ مصرع ميمونة فيما يهدان على الضفاف فرار عبدالرحمن واخيه. ولما اطمأنا الى مصير النبيلين الامويين ارتدّا الى الفتاة المطعونة برمح ابيها جازعين باكيين. وحملاها الى الكوخ يغمرانها بالعطف والاسى. وتناست ميمونة جراحها وقد ظهرا لها لتستوضحها، على كل خور ولعثمة فيها، امر من تهوى. قالت زينب: لا تقلقي عليه، اضحى بنجوة من الهلكة!

فشاعت في وجهها المسرّة، وارتفعت عيناها الى السماء وهي تجمجم بحشرجة تنبىء بالاضمحلال: بوسعي الآن ان اموت براحة. زينب، اوصيك خيراً بعبد الرحمن!

واعياها الجهد فسكتت واغمضت عينيها. وهفا الى ميسور وزينب من يدعوهما الى عبدالله بن علي. فتولى الذعر ميسوراً واحس بالارض تميد به. حان اجله. غير انه تماسك وبدا في حضرة سيده ثبت الجنان كمن لا يخشى لومة. فرشقه عبدالله بناظرين يمور فيهما السخط، ولسعه بصرخة يرتعد لها قلب المغوار: يا عبدالسوء، أتغرّر بنا وتقود ابنتي الى مواضع

الحسة ؟ ... افصلوا رأسه عن جسده . انه لوغد زنيم !

فقال ميسور دون ان يجبن: سيدي ، دمي لك حلال . غير ان ابنتك اقبلت الى هذه الضفاف لدفع الغاشية عمن انقذك وانقذها. انت مدين بالحياة لعبدالرحمن بن معاوية الاموي . فلو شاء ان يقبض عليك وهو يفجأك في مصب الحابور لحلت الارض من عبدالله بن علي . ولكنه آثر ان تنجو بنفسك وان انجو وابنتك وعتبة من كارثة الفناء على ان نقع تحت رحمة مروان . وعتبة الزنجية شاهدة على ما اقول . ابنتك رامت وفاء دين يرسو في عنقك وعنقها !

فردد زعقته وقد تعاظم فيه مرير الحقد : اقتلوه !

فاتقدت في ميسور الجرأة ونبر مستهيناً بالموت الفاغر الشدقين: ابلغتك قبل ان اموت ما انت مديون به لعبدالرحمن بن معاوية، وما حمل ابنتك على ارتياد هذه الضفاف، ولا بأس ان تغتالني وقد فتحت عينيك على ما يرسو في عنقك من لزام الوفاء. دم الحصي ميسور ليس اغلى من دم ابنتك وقد صرعتها عدواناً وبغياً يا غليظ الفؤاد !

فتدحرج رأسه عن منكبيه يشكو الجور الطاغي. وراع زينب بنت سليمان ما يحوك عبدالله بن علي من مبيد الفواجع فصارحته بالقول الحاطم لا ترهب فيه صولته الطحون : ايها الظلوم ، اضرب عنقي بحسامك . ليكن رأسي بين هذه الهامات المنثورة ارضاء لعنجهيتك . لا بأس ان تساويني بميمونة ابنتك . اللهم اقبضنا اليك وانقذنا من مرأى البغيّ المقيت !

فتفاقمت فيه نقمته حتى كادت تودي به. على انه تماسك حيال ابنة سليمان ابن هشام بن عبدالملك والهاشميون بحاجة الى سليمان. فاحتمل تنديد زينب به

مكرهاً مع نفرته اللهبى من ابيها ومن كل اموي . غير انه قال بسخرية مرّة يحاول بها الازراء بالفتاة الوثابة الطماح: ما قضيت على ابنتي يا زينب الا ليتسع لك المجال الى الاستمتاع بمن كواك بصدوده . فانت ترين انّا لك من الانصار !

فارتعش صوتها تألماً وقد قضقضت اضالعها الكلمات الجائحة وقالت بغيظ مزبد: عبدالله بن علي، انك لرجل نبا عنه الاحساس وطاش فيه الحلم!

فاجاب بلهجته الساخرة نفسها : شكراً لحسن ظنك بنا يا زينب . أتريدين ان نسير بك الى ابيك ؟

فاعلنت بعنف لاطم شاءت ان تغمد به في قلب عبدالله نصلة قاتلة : بل اؤثر ان ابقى هنا ، بجانب ابنتك المطعونة بيدك ايها الاب المستهين بجلال الابوّة وقاتل الابرياء !

فتضاءلت عيناه حتى كادتا تمّحيان من صفحة وجهه . وسدد من فرجة اهدابها المتعاقدة نظرة تهدد ابنة سليمان بن هشام في ايامها. اضمر لها الويل. وبلع ريقه وادار وجهه عن الفتاة وهو يخاطب رجاله بصوت كمد أبحّ : لننصرف !

واندفع في الطليعة دون ان يحفل بابنته المندثرة في الرمل على نزع متلاف. لتمت ما دامت شوّهت فيه عذرة الكرامة. وحاول نفر من رجاله مخاطبته في امرها فخانتهم الجرأة. وعاد الركب يتبطن الصحراء وقد ابقى بعده ثلاثة رؤوس تعبّ الرمل المجبول بالدم، وفتاة تحشرج وقد اوشكت ان تطبق عليها يد الموت ، واخرى تتحرّق وقد التهب في اعصابها القهر وهبّت في نفسها ثورة جموح تريد اطلاقها وليس ما يسعفها في اذكاء النار

١٢

زينب بنت سليمان في شبه دوار . فما شهدت من نوازل ، وما سمعت من قوارص ، ذهبا فيها برهافة الادراك . هي اشبه بالضائعة ، تكوى بنار الشمس ولا تملك العزم على الحركة وقد جمدت مكانها مقعدة مصعوقة . فاي تجربة مشؤومة تعصف بها ؟

واذا خلجة البكاء الاسيان تعروها وقد انتابتها ازمة من سخيّ النواح . ووقعت عيناها على الاشلاء المطوقة بها فجاهدت في دفع خبلها عنها تذكر ما تقلبت فيه من رزايا . وتدفقت عفواً بالدعوات تصبها على عبدالله بن علي : ربي ، اقتله بسلاحه . انتقم منه لليتيم والارملة والثكول . امنع عنه الهناء كما منعته عن الرجيم اللعين !

وما نسيت ميمونة . فهزّ فيها التذكر وهنها ودفعها الى الكوخ تشاهد ما حلّ بالفتاة المحتضرة . ودنت منها تلامس جبينها الشائعة فيه نقعة الموت واللهفة في سحنتها والدمعة في ناظريها . وفتحت ميمونة عينيها وتبسمت وقد ابصرت زينب وجال في شفتيها السؤال عن ميسور . فلم تشأ زينب اطلاعها على الحقيقة الممضة واكتفت بان تجيب : لحق بعبدالرحمن !

فسرّ ابنة عبدالله بن علي ان يلحق عميد الخصيان في دار ابيها بمن جادت عليه بايامها كي يسلم وقالت بصوت واهٍ تنسلّ منه الحياة : زينب ، وانت الحقي بعبدالرحمن . فهو بحاجة اليك . إلحقي به وابلغيه اني قضيت فداه .

انت به جديرة وهو بك حقيق . اني اموت ، عيشا بهناء !

واذابت كلماتها انفاسها . فلطمت زينب خديها واخذت في الصياح : واميمونتاه !

وروّعتها الوحشة فودت لو تلقى الموت فتتعادل بذات التضحية المنيفة . لماذا لم يبطش بها عبدالله بن علي كما بطش بابنته وهو يحصد الارواح كأنه يطلق سنانه في الهشيم اليبيس ؟

وابت ان تبيح للوحش وللطير جثمان ميمونة . فحبت الى الرمال تحفر فيها بنصلة السيف المحطم بيد ابن عمها يحيى قبر المستشهدة على وفاء ونبل . وانكرت ان تكون ميمونة من صلب عبدالله بن علي . فان ذاك الباغي لا ينجب هذا السماح . واعياها نبش الرمل فوهت يمينها وتولاها الغشيان . واستفاقت من اغمائها على وقع حوافر . فانتفضت بارتياع وساءلت نفسها هل : عاد عبدالله ؟

وخشيت شر الركب المقبل . وانتظرت الموت . لا عليه اذا اختطفها . ولكن لا . هذا ليس وجه عبدالله بن علي المقبل في النظيرة . هذا وجه حبيب اليها اذا صدقت عيناها . وجه ابيها سليمان بن هشام . أيكون الرجل اباها ؟... ومن قاده اليها في الموقف الوعر ؟

وما اخطأت باصرتاها . هذا ابوها سليمان . فتمتمت : ربي ، جلّ جلالك ، ما ارحمك في تفريج الكروب !

وزاد الفرح في عيائها كما هدّ الترح عزيمتها . ووقف حولها الركب خاشعاً مشدوهاً . وترجل ابوها يضمها الى صدره وهو يصيح ببهجة تمازجها اللوعة : زينب ، زينب ابنتي !

فالتفتت اليه بعينين ذابلتين وملكت الهمة على الغمغمة بفيض من الاستبشار : جئت في الاوان !

قال متلهفاً : أوّلي الصحراء في البحث عنكِ . ولولا عبدالله بن علي لضللت عن مثواكِ . فما قذف بكِ الى هذه المعامي ؟

فاسندت رأسها الى صدره وجاهدت في القول : طفرت اليها لانقاذ عبدالرحمن ابن اخيك !

فاتسعت عيناه حيرة واستفهم : لانقاذ عبدالرحمن ؟

— لهذا توغلت في متنائي الفيافي . ولقد نجا ابن عمي . ولكن عبدالله بن علي فاجأنا وقتل ابنته ميمونة ، واخوي عبدالرحمن ، وعميد خصيانه ميسوراً . وانا احفرهنا قبر شهيدة الحفاظ . فاني للجانية عليها ولولاي لما ارتادت هذه الانحاء !

فسادت الرهبة الجميع . أيقتل عبدالله بن علي ابنته ؟ ... يا للغلاظة المفرطة في الغلواء !... قالت زينب : وجثة الفتاة في الكوخ . غير اني أبيت على الطير والوحش نهشها فاندفعت احفر لها قبرها بيدي لئلا تشنع في طلالتها المناسر والانياب !

واشارت الى الكوخ الملتفّ بالقصب . فجزع سليمان بن هشام وهو يقف على جليّ النبأ . وهاله ان يملك الوالد الجرأة على قتل ولده . وجالت في خاطره اقوال عبدالله بن علي وهو يرشده الى زينب . قال عبدالله : سليمان ، ابنتك على الضفاف شاردة باكية . وقد تكون تشكو وجعاً في قلبها . عبثاً تعبت في ان اردّها اليك ، فكأنها تشتهي الفرار . ادركها قبل ان تغيب في الداهية الدهماء !

ورنت غنّة اللؤم في مسمع سليمان . عبدالله يعيّره شرود زينب. على انه وهو يبحث عن الفتاة ، ولا يطيق فيها نوى ، استوضح : في اي مكان من الضفاف يا عبدالله ؟

فاجاب متمادياً في الذبح : بجانب كوخ قد يكون لها فيه رفاق !

فعصر قلب سليمان باستذئاب كلماته واساريره. فكأنه يتهم زينب بالغيّ والضلة. وامتدت يمينه باشارة تائهة الى الكوخ وهو يبتسم ابتسامة هازئة امعاناً في ايلام سليمان ، فتنكب القطب الاموي عن المضي في الاستيضاح ودفع رجاله الى حيث دله عبدالله بن علي وهو يتلظى خشية وحنقاً. خشية على ابنته وحنقاً على عبدالله الملحّ في التهشيم والاذلال . وتنفس وقد اهتدى الى زينب . غير ان ما حدثته به ارهف ضغينته على القائد الهاشمي الفاتك بابنته . وشخص الى الكوخ منحني الهامة . ووقف ازاء الجثمان المبسوط في الارض يحيي فيه الاخلاص والاباء معلناً بفارع الاسى والغيظ : هذه الشعلة الحيّرة ليست من تلك الظلمة النكداء !

ودعا رجاله الى متابعة ما تولت ابنته من حفر . وحمل بيديه جثة شهيدة التضحية الى مرقدها الاخير يذكر فيها الله . وهال عليها التراب وهو يتلو آيات ربه : اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين !

وتوسدت ميمونة بطن الرمال وابوها عبدالله بن علي لا يريد ان يعرف من امرها انها كانت تعيش . فقد ماتت لديه منذ ابصرها على الضفاف . الا انه صمم على الانتقام من جميع الامويين وقد فجعه بها اموي تهواه . فلن يبرّ منهم حتى بالاموات الثاوين في رحمة الارماس

ومضى في مطاردة جيوش مروان الى ابواب دمشق يستعدي عليها اخاه صالحاً . وفاجأ العاصمة الاموية واجلى عنها الجعدي وكل من يقيم من الجعدي على بعض صلة. واندلعت فيه حفائظه المهتاجة وهو يجول في دمشق ويذكر ماضيها القريب. هنا جال معاوية، واستأسد يزيد، وتنمّر عبدالملك وهشام ، وماع يزيد بن الوليد. ولاحت له قبورهم فدعا الى نبشها صارخاً بزبانيته: روّعوهم حتى في مطمئن ضرائحهم، فكم روّعونا في هانىء اكنافنا!

وظفر بهيكل هشام فرفعه على صليب في صدر دمشق وهو يرعد: زيد، زيد بن علي، انتقمت لك من ذلك المفاخر باستئصال هامتك والطالع بها على الناس يقضّ مضاجعهم بصلف المستنسر العاتي . عاهدتك على ان اثأر لك من الجلف يا ابن زين العابدين وها اني ابرّ بوعدي . لترقد عظامك آمنة في مثواها . هذا هو اليوم الانور وقد استعدنا به المجد من مغتصبيه . فالدولة العربية هاشمية العرق . السلام على الهاشميين !

واغار على قبر معاوية ويزيد واحرق فيه العظام البالية ونثر رمادها في مهب السوافي. ولم يكن لديه لضريح حرمة ولا شفاعة . ففضّ اختامها جميعاً ومحاها كأن القوم ما كانوا ، بل كأن بوسعه محو التاريخ . وما اكتفى . فلا يزال عبدالرحمن بمأمن من الويل !

وعبدالرحمن حرمه لذيذ النوم . فهدر بهياج ملتاع : أيكرهني المجرم على الفتك بابنتي وينجو مني ؟... هذا منتهى النكراء !

وتعب في الاهتداء الى حيلة ينتقم بها ممن كواه في قلبه . فما يخطو خطوة في الدنيا الاموية حتى يستقصي اخبار الفتى دون ان يظفر بهدية . ومال على فلسطين وفي نفسه من عبدالرحمن كل سخيمة . فلن يرضى بان

يقتل ابنته دون من دفعها الى الهلاكَ

واستقر من فلسطين في الرملة ، على نهر ابي بطرس . وسأل عن بقايا الامويين فقيل له انهم لا يزالون كثرة وفي جوانحهم حنين الى المسالمة والتكفير. فهتف ينضو عنه اوتاره الغُلف ويكشف فيه عن نزعة من سماح: لهم عفوي . ليقبلوا . ما انا بالجلف الارعن . فمن مدّ اليّ يد الاسترحام نعم مني بوارف الصفح والحلم !

وعاد الى ندائه : من استسلم فهو آمن ، ومن ابى فله النار !

فاطلّ منهم ثلاثة وثمانون امويًا هم بُقيا سلالة السؤدد في قريش مثلهم في صدر الاسلام. هؤلاء ابناء اعمام عبدالله بن علي الناظر اليهم ببسمة تصارع الريبة وتجاهد في التماسك لستر النيات. فصافحهم واحداً واحداً يبدي لهم سخيّ المودة ويرحب بكرام الانسباء. هوس السياسة لا يقوى، مهما اشتدت رعونته، على حجب آصرة القربى ووحدة الدم. واقلقه ألا يجد فيهم عبدالرحمن. قال بوازن البشاشة: مرحباً بابناء عمي . ما كنت اريدها فينا ناراً آكلة، الا ان الشهوات دفعت جهّالنا، سامحهم الله، الى تحطيم راسخ اللحمة بيننا. وانكم لابرياء من الفعلة وقد لبستم ما خيط لكم. فارتعوا في أمني وعفوي. فانتم في انيس الحمى. يشهد الله ان مكانكم مني لفي الحفيّ من صميم الضلوع. ولكني لا اهتدي فيكم الى عبدالرحمن بن معاوية، فاين عبدالرحمن وانا منه بمنزلة الاب الرؤوف من الابن الحبيب !

فلم يظهر الفتى . فتململ عبدالله وقال في نفسه : أأظفر بالجميع دونه واياه أريد ؟

وشبح عبد الرحمن لا يفتأ يحرق كبد والد ميمونة ومضجعه. وآلمه ان

يخدمه التوفيق في مطالبه جمعاء وان يبخل عليه بالمطلب الاثير. وانطوى على مضض خدش فيه نفخة الظفر الابلج. وامر بان تنصب الموائد على ضفاف النهر تكريماً للانسباء المهتدين. فاهلاً ومرحباً بابناء الاعمام الاصفياء المهج، الاعزاء الجباه!... ودعاهم الى الطعام في حلقات منظمة. لا عليهم اذا لاذوا بحلمه الوسيع. وتصنع البشر فلاطفهم وسايرهم حتى اطمأنوا وايقنوا ببسمة النعمة بعد كالح الجهمة. فاذا نأى عنهم السلطان فلن تطير الارواح. واكلوا وهم لا يكادون يصدقون ان في الهاشميين قلباً يخفق حيالهم بخلجة من ندى. وفيما نفوسهم تخلع عنها القلق والوحشة، وايديهم تغوص على الاطعمة فتتلذذ بها الحلوق وتسيل هنيئاً في الغلاصم، اذا جند عبدالله بن علي يضرب عليهم نطاقاً من الشفار المسنونة، واذا جماعات من هذا الجند تنقض عليهم مخترطة السيوف والاسنّة. فشدهوا وتفتحت افواههم على ارتياع، وجمدت ايديهم في الصحاف او ممسكة على اللقمة، وعاندت المبالع في الالتهام. أيعروهم الخطر حيث يتعللون بالسلام؟... ألا اين ذمام عبدالله بن علي فيما لوّح به لهم من ميثاق؟... أتكون العهود اخاديع؟ ... وملك بعضهم القدرة على الصياح الملهوف: امانك يا عبدالله!

فحزّت قهقهته في عظامهم وعلت صفرة الهول وجوههم وتعالت فيهم دمدمة الرعب. فتمادت في عبدالله قهقهته الحاطمة، الذابحة، كأنه يريد ان يقتلهم مرتين، بشماتته وبحسامه. وافاض بالقول الساخر، الناحر: وماذا ترتجون يا بني أمي ممن طوى السنوات على السنوات يرقب ان يمتعه الله بيوم يبيدكم فيه على بكرة ابيكم؟ ... ألا ودعوا دنياكم وتوبوا الى ربكم واذكروا فاجعة كربلاء فينا. فتاكم يزيد بن معاوية بطش منا بالحسين

ابن علي وبرهطه الاخيار حتى اناف منا على المائة والخمسين. وهذه أُخت كربلاء ان كنتم تذكرون. فالهاشميون ذوو صبر طويل الامد يا ابناء اعمامي، الا انهم يتحينون للانتقام النهزة الموفورة . فلا يدهشكم منا الجبروت بعد اكراهكم ايانا على الاستكانة المهينة والاستخذاء الذليل !

فارتفعت صيحات الذعر ، وجحظت العيون ، وارتجفت النفوس والاجساد كأن البرداء تهزها جميعاً . وتصاعدت الصرخات من حناجر تغص بالاستجارة واللقمة : أخدعة يا عبدالله ؟... اين برّك بيمينك ؟

فصاح بجنده مزمجراً : اقتلوهم . اقتلوهم كالنعاج، بل كالذئاب. حرام ان نعدل النعاج البريئة بهم وقد عاشوا فينا ذئاباً ناهشة . اقتلوا ولا ترفقوا . ولتطب نفوس الهاشميين المستشهدين بايدي هؤلاء الكفّار في سبيل الله . لتقرّ عين علي بن ابي طالب ، وعيون الحسن والحسين وزيد ويحيى وابرهيم الامام ضحايا العدوان والطغيان الامويين. يجب ان ننتقم من الجميع للجميع. اقتلوهم. لا تبقوا فيهم على رمق. هؤلاء هم اعداء الله الانكاس!

بيد انه مع رضاه عن الدم المسفوك ، وعن اختناق صيحات الرعب والهول في الصدور المطعونة بالسيوف والرماح ، لم يكن هادىء النفس وعبدالرحمن بن معاوية في نجوة منه . آه لو يدري اين الفتى !... وتململ . فالامويون باجمعهم تساقطوا تحت شفرة السيف الهاشمي ما عدا مروان وسليمان وعبدالرحمن . وسليمان هالك، ومروان في طريق الهلكة، ولكن من يضمن اهلاك عبدالرحمن ؟

وشاء عبدالله ان يخلع عنه قلقه وان يتلذذ بصره وسمعه بالمجزرة المتعالي فيها فحيح القتلة والقتلى وقد اختلطت الاستغاثة بالسبة واللعنة : عفوك يا عبدالله!...

لك الويل يا من حنث في اليمين ونكث الميثاق!... لا عرفت ايها الغادر يوماً يشرق على نضرة!... قتلك الله بخدعة اوديتنا بها يا حليف النار !

وتقع هذه الصيحات في اذنيه فيطرب ويرعد: اقتلوهم ولتغرق جثثهم في الدم . كان لهم زمن سادوا فيه وهذا زمننا . انها لنهاية الضالين !

ورضيت نفسه والرؤوس تتناثر ازاءه ، والامعاء تندلع ، والصدور تتفتق عن دفقات سخية من فائر الدم. فبدا في نشوة ميلاء ترنح بها عطفاه كأنه المخمور. هذه اسعد ساعة في العمر وكم تلفتت صبوته الى وقفة ناجعة تمحو الذلة من النواصي والالم من الارواح

وما بالى صيحات الشتم ولا نظرات الحقد المسددة اليه . اقسم على ابادة الامويين وها هو يبيدهم بلذة المنتقم المشبوب الرجاء، القرير الضغن. ربما اوجعه سحق نملة اكثر منه هذا المضطرب من الاشلاء المخضب المياه المنسكب فيها بالحمرة القانية كأن نهر ابي بطرس مسيل حشاشات واكباد

وظل عبدالله على صيحته: اقتلوهم واشفوا منهم حزازات قلبي . منذ الساعة بدأت اعيش . اقتلوهم . انا اسعد الناس !

ولما سقط آخر اموي في مستنقع النجيع انقطع في عبدالله الوتر المرنّ وهو يودّ لو تدوم المجزرة اياماً واسابيع، بل شهوراً وسنين ليزداد تحسساً بها. فلا ينسل لها خيط ولا يقف بها حد. على انه لم يعدم السبيل الى اطالة نشوة فهتف برجاله: مدّوا لي على هذه الجثث بساطاً اجلس عليه وازدرد طعامي . ففي الاستواء على اشلاء الخصوم وهي تختلج بارماقها ما يزيد في شهوتي الى الطيبات !

ومُدّ البساط على الجثث ولم يكن الروح قد طار عن معظمها. وجيء

للقائد الهاشمي بالطعام فجلس يلتهم الزاد التهام الجشع كأنه طوى ليلة على ليلة في جوع عربيد . واتسعت غبطته حتى بات منها في غمرة . فما عرف صنواً لهذا الحبور الاريض . ويتراقص به البساط ، على ركام الجثث المصطرعة وفضالات الانفاس المتطايرة ، فيختمر بمعسول الانتفاضة كأنه يمضغ الافاويه . ويثب احياناً من مجثمه ويرقص على الجوارح المهشمة مثله في عرس هَزِج وهو يردد بداً : هذه أخت كربلاء . انتقم الهاشميون !

ولم تكن تعلو الكمدة اساريره الا وهو يذكر عبدالرحمن . أيخيب في هدم من حرمه أسنى زهرة في اضمامة الانس ؟ . . . كان بحاجة الى ميمونة ابنته لتصفو له دنياه فلا تدهمه شائبة ، ولكن ميمونة اخرجها عن حلمها فتى موفق السعي فوهبت له حتى علالة الروح . وعبس عبدالله بن علي . فجيعته بريحانته تكاد تطغى على نشوته باخت كربلاء

وكتب الى ابي العباس يبلغه ما اصاب اعداء الله من العقاب المبيد . قال : حلقتهم حلق الموسى لا أبقي منهم على ذي حياة . ان تكن تعرف أموياً يتنفس فاخطف حياته ودمه في عنقي . انتقمنا لشهدائنا الابرار !

واشار الى سليمان بن هشام دون ان يسمّيه يغري بدمه ابا العباس . فالانتقام السانح يجب ان يبلغ اقصى الامد . ومشى عبدالله متبختراً في رجاله آمراً : والآن لنلحق بمروان الحمار !

ومروان كان قد اجتاز فلسطين متراجعاً الى مصر . ففيها المجال الرحيب لخلاصه واتقاء صدمات اعدائه . وطارده الهاشميون يريدون موته . فلا خلافة فيهم والخليفة ناعم بالحياة !

وفزع مروان في مصر الى بلدة بوصير على ضفاف النيل . فاطبقت

عليه الرايات السود واجتثت رأسه بواتر بني هاشم يدفعها صالح بن علي الى الاحتزاز. وما انتفض نعي مروان في مسامع من في الشام والعراق حتى نودي بابي العباس خليفة في المسلمين. وكانت السنة المائة والثانية والثلاثين للهجرة . غير ان عبدالله بن علي ظل لا يكتفي . فاذا هلك مروان فهنالك سليمان وعبدالرحمن، والاثنان يجب نسفهما لخلوص الجو من كل لهاث أموي كريه. وسليمان يقيم في الكوفة، بجانب ابي العباس صديقه ونجيّه، والى الكوفة شخص عبدالله . فلا يبرح يذكر ان له عند سليمان وتراً مع كل ما انتقم به من القطب الاموي وقد حرمه الرجاوة واقلق فيه التيه والامان

وعبدالله يعرف في ابي العباس ، ابن اخيه، شغفاً بالشعر وتأثراً ببليغ البيان. فما انقض على الكوفة حتى نادى اليه سُدَيفاً الشاعر يقول: سديف، هذا يومك. واني لمستعين بك فيه. ادخل على ابي العباس وانشده في الامويين ابياتاً من الشعر تستأصل فلولهم وحثالاتهم فلا يطلع الصبح على من يهنأ منهم بالبقاء . هلا تفعل وجائزتك عندي الف دينار ؟

وسُدَيْف من عبدة الدرهم. فسال لعابه للعطية وقال بوقدة الجشع: روحي فدى سيدي ، ما انا بمن يتردد في امتلاك رضاه !

فقال عبدالله ببسمة الاغتباط : ساكون غداً في حضرة العباس ابن اخي يا سديف ، فاستأذن عليه وانشده اخبث شعر في أشأم قوم !

وخدم الحظ عبدالله . فما ان مثل بين يدي ابي العباس ، يسلم عليه بالخلافة وينحني باجلال ، حتى ارتفعت الصيحات بباب الخليفة بالتكبير . فاطلّ ابو العباس يقول : ماذا ؟

فاعلن حاجبه : بريد مصر يا امير المؤمنين !

ولكن بريد مصر لا يفرض هذا الهتاف الطروب . واذا ثلاثة من الفرسان الطوال القامة ، العراض المناكب ، الضخام الهام ، يقبلون على الخليفة ويقبّلون الارض بين يديه ، وتنطلق شفاههم بالتحية باعتزاز من اجاد الصنيع وفاز بالجدوى : السلام على امير المؤمنين !

فقرأ ابو العباس في وجوههم خطورة ما سوف يعلنون . وخطا اكبرهم شأناً الى الخليفة العباسي الاول وهو يقول بفخامة في النبرة تضارع مستطيل العجب : نحن رسل صالح بن علي الى امير المؤمنين . وقائدنا المظفر يعالن الخليفة الجليل ، زاد الله في رفعته وبقائه ، ان قضي على الامويين كبيرهم وصغيرهم . فلم يبق منهم في وادي النيل من تخفق فيه روح . وهذا رأس مروان ينبذه اليك . وها هو البرد والقضيب والمخصر ، شعار الخلافة ، بين يدي امير المؤمنين . دفنها مروان في الارض لئلا تنتهي الى الهاشميين فارشدنا اليها عبدٌ من عبدانه . ليهنأ مولاي بالخلافة وقد اقبلت اليه تجرر اذيالها وتحتمي منه بحصن حصين !

وتناول من رفيقيه رزمتين . فافتضّ الاولى واذا الغلاف ينجلي عن البرد والقضيب والمخصر فتقلدها ابو العباس واذاع في جلسائه : الحمد لله رب العالمين وقد اعاد الينا حقنا كاملاً لا حيف فيه . اليوم تهنأ بقايا الاجداد في اضرحتها ، ويطمئن العدل في حرزه ، وترتاح ضمائر شهدائنا مما تتقلب فيه من ضنى وغلّ . فالخلافة استوت على ركنها الاركن . ليقرّ عيناً حفدة النبيّ !

فعلت اصوات التأييد حتى كاد المكان يميد . ورجّعت الكوفة صيحات الاستبشار تشاطر الخليفة العباسي الاول فرحته وتدعو له بالعزة واليمن .

ومال الرسول على الرزمة الاخرى ينضو عنها غشاوتها واذا هي تتكشف عن رأس مروان. فنتأت العيون في المحاجر برعدة خاطفة، ثم ببشر مستفيض. وجالت الابصار في الرأس المقطوع . هذا هو مروان الجعدي بلحيته وشاربيه وجبينه ، قاتل ابرهيم الامام اخي ابي العباس . وانفرجت الصدور عن صيحات الابتهاج. وسجد ابو العباس فاطال وقال : الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك. الحمد لله الذي اظفرني بك واظهرني عليك . ما أبالي متى طرقني الموت . قد قتلت بالحسين وبني ابيه من بني أمية اربعمائة . واحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي. وقتلت مروان باخي ابرهيم

لو يشربون دمي لم يَروِ شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني !

وقبض عبدالله بن علي على الرأس من شعره ووثب به الى شرفة المكان يعرضه على الحشد الحفيل المكتظة به الساحة وهو يجهر بصلف وتيه: ايها الناس ، يأبى الله الا ان يقتل الظالم بسلاحه. استضعفنا الامويون فاعملوا فينا السيف حتى كادوا يطمسون منا جرثومة الوجود. ولكن الحق اغاثنا عليهم فطحناهم وذررنا رمادهم في الفلوات نهباً لمتناوح الريح. وهذا رأس مروان الجعدي يشهد على استئصالنا اياهم. فالخلافة هاشمية والسيف هاشمي فاستعبروا وعوا.. امير المؤمنين ابو العباس يقرئكم السلام !

وهز الرأس بيمينه فماج الحشد بصيحة : الله اكبر ، عاش ابو العباس الخليفة الميمون !

واستطال عبدالله بن علي في وقفته وقد اشتهاها منذ ما رأى في الرصافة رأس زيد بن علي معروضاً في شرفة القصر وقد تدلى من قبضة هشام. وأعيدت

الصيحة واستعيدت وعبدالله في زئير وسعير .هذا هو المنشود يدركه بنو هاشم بعد طول استبسال !

وانكفأ الى الايوان يدعو ابا العباس الى الظهور بشعار الخلافة في الجموع المنتشية بسناء الفوز . فبدا ابو العباس بابهته وجلاله يحيي الحفل. فتلاطمت الرؤوس لفرط ترنحها بمرآه ونقشت هتافها العالي في حواني الفلك . قال ابو العباس يخطب فيها : هذه مشيئة الله . الظلم لا يدوم وهو الوشيك الانهيار . ايها القوم ، ساسوسكم بالعدل ، واعاملكم بالحسنى، وادفع عنكم العدوان . فمن نزلت في قلوبهم مودتنا فاولئك هم المهتدون . ومن لجّوا في الغواية والعناد فليتعظوا بما كان منا في اعدائنا المهزومين . الحمد لله الذي اظفرنا بهم واظهرنا عليهم !

وتجاوب الهتاف في مسمع سليمان بن هشام ،والد زينب ،فاقبل يستوضح . وشق الجموع الى الايوان فوقف له كل من في المجلس حتى عبدالله بن علي الحقود وابو مسلم مضرم النار . وادناه منه ابو العباس فاجلسه عن يمينه . واشار الى رأس مروان الجاثم في صدر المكان على طبق من فضة وقال بلهجة لا ينتفي منها اللين الطامع في المداراة :هذا رأس عدوك يا سليمان، نبذه الينا صالح بن علي، عمي، وقد اقتطعه فور القبض على مروان.وهذه هي بردة الخلافة ومخصرتها وقضيبها تهادت الينا من مصر مع الرأس المبتور. مروان بات في ذمة الله يا ابن عمي وقد تولينا الامر في البسطة العربية بالاعتماد على الغفور الرحيم !

فعلت الصفرة وجه سليمان . تحققت فيه كلمة فكلمة نبؤة ابن اخيه عبدالرحمن وابنته زينب. فالهاشميون وقد سادوا رذلوه. غير انه في مقام المكره

فقال: زاد الله في ايام امير المؤمنين ووطد دعائم الدولة الطالعة. بلغ بنو قومنا من المنى ما عقدوا عليه الامل. وعليهم ان يتعظوا بمصير من هوى ويجيدوا المسير في رضا الله ورسوله وطاعة خليفة الرسول. وليس أحق من ابي العباس بامتلاك الامر في العهد المشرق، كتبت له القدرة دوام التوفيق وسعة المجد!

واصغى عبدالله بن علي بقطوب اساريره. فما اطمأن الى كلمات سليمان وقد تراءت له تنبض بالمكر. فما يحول دون انتفاض سليمان على ابي العباس شأنه في مروان؟... وهتف عبدالله في نفسه بلجاجة: اين سديف؟

هذا اوان الشاعر الخبيث. وما ابطأ سديف. ها هو يطلّ كالثعلب ويقف بين يدي ابي العباس منشداً، غامزاً على سليمان:

لا يغرّنْك ما ترى من فعالٍ ان تحت الضلوع داءً دويّا
فارفع السوط واشهر السيف حتى لا ترى فوق ظهرها أُمويا

فارتعش سليمان رعشة الموت وجمجم: قتلتني يا عدو الله!

واطرق ابو العباس لا يطيق كلاماً. هذا دسّ منكر. وردد من حوله البيتين فاحرجوه. قال وهو يغص بكلماته، بل بحروف كلماته: أتغرونني بسليمان ويدي لا تساعدني على الفتك به؟... والله، انكم لكفرة. سليمان صديقي وله علينا الايادي البيض. فاذكروا نضاله في سبيل الهاشميين!

فوجموا. وتنقلت فيهم عينا ابي العباس تستفتيان، بل ترجوان السماح. وأسرّ في اذن سليمان أن انصرف. فلملم السيد الاموي نفسه وتوارى كالطيف. واستطاع ابو العباس الكلام برحابة. فقال يردع المطامع عن غلوائها: أنسفك دمه وهو ذو فضل علينا؟... اذكروا، ففي الذكرى نفعٌ للمؤمنين!

فتكلم الجميع ما عدا اثنين ، عبدالله بن علي وابا مسلم . فقد انتظرا ما سوف يعلن رفاق الجهاد . ورفاق الجهاد اعلنوا : ليمت سليمان . بقاؤه يؤذي. أيأمن منه امير المؤمنين على نفسه والحنين الى الخلافة يدب فيه الى مستوقد الشهوات ؟... السيف، السيف، صدق الشاعر . لا تبق فوق ظهرها أموياً !

فعاد ابو العباس الى اطراقه. واذا به في خشية من سليمان القرم العنيد. فساوره منه ما ساور عبدالله بن علي. قد ينقلب عليه يوماً ويثأر لبني قومه كما انقلب على مروان، ولا سيما بعد خذلانه في الخلافة مطلبه الافضل. وجلجل ابو العباس وقد اعتكرت عيناه : ردّوه اليّ !

غير ان سليمان كان قد وثب الى انصاره يجمعهم وهم بجانب الكوفة على أهبة . فدفع اليه ابو العباس قوة من الجند فظفر بها سليمان. فاردفها ابو العباس بقوة امضى فكان نصيبها من الغنيمة الاياب. فغاظ ابا العباس ان يتوالى الخذلان في رجاله ورمى سليمان بجيش حفيل . فوهنت عزيمة الاموي حيال الكثرة وتفرق عنه جنده فوقع وابنه ايوب في القبضة الهاشمية . ومانع ابو العباس في رؤيتهما مخافة ان يجود عليهما بعفوه وهما يمثلان بين يديه. ونضنض مقوله عجلان، هتوفاً: اصلبوهما على باب الامارة في الكوفة ، عجلوا قبل ان يثوب اليّ حلمي فاهب لهما الحياة !

ولقد عجلوا في صلبهما وكأن غشاوة انزاحت عن باصرتي ابي العباس فتنفس بارتياح . ومرّ عبدالله بن علي بالصليبين ضاحكاً بشماتة تقلقل الدعائم الايّدة وقال بلذة من دانت له الدنيا: والآن يا سليمان، من الظافر منا ، أنحن ام انتم ؟ ... هذه نهاية كتبتها لك بيميني يا ابن عمي . فتجبر

بعد اليوم وهدد ما تشاء . فقد وهبتك تراباً للتراب !

ولكن ما للضحكة في فمه تغيض ، ما به يتشنج بعد انبساط ؟ ... تراءى له ان المصلوب يتكلم ، وان شفتيه تهمهمان : اذا نحن ذهبنا فقد بقي منا من ينتقم لنا منكم . عبد الله (١) ، لا تنس عبدالرحمن !

---

(١) لما كانت هذه السلسلة من القصص العربي تتحرى التاريخ في القصة فقد رأينا لزاماً علينا البيان ان عبدالله بن علي هذا ليس اخا زيد بن علي كما اثبتنا في مستهل الكتاب ، بل هو من بني اعمامه العباسيين. اما عبدالله بن علي اخو زيد فليس له في هذا المقام مجال

الجزء الثاني

في مهب الاعصار

- ١ -

على بساط الرمل المنشور كأنه الابد، وفي خلاء يقسم على ان الكون باجمعه مهمه قفر وما تحسس ذا روح، درج زنجيان تطغى عليهما حلكة العتمة. نهك الهجير اللافح قواهما فارتفعت ارجلهما ببطء، وحرقت الرمال الحامية اقدامهما الحافية فانطبعت في اساريرهما كشرة الملسوع

وتدلى عن جنب كل منهما سيف احدب يتكئان عليه كلما تلاشت فيهما المكنة. وبحثا عن شجرة يردّان عنهما بظلها لهبة الشمس فما ظفرا ببغيتهما وقد انطوت عليهما السماء الغبراء بجفافها، والصحراء الجرداء باكفهرارها، فباتا كأنهما في جوف أتون سقفه من حديد وارضه من نار

بلى، بدا لهما في متناهي الافق سوادٌ يبشر بانفراج الكربة. ولكن الزنجيين حسباه سراباً فلم يطمئنا به الى نجاة. قال اطولهما قامة واعرضهما صدراً وكان يشتم ويلعن: كم اعطاك عبدالله بن علي يا منقذ؟

فاجاب منقذ ورأسه اشبه برأس جرذ الصحراء، وساقاه كساقيْ

جرادة : وددت لو اعفاني من هذه المجازفة وحرمني الدرهم . فاني احس بالموت في كل خطوة . وانت كم كان نصيبك منه يا جابر ؟ ... لا كانت ساعة وقع فيها علينا ناظراه !

فنبر جابر مغتاظاً : نفحني بمائة دينار، ووعدني ببدرة من المال اذا جئته برأس غريمه !

— اذن نحن من عطائه على مساواة ، ولكن أنظفر بعبدالرحمن ؟

وذهب فيهما التعب بالجلد على الكلام . فهما لا يقويان حتى على تحريك الشفاه . ودفعهما الخوف من السقوط في الرمال الى مغالبة الوهن المستشري في عروقهما . وانجلى لاعينهما السواد فاذا بهما حيال واحة بدت لهما في الصحراء المترامية حبّة دكناء

ولم يكن بد من بلوغها لاتقاء الخطر . فاذا قعدت بهما الهمة عن استظلال الفيء وارواء الظمأ فالدائرة تدور عليهما . وستدور عليهما اذا لم يرجعا الى عبدالله بن علي برأس عبدالرحمن بن معاوية . فانذرهما عبدالله بالموت ان هما اخفقا ولوّح لهما بالثواب ان افلحا . وأهون على عبدالله ان يطفىء روحاً من ان يطفىء سراجاً . والزنجيان من الامر على جليّ بيان . فلا عودة الا ورأس عبدالرحمن بن معاوية يحل محل زادهما في الجراب . واقتربا من الواحة والعياء يمعن في تقصير خطوهما . والتوَتْ ساقا منقذ وارتجف فترا كم على الرمال المحرقة يحاول الصياح ولهاثه يأباه عليه . وبعد مجاهدة استطاع ان يجمجم : ادركني يا جابر ، اكاد اموت !

ولكن جابراً مع عرض منكبيه ، واكتناز ألواحه ، بحاجة الى من يسعفه في مشيته وقد هدّه الظمأ وتعبت به قدماه . اما ورفيق الغزوة

يتداعى فشق عليه ان يتردد في اقالة العثرة وهو يذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. فتقهقر الى منقذ وجاد ببقوى من همة مفلولة لاغاثة الرفيق الكليل. فرفعه عن الارض والقاه الى ظهره وهو يقول: لا بأس عليك ما دمت اقوى على حملك. فاما ان نعيش معاً او نموت معاً. فلن انجو وتهلك وبي فضالة من عزم!

واتكأ على سيفه بكل ما صان فيه الوهن من متصدع الصلابة. وشدّ في الرمال رجليه وهدفه الواحة وقد بدت لعينيه في اخضرارها ومواهتها. هذه محجة الخلاص. ولكن هل يصل اليها بحمله الثقيل؟... وامعن في كيّه الحرّ اللاهب فدهمه العناء. انه لعاجز. قال في شبه حشرجة وقد احس بانحطاطه وبميعانه حتى امسى قطرات تسيل حرّاً وعياء: منقذ، افلتت كل قوة مني. ارائي اغور في الارض!

وما اعلن قولته حتى هوى على الرمل ومنقذ لا يبرح ممسكاً بكتفيه وهو يجمجم بنواح: أنموت هنا يا جابر؟... أما اخترت لنا مكاناً ارحم نهلك فيه؟

فتعالى من صدر الجبار الصريع انين يبين: لنمت فدى عبدالله بن علي يا صاحبي. هذه الصحراء ستكون لنا كفناً وضريحاً. ألا انصف الله ضحايا العدوان!

واغمض عينيه. اصابه غشيان ذهب بصوابه. وشاء منقذ الاستغاثة بمن قد تضمهم الصحراء او الواحة فاسقط في يده وناله من الاغماء نصيب رفيقه المطروح بجانبه لا يبدي ولا يعيد. فاضطجعا على الرمال المحرقة جنباً الى جنب، يتقليان معاً بلظى الشمس ووهج الرمل

والواحة لم تكن مهجورة كما بدا منها . فما سقط العبدان في دربها حتى علا في صدرها صوت يهتف حزوماً : إدركا الزنجيين !

فامتثل للامر رجلان . وظل بجانب الماء يتفيأ ظلال بواسق النخيل فتى انتشر في قسماته النبل واطلت امائر السيادة من مبسمه وعينيه . بصر بالعبدين يصارعان الرمل والقيظ فيما يدرجان الى الواحة . وبصر بهما يهويان حسيرين فاشفق عليهما ودعا رفيقيه الى نجدتهما . وما رفيقاه سوى خادميه . هم منذ ساعات في الفيء الرحيم يتذوقون الدعة والسكون بعدما شوتهم جحيم الفلوات المتوهجة الجمر .

وبلغ الخادمان مثوى الزنجيين المستويين على الرمل في فاجع انهيار يتأملانهما ويلمسان صدريهما كأنهما يجسان منهما مكمن الانفاس . وقال بعضهما لبعض : لا يزالان يعيشان ، فلنحملهما الى الواحة . حرام ان نهبهما للموت والانقاذ مستطاع !

وحمل كل منهما زنجياً وانطلقا الى عين الماء . واسرع الى لقائهما السيد المتوسد العشب الاخضر يعينهما على اثقالهما وهو يستفهم : أيعيشان ؟

فاجابا والتعب يدفع انفاسهما لهثة تلو لهثة ويذيب قواهما بما يتصبب من عروقهما من نزف سخيّ : لا يبرح فيهما نضاضة من حياة !

فاعلن آمراً : رشّا على وجهيهما الماء ، عجّلا !

واسعفهما في القاء حملهما . ووثب الى عين الماء يملأ راحتيه بالسائل المحيي وينفضه على الوجهين المعقود عليهما الاغماء . فاختلج الزنجيان وما لبثا ان تململا وفتحا اعينهما ، ثم عادا يطبقانها كأنهما يتوهمان انهما في حلم . فمضى الفتى النبيل في رشهما بالماء وهو يقول : لا تخشيا الموت ، بلغتما ضفة الامان !

فانشقت الاهداب عن النواظر. وتلفّت الزنجيان الى ما حولهما ومن حولهما بدهش وذهول. ماذا يريان ؟... انهما لفي الجنة . وفركا أعينهما لا يصدقان . فان من يريان لبشر مثلهما . واذا جابر ينتفض وينتصب على قدميه بغتة كأنه برىء من كل تقويض ،واذا يده تمتد الى سيفه فيكاد ينتضيه صائحاً برفيقه : منقذ ، انهض ، لا أم لك . ألم تعرف الرجل ؟... هذا من نبغيه ، عبدالرحمن بن معاوية بن هشام !

وجاراه منقذ في الوثبة وقد اعادت اليه المفاجأة الخطرة قواه ، وانقضت يده على مقبض السيف وهو يصيح بالفتى النبيل الحامل اليهما بحفنته رشاش الماء : مكانك ايها الفارّ من وجه القضاء ، انت طلبتنا !

فابتسم عبدالرحمن — وكان هو اياه — كمن لا يبالي . وهجم خادماه سالم وبدر على الزنجيين يمسكان بطوق كل منهما صائحين : ما بكما، قاتلكما الله ، هل جننتما ؟ ... أبمثل هذه الرعونة تشكران من انقذكما من الفناء ؟

ونزعا منهما السيفين. فاصيب الزنجيان باللعثمة . وجلجل سالم غضوباً: ألا ممن تعلمتما البطولة ايها المغواران ؟

ورعد بدر : لنقتلهما جزاء كفرانهما بالجميل !

فصاح بهما عبدالرحمن : حذار ان تفعلا !

ودنا من جابر يقول : أتعرفني يا هذا ؟... اراك تنطوي لي على داعر الحقد !

فاعلن الزنجي بمرارة ونفرة : اعرفك واعرف عمك سليمان بن هشام . انت عبدالرحمن بن معاوية الفتى الاموي الهارب من حكم الابادة !

فاستطلع بلين : وما يدعوك الى قتلي وقد عرفتني ؟ ... هل هضمت

عليك حقاً ؟... هل نالك مني اذى ؟

فاعلن جابر بتعتعة المغلوب: اني احقق فيك امر سيدي عبدالله بن علي. فهو من اغراني بدمك !

– وهل دفعك عبدالله الى الفتك بي ؟

– دفعني ودفع رفيقي ، ووعد كلاً منا ببدرة من المال اذا عدنا اليه برأسك !

فضحك عبدالرحمن وقال : وهل يساوي رأسي بدرتين ؟ ... انه اذاً لثمين . فاليكما به . احتزّاه واحملاه الى عبدالله وانعما بالثروة . ما بالكما لا تقدمان على فصله عن جسدي ؟ ... هلا استأصلتماه ؟

فتولاهما جمود وارتباك حيال فيض السماح. قال عبدالرحمن: وما يكون فيكما اذا لم ترجعا برأسي الى عبدالله ؟

فاجابا معاً مرتاعين : يقتلنا الحقود الجبّار !

فاستوضح عبدالرحمن مداعباً : وهل تكونان على أهبة للموت ؟

فصاح منقذ بحماسة فوّارة وقد راعه هذا الاسراف في الندى : نحن على أهبة له بسيفك لا بسيف عبدالله بن علي ايها الامير !

فضحك الجميع ومنقذ، ذو الرأس الشبيه برأس جرذ الصحراء ، يفيض بمنطقه الجيّاش . وقال عبدالرحمن ببساطة يطفو عليها النبل الاريض: بل انا اخلي سبيلكما. فاذهبا الى حيث شئتما. انتما حران لوجه الله !

فنظر بعضهما الى بعض والحيرة تسدّ عليهما مجال البيان. واعلن عبدالرحمن باريحية الخيّر المعطاء: انصرفا بسلام. لا دهمتكما الغواشي !

فلم يتحركا . ولم يكن من منقذ الا ان تمتم باطراق: أيجدنا عبدالرحمن

ابن معاوية عبئاً عليه اذا ما طلبنا ان نكون له عبدين امينين ؟

فتمادى النبل الاثيل في الندى الفيّاح واذاع بطلاقة ريّا: ألا مرحباً بكما!

ودعاهما الى الجلوس وجاءهما بالطعام وبالماء. وجلس قبالتهما ينظر اليهما في شرههما الى الارتواء والتهام الزاد وهو يضحك . قال : منذ كم تطويان الصحراء ؟

فابان منقذ وهو يكاد يغصّ باللقمة لفرط ما حشا به شدقيه من طعام: منذ فراركَ ايها الامير وانت تعبر نهر الفرات !

– وهل شهدتما مأساة الفرات ؟

– شهدناها وكنا ممن دعوك الى العودة فابيت . الا ان اخاك الصغير رجع مخدوعاً بكاذب الوعد. فيا للقلب البريء كم يجهل كيد الناس !

– وماذا كان منكم في اخي الصغير ، بل ماذا كان منكم في الاخوين، في الكبير والصغير معاً ، هل ابقيتم عليهما ؟

فاطرق الزنجيان . واطراقهما دل عبدالرحمن على فدح الغاشية . قال والرهبة تقصّ كلماته : هلا حدثتماني عما اصابهما ؟

وجال الدمع في عينيه قبل ان يفيضا بالخبر اليقين . أيجهل ما اصاب اخويه وقد اجتذبتهما قبضة عبدالله بن علي الساحقة؟... وتمتم منقذ بصوت لهيف : إنا لله وإنا اليه راجعون يا عبدالرحمن !

فطفرت من صدر الامير الاموي صيحة هالعة رددتها الواحة بنواح وقد هدر: ويحكما ، هل قضي على الاثنين ؟

فاكتفى منقذ وجابر بان ينظرا اليه نظرات أسيفة تشفّ بصمتها عن الجواب الناعي . فضرب عبدالرحمن كفاً بكف معولاً : ما اقسى قلبك

يا ابن علي . فانك للذئب الكفور في ظمأك الى الدم . بالله عليكما ، قصا عليّ كيف قضى الشهيدان الامويان !

فتولى منقذ رواية الخبر . ومنقذ ملسان يجيد تنميق الحديث وصوغ الكلام . قال : سيدي الامير ، لك ان تفتخر باخيك يحيى . لقي الموت والسيف بيمينه . وكاد يبطش بعبدالله بن علي ، الا ان عبدالله من طوال الاعمار !

فجلجلت نبرة حزينة في حنجرة عبدالرحمن واذاع والالم والاعجاب يزدحمان في بيانه المتفجع : ان يحيى لبطل . لو تصدى له عشرة لتساقطوا بين يديه صرعى . ولكن عبدالله بن علي دهمه في جيش . يحيى ، اخي ، ليتني كنت بجانبك أذود عنك واتقي بصدري فتكات الاسنة . واخي الصغير ، الحمل الوديع الطاهر ، كيف نهشه الذئب الخطّاف ؟

فقال منقذ بلوعة الاشفاق : مسكين اخوك الصغير يا عبدالرحمن !

واستلّت كلماته الدموع من المآقي . فبكى الجميع كأنهم يشهدون بانفسهم مصرع الغلام ، وكأن دمه يترقرق في نواظرهم فيغمرهم وينسكب عنهم دفاقاً فيندّي رمل الواحة ويخضبه بحمرة تستصرخ الانصاف . ووجم الخمسة . فلا نأمة ولا حركة . بلى ، كان الدمع افصح لسان . عبدالله ابن علي لم يعفّ عن غلام ليس طويل عهد بمجاوزة الفطام

وهاج في عبدالرحمن حب الاطلاع على المأساة فقال بصوت ابحّ يغصّ بلهجته الكئيبة الغضبى : ألا حدثاني عن الزهرة الآفلة قبل ان تتفتح عنها الاكمام . ان في سماع النبأ على هوله لبعض المؤاساة !

فقال منقذ بصوت بكيّ : انتاشت السيوف الامير الصغير كأنها العقبان

تتهافت على جثة باردة في فلاة . فاطارته شظايا تناثرت في الابعاد يغلّفها الرمل النهيم بكفنه المنشور على الآباد !

فصاح عبدالرحمن وهو يهتز كأن به رعشة من حمّى : أما اشفقت على نضرته ، أما رحمت في البرعم طراوة السن ونعومة الاظفار ؟

ومضى في شهيق متسلسل الاداء انتهى فيه الى القول:عبدالله بن علي، ما عرف البطش الاثيم لك نداً ، ان مأواك النار !

وتذكر ميمونة وزينب فقال: وما كان من عبدالله في ابنته ميمونة، هل نجت من ويل السفّاك ؟

فاجاب منقذ بلوعة صادقة الرعشة : بل هي بليت بما بلي به اخواك . فلم يرحمها ابوها وقد اعمل فيها السنان ، فجادت بروحها فداك !

فنفرت دمعتان سخيتان من عيني عبدالرحمن هطلتا على خديه جمرتين وقّادتين ، وصاح بحرقة لا تعدلها لهفته فيما يتبلغ منعى اخويه : هل قتلها الكافر ؟... هل صوّح فيها طراوة الاهاب وبهجة الفتوّة ؟

فجمجم منقذ كأنه يتحامى بخفوت صوته مضاء الايلام : قتلها لا يشفق فيها على مستضعف الانوثة . فابت عليه نفسه انيكون اباً لفتاة تهيم باموي !

فهتف عبدالرحمن بتمادي النقمة والحقد : قتله الله . ان من يبلغ من العسف هذا الامد لبعيد عن فطرة الانسان . هو من فئة الضواري . لا جادت عليه غمامة بقطرة من حنان. ميمونة، ميمونة ، انا قاتلك. فالرحمة للجاني البريء يا عنوان الكرم والفداء !

واخفى وجهه بيديه يشهق ويبلل خديه وشاربيه بمستفيض دمعه .

واستوضح وهو لا يفتأ ينتفض في بكائه الاسيان : وزينب ابنة عمي ، ما كان منها ، هل اتبعها الفاجر بابنته السمحة ، المغبونة في ابيها الجلف ؟

– بل هي سلمت من اذاه. فما استطاع فيها شراً وابوها سليمان. وناداني وجابراً يدعونا الى ادراكك وقتلك . فاطعنا ونحن لا ندري اين نهتدي اليك. على ان المقادير جمعتنا فكنت بنا رفيقاً. ولن تجد منا غير الاخلاص في الخدمة والصدق في الولاء !

فقال وهو يختلج في زفيره المهتاج : مرحباً بكما ، انتما عندي بامان !

وأحس بحاجة الى الخلوة بنفسه، بعد كل ما وقع في اذنيه من المناعي، فدلف الى مسيل الماء يقتعد العشب الاخضر وعيناه المعتكرتان تشخصان الى حيث لا يدري . لقد تاهتا في محاولك الشجن ومغرورق التذكار

٢

غابت الواحة الخضراء عن مستجلي العيون وغاص الركب في مطاوي الصحراء . فانطلق في ثلاث نياق والشمس العضوض لا تبرح في نقمتها الصاهرة، والرمال من غليانها في متفاقم اللذعة. وارتدف عبدالرحمن خادمه بدراً يجاذبه الحديث . قال : ماذا ترى يا بدر في نزوحنا الى وادي النيل، أنأمن في الرحلة شر الهاشميين وهم يبغونني كأني مطلبهم الاوحد ؟ . . . ربما افنوا جميع الامويين ولم يبق سواي حراً فتعاهدوا على اهلاكي ليخلو لهم الجو من الكدرة !

وعاد يقصّ على بدر كيف درأ عنه الموت على دفعتين، بل على دفعات ثلاث ، فيما يقاتل على ضفاف نهر الزاب ، ثم على ضفاف الفرات وقد اوشك عبدالله بن علي، لولا ابنته ميمونة، ان يصيده. وبلغ فلسطين واذا صيحات الامان تعلو من شفتي عبدالله، فانخدع بها وحبا الى نهر ابي بطرس يلقي امره الى الجزّار . ولكن ثمة من عرفه وصاح به : « الى اين ؟ . . . هل جئت ترتمي في النار ؟ . . . عبدالله بن علي مخاتل . ما لوّح لكم بالعفو الا ليجيد ذبحكم . فالنجاة ، النجاة ! » . قال عبدالرحمن : وايقنت من لهجة المنذر ومن اساريره المتوقد فيها الصدق انه ممن لا يزالون يبطنون لنا الوفاء . فاتقيت الكارثة وانتحيت البوادي. ولكن باي صعيد استقر منها؟ . . . اني لمؤمن بان هذه الربوع تنبو بنا. فالهاشميون يميلون الى اتلافنا.

عبدالله بن علي لن يبقي على روح في جميع هؤلاء اللاجئين منا على جنبات نهر ابي بطرس الى حلم الجلاّد . ودرى بنفاذي الى مكره واتقائي غدره فرماني بهذين الزنجيين للفتك بي. فمن لم يشفق على ابنته لا يشفق على روح. ألا بأي بلد ترى ان نعتصم يا بدر ؟

وبدر اخو تجارب .عاش زمناً في بلاط هشام بن عبدالملك في الرصافة وخبر الناس وكيد الزمان. قال وسنواته تنطق فيه : لن يبسم لنا الدهر في سوى المغرب . هذا ما تنبأ لك به مسلمة عم ابيك . ومسلمة يقرأ في الغد يا عبدالرحمن. وكأني به تمثل المجزرة وهو يتبين في الغيب نهاية الامويين. فتراءت له بحيرة تضطرب بالاشلاء والدماء ما نجا منها غير ساعد اوشك السيف مراراً ان يقطعه . الا انه سلم ولاذ بالفرار . قال مسلمة عم ابيك وكأني الساعة اراه واسمعه : « نجمٌ ينطفىء في المشرق ليتوهج في المغرب ! » . وهذا النجم هو السلالة الاموية ، وذاك الفارّ من مضطرب الدم هو انت . فالى المغرب يا علالة النسل الاموي الكريم !

فاستفهم عبدالرحمن بامل تنبسط فيه الحشية : وهل نبلغ المغرب سالمين؟

فاعلن بدر بيقين الحصيف : انا من المؤمنين بالتنجيم ايها الامير، وارى السلامة مكتوبة لنا . فما نطق بالعبث عم ابيك !

فاطرق عبدالرحمن يسائل نفسه : « وهل يصدق التنجيم؟... أيفوز الامويون بالمغرب وقد تقلص ظلهم عن المشرق ؟ » . والتوى على ضميره يستوضحه الغد فاهابت به خلجات نفسه الى الثقة بآتيه . فملكه النشاط ووطن الهمة هلى الجهاد في استعادة المجد السليب. قال : علينا بالكفاح اذاً وبالثبات يا بدر. فاذا وطئنا ارض مصر نجونا من الخطر واتسع امامنا مجال التوفيق !

فاوضح بدر : ما دام اعداؤنا يجهلون مقرنا فالرحلة مأمونة !

واشار الى الزنجيين يقول : عبدالله بن علي لا يبرح بانتظار هذين . فلينتظر أوبتهما العمر المديد !

وشدد في بعث الرجاء في نفس عبدالرحمن لئلا تفتّ المصاعب في عضد الفتى . وتوالت على الركب الايام الطوال في نهجه الواحد النغم . سماء ورمل ورملٌ وسماء. بلى، كانت تطلّ واحة بعد واحه كاطلالة البدر في الليلة الظلماء

وكلما اعترضت بلدة الطريق الى مصر عرج عليها بدر يستجلي انباء القتال بين الهاشميين والامويين. فاذا مأساة نهر ابي بطرس تملأ روايتها الافواه. بطش عبدالله بن علي بثلاثة وثمانين اموياً هم بقيا بني أُمية السادة البائدين. صدق مسلمة بن عبدالملك في ما تنبأ به . وعاد بدر الى مولاه يقص عليه النبأ المروّع ويقول: صانك الله من الغاشية ايها الامير . ستتم نبوءة عمك بكل حرف فيها !

وبلغ الركب وادي النيل وقد طبعته الصحراء بطابعها النحاسي . فكاد عبدالرحمن وبدر وسالم يشابهون في لونهم منقذاً وجابراً الزنجيين . وابتسم الزنجيان وقد اطلا على مصر . باتا فيها بأمن من حرّ الهاجرة وحرقة الظمأ ، ومن شبح عبدالله بن علي المخيف

والنفوذ العباسي لم يكن قد لفّ مصر بعباءته وكسائه شأنه في خراسان والعراق والشام والحجاز. فما برحت افريقيا في نبوة عن الاستظلال برايته وان تكن جيوش صالح بن علي واثبت الخليفة مروان الجعدي على ضفاف النيل واستأصلت هامته وما برحت ناشرة اعلامها على هذه الضفاف .

فصبا الامراء والولاة الى الانفصال والاستقلال بالحكم. فما دامت الخلافة الاموية قد انهارت فلماذا الخضوع لسيد جديد ؟

وادهش عبدالرحمن بن حبيب الفهري ، امير المغرب ، ان يستأذن عليه نبيل اموي . فهل بقي لهذه السلالة اثر بعدما افناها الهاشميون ؟... وتجهمت اسارير الفهري. ما جاء يفعل النبيل الاموي في صرح يحن ربّه الى امتلاك الناصية؟... غير انه رحب بالضيف وفسح له اليه معلناً بطلاقة مسماح: مرحباً بابن السادة الميامين. ان انت الا نسل قوم اطعمونا خيرهم، واجروا علينا رزقهم ، وقيدونا بفضلهم الجزيل !

فانتفضت في شفتي حفيد هشام كلمات الشكر واقبل كل من في الصرح يصغي الى حديث الفتى الاموي عن ثورة الهاشميين وخيبة مروان . وتمثل الجميع هول الرزيئة وانهيار مجد ما برح منذ دهور منشوراً على امصار العرب. واستمع الى الحديث شيخ ابيض الشعر، طويل اللحية ، يتكىء على عصا سوداء ويحدج الاموي بنظرات حداد كأنه يحاول بها النفاذ الى المطاوي. هذا حكمون اليهودي ، مستشار عبد الرحمن بن حبيب الفهري القابض على زمام مصر وما حولها من ديار المغرب الشاسعة. قال وقد اذاع الفتى الاموي دواهيه: أأنت عبدالرحمن بن معاوية، وجدك هشام، وعمك مسلمة؟

فاجاب الفتى مستأنساً بالاستيضاح الخميل الرّنة : اني لهو !

فقال اليهودي يستعين بالذاكرة على ازاحة الستار عن الماضي البعيد: انا اعرفكم واحداً واحداً وقد تلقيت عن مسلمة ، عم ابيك، معرفة الغيب. والغيب يعلن يا ابن معاوية ان ظلكم تقلص عن المشرق ، فلم يبق غير المغرب تجولون فيه !

فالتفت الجميع الى حكمون الشيخ متعجبين. ماذا يبدي ؟ ... وصاح به الفهري : افصح ، افصح ، لا أم لك !

فاعلن حكمون بتؤدة رجل العلم ، المستوي من فنه على دعامة : هذا الفتى سيعيد الحق المهدور والمجد الهضيم. فما اضاع الامويون في فارس والعراق والشام سيدركونه في الاندلس . باعث المجد هذا هو يا بني أُمي !

فردد اقوال مسلمة استاذه. وهو لو تبين ملامح الفهري فيما يذيع نبؤته لجمدت كلماته في شفتيه. فالفهري كان امير الاندلس ولم ترسخ قدمه فيها. وانه ليضنّ بها ان تفلت منه وما برح يطمع في استعادتها وان تكن شقت عليه عصا الطاعة ونبذت سلطانه. فليس يكفيه المغرب يصول فيه. وارتاع وحكمون اليهودي يوضح طالع الفتى واربدّ جبينه . ولولا ان يقال فيه انه نابي الحلم لوثب على الاموي يفلق هامته ويتبع به اليهودي غراب الشؤم. بيد انه تماسك واضمر لعبدالرحمن بن معاوية الويل . سيفتك به قبل ان ينطلق الى صحراء المغرب. واستطاع ان يصانع ويزدلف اجتهاداً منه في اخفاء نياته. بيد انه لم ينم ليلته لفرط امتعاضه وقلقه. فهو ازاء شرين. خاف ان يقضي على النبيل الاموي وان تعود العترة الاموية الى الانبثاق، ويا لهول الدينونة !... فالايمان بان جميع الامويين انطفأوا وكانوا يملأون الرحاب لم يرسخ في ظن امير المغرب. فكم ظهر منهم هذا الفلتان فقد يبدو سواه ويبني العز الهاوي ويبتر الرؤوس المستذئبة. وخشي ان هو اطلق ضيفه ان يطير الفتى الى الاندلس ويشيد فيها وكره ويحرمه السيطرة عليها. فاعتزم بعد امعان روية استبقاءه في ضيافته ريثما يستجلي منحى المقدور

وهصرت نبؤة حكمون في الفهري لدونة الرجاء . ألا عودة الى الجنة

المفقودة ، فتبيت له الاندلس الزاهرة الفيحاء وقد اقتلعه منها خصومه كما يقتلعون بالكلاّبة المسمار ؟... شهد بعينيه مصرع الخليفة مروان الجعدي في بوصير ومشى الى القائد الهاشمي الظافر صالح بن علي يواليه ويعرض عليه سيفه ، مع كونه صنيعة الامويين . فاثبته صالح في مركب الامارة. ونجم له انه اضحى سيد المغرب والاندلس معاً ، فينشر لواءه على هذا الملك الريان ، المسبطرّ ، ويمسي رب دولة حرة ، منيعة . الا ان مستشاره حكمون اليهودي شوّه عليه صباحة الامل بما تنبأ به وردد من نبؤة سلفت لمسلمة بن عبدالملك. وحنق على حكمون حتى لم يكن يهتدي. وناداه ، وقد قضى ليلة معتكرة لهبى ، يدمدم عليه بفورة من ضغن: يا عبدالسوء ، كيف تجرأت امس على النيل مني ، فوهبت الاندلس للفتى الاموي مستنداً الى علم الغيب وانت تدعي معرفته ؟ ... ألا اطلعني بوضوح على ما ينبئك به هذا العلم . أتبقى لي امارة المغرب بعد اضمحلال الامويين ام تضيع عليّ ؟... اجبني بلا مواربة والا دققت عنقك !

وبدا سعيراً يتلظى . فقال اليهودي وقد هالته الغضبة : خفف عنك يا سيدي الامير !

فزأر: اخفف عني ماذا وانت تهب الممالك ، كأنك ربها ، لهذا وذاك من النفايات ، فماذا ابقيت لي يا ابن اللخناء ؟

وكاد يلطمه . فاعلن حكمون : لا خوف عليك. فالمغرب ملك يمينك ، وسيظل ملك يمينك ، وانت فيه السيد ذو الجلال !

فاستطلع بفحيح الموتور : والاندلس ؟

فاحرجه. وأمضّ الامير سكوت مستشاره فصاح مزبداً: لمن الاندلس

ايها النكس ؟

فتململ اليهودي حيال الاهانة واجاب لا يرهب : لهذا الفتى النازل ضيفاً عليك يا ابن حبيب الفهري !

فزاد في هياجه. وكاد يخترط سيفه يقطع به رأس حكمون المستطيل. وعربد بانقلاب سحنة ينم على شراسة متلاف : لقد نعيته الى الآفاق يا ابن الفاعلة. لن يعيش ابن سادتك وانت تخلع عليه ولاية انا بها شحيح !

فتجاسر حكمون على القول : أتقتل ضيفك وفيك يجول الدم العربي النصيع ؟

– أقتلك واقتله ، وألحق بكما كل من يقف عثرة في سبيلي يا ابن اللئام الرعاديد !

واذا حاجبه يدخل عليه معلناً: بالباب رسول من الكوفة يستأذن على مولاي الامير !

فتولته الحيرة. ألا رسول من هذا المقبل من الكوفة في هذا اليوم الانكد، وما يحمل من جسيم؟... والتفت الى حكمون اليهودي يستعين برشيد حجاه. ولم يكن يجد غنية عن سداد بصيرة الشيخ الآكلة الايام من كبده ومن اطرافه تجبوه التجارب فيما تنكبه بالاسقام . فقال حكمون: لست اراه الا بشيراً بركوب العباسيين السدة، فليفسح له الامير كي نتبين ما صار اليه الامر في المشرق . علينا ان نقف على النبأ الجليّ !

ودخل الرسول يقرأ الفهري السلام ويدنو منه فيلقي بين يديه رسالة مختومة بالشمع وهو يقول : هذا كتاب امير المؤمنين ابي العباس الى امير المغرب عبدالرحمن بن حبيب الفهري . انتدبني مولاي الخليفة ، مدّ

الله عمره ، الى سيدي الامير ، دامت نعمته !

فعاد الفهري يلتفت الى مستشاره اليهودي وكأنه لا يفهم ما ينساب الى سمعه من مقال. وتناول الرسالة بيد ما خلت من بعض رعشة وفضها وقرأ فيها بعينين ناتئتين، خائفتين، كأنه يخشى ان يقرأ امراً بالعزل عن الامارة الطيبة الافاويه، الحضلة المباهج. بيد أن الرسالة تقول: «من ابي العباس، خليفة رسول الله، الى عبدالرحمن بن حبيب الفهري، امير المغرب — اما بعد فالخلافة اضحت عباسية الجذع والحمد لله وقد ركبت مسندها ورائدي الحق، ومبتغاي العدل . فسيروا في رعاية ولايتكم بطاعة الله ورسوله وقد اقررناكم في ما انتم موكلون به من اعباء . وكل ما نشدد فيه عليكم ان تسوسوا القوم بالحسنى ، وان تعتمدوا في تدبير الامور الانصاف . وارجعوا الينا في شؤونكم كافة شأنكم حيال من سلف من الحاكمين . فالدولة القائمة في ظل القدرة يضيمها العدوان ويوغر صدرها العصيان . فكونوا بها بررة وارعوا فيها عهد الله !». فازدادت عينا الفهري اتساعاً وعاد يطالع الرسالة بدهش ووهلة. وألقاها الى مستشاره اليهودي كي ينظر فيها. فقال حكمون برصانته المأثورة: هنيئاً لابي العباس مركبه الوثير . بايعناه ونبايعه بالخلافة وهو بها حقيق !

وغمز بعينيه الفهري. لا محيد عن هذا الجواب الدميث الخميل . وماذا للفهري ان يعترض به على الثورة الناشبة والسيف المصلت ؟ ... فما في المشرق غير انياب حداد وبواتر اصلاد . والحكمة تفرض اتقاء الصولة العاصفة . ودعي الرسول الى الانتظار ريثما يكتب عبدالرحمن الفهري ميثاق الطاعة. وخلا المكان للفهري ومستشاره فحدج امير المغرب اليهودي

الشيخ بنظرة خشيا وجلجل بحذر ينبض به، في كل كلمة من كلماته، صوته الاجشّ، المحموم: أتكون على صواب في ما اعلنت يا حكمون ؟

فاوضح اليهودي : زاد الله في رفعة الامير ، هل لنا ان نزيح عن ميسم المقدور؟... قتل العباسيون على مرأى منا الخليفة بن مروان الجعدي، وقضى علينا قائدهم صالح بن علي بان نخلع عنا سيطرة الامويين وبان نرقب كلمة الثورة الظافرة في الخليفة المكتوب له ركوب السدة، ففعلنا. وهل لنا بعد الموافقة ان نخرج عما نادينا به؟... ان في العصيان الهلكة ايها الامير!

فاطرق عبد الرحمن هنيهة على بعض تفكير. وما لبث ان لاذ برأي مستشاره فهتف وهو يتنهد: اذن فاكتب اننا بايعنا ابا العباس يا حكمون ما دمت ترى النزول على حكم القضاء فرضاً علينا وليس لنا ان نقاوم بجاذيفنا المهازيل صخب الخضمّ . انك لتتجاذبني انى شئت لا أُم لك . ومن العجيب ان اوافقك على شهواتك كأنك قائدي . فرضيت منك القعود عن نصرة مروان الجعدي وهو وليّ نعمتي. وحبوت واياك الى صالح بن علي أُطاطىء الرأس بين يديه. واسمعك الآن تقدر عليّ مبايعة ابي العباس. ألا ما يدهمنا وقد استعاد الامويون الامر ؟ ... هلا اتقيت ما سوف يرتجل الزمن ؟

فافاض حكمون بالقول الرشيد: علينا بالامتثال لعنف التيار اذا طاب لنا الاستقرار باريكة العز . اما الامويون فلا ترجى عودتهم الى سلطانهم الصديع في المشرق وقد انتهت ايامهم فيه!

والفهري على ثقة طفحى بمستشاره وهو الموقن بعلو كعب حكمون في المشورة والنصح . فختم كتاب المبايعة ونادى اليه رسول ابي العباس يعالنه : نحن على دين خليفتنا الميمون النقيبة ولسنا من الدولة الطالعة غير

ريشة في الخوافي . فليبسط ابو العباس جناحيه علينا وليطمئن منا الى الخضوع والتأييد !

ونفح الرسول بجائزة سنية في مقابل ما زفّ اليه من بشرى . فلا بد من المداهنة لاستبقاء جلباب النعمة. فانصرف الرسول وفي شفتيه دفقات من دعاء وشكر. ومال الفهري على مستشاره الشيخ اليهودي يقول وهو يزفر ملياً : والآن يا حكمون، ماذا ترى؟... أتفلت منا الاندلس بعدما ضاع علينا الاستئثار بولاية المغرب ؟

ونضح مقاله باللوعة . وحكمون وهو المفطور على الحفاظ لسادته الامويين لم يكن يرجو هذا الميعان حيال العباسيين ، ولكن عظة الزمن اوحت اليه بالاذعان فانحنى. وهل للرأس مهما علا ان يغالب النصلة الباترة القاهرة؟... وما ندّ عن حكمون الفطين ما يستوضح سيده الامير الفهري. فانه ليبغي الخلاص من مزاحمه على امارة الاندلس. فيظفر بالفتى الاموي بعد خيبته في الانفصال عن المشرق والتنعم بالسلطان المطلق على المغرب الشاسع المرمى، العميم البرّ . قال اليهودي يداور سيده : الامور مرهونة باوقاتها يا مولاي الامير !

فما شفى الجواب المبهم، الابتر، نهمة الامير. قال الفهري بحرد: ان يكن الفتى الاموي حائلًا دون الامنية فلنذلله . ليست سيوفنا قاصرة عنه. ومن يحاسبنا في دمه وهو طلبة الغزاة المنصورين ؟

فظل حكمون اليهودي يناهض الرأي المخضب بالنجيع، وانتفض مقوله بالممانعة الرصينة، المستعينة بالاريحية والشمم لادراك ملتمسها، وقد عاد يعلن بلين يستميح اخضلال الحلم : هذا ضيفك ايها الامير. والعربي حريص على

الضيف . فهل يرضى الفهري ان يقال فيه انه عبث بسجية الآباء والجدود؟

فهتف عبدالرحمن بن حبيب وقد غلت فيه مطامعه ومخاوفه: أيقيم عدوي في صدري واعفو عنه ؟

– وما عليك اذا عفوت ؟ ... اطلقه الى هدفه ، فالموت له بالمرصاد. أيقوى على الفلاح ، وهو وحيد فرد ، حيث اخفق الامير ، وهو جيش في جيش؟

فرعد الفهري وكل ما فيه على لظى : لا تداوني بمراهمك ايها الماكر الرثّ الحفاظ ، فاني لادرى منك بك . بضاعة التدليس لا تروج في سوقي . الاموي يجب الخلاص منه . أتتنبأ له بركوب سدة الاندلس وتدعوني الى اطلاقه اليها ؟... ألا اين ولاؤك لي ايها الغادر الزنيم؟... ساقتلك واقتله. غير اني لن اقتله بيميني حرصاً على ما تلزمني الضيافة ، خزاها الله ، من مسالمة ، بل ساعهد في امره الى سادة اليوم ، وهم سادتي ، ولهم الحكم المبرم عليّ وعليه . فرض الامانة يكرهني على ابلاغهم امره ، والا نالني منهم الاذى حين يعلمون اني اخفيت عنهم جرثومة النكد الوبيل !

وفار كالقدر الجائشة . فقال اليهودي بنبرة رزينة ، خاشعة : يؤلمني ان تزول عني ثقة سيدي بي . فان يكن دمي منجاة له من كيد اعدائه فليسفك دمي وهو في حل منه !

فمضى الفهري في صرخته المتطايرة الوعيد: ما كنت لامسك الساعة عن البطش بك لولا حرمة الشيخوخة فيك وقد اصبحت عندي غير جدير بمخالصتي . ومنذ صباح غد ساوفد الى الهاشمي من يطلعه على مقام الاموي عندي وللمقادير ان تتكشف عن سرائرها !

فنأى حكمون اليهودي عن القصر كئيباً ، مخلوع الجناح . وحاول

النوم في تلك الليلة فما اذنت عيناه في غمض. حبه للامويين هاج فيه فاستعصى عليه الرقاد وعبدالرحمن بن معاوية عرضة للموت. قال بعزمة لا يرتضي عنها نكوصاً : عليّ انقاذه وإن ضحيت بحياتي . فان مسلمة، عم ابيه، استاذي وصاحب فضل جمّ عليّ !

ونهض يرتدي ثيابه ويسلك تواً طريقه الى قصر الفهري. وانسلّ اليه وليس للحرس ان يعارضوه وهو الملحوظ في خاطر الامير. ولم يكن يجهل في اي جناح من القصر يثوي حفيد الامويين ، ولا في اي حجرة من هذا الجناح يقيم وقد ارتادها مراراً في محادثة الفتى. وزحف اليها وطرق الباب وقلبه يخفق شديداً بفارط الوجل. فاستفاق عبدالرحمن بن معاوية واستطلع: من؟

فاجاب اليهودي بصوت تختلج فيه لعثمة الهول: افتح ايها الامير، صديق!

وخشي اذا اعلن اسمه ان يحمل الليل مقاطع هذا الاسم الى اذن الفهري. وقام عبدالرحمن لساعته وفتح باب الحجرة وهو يريد معرفة الصديق المقبل اليه في الغبشة . وحمل بيمينه سراجاً يتبين به الزائر المفاجيء. وعرفه على الفور . هذا حكمون اليهودي . وراعه ان يقبل اليه متبطناً العتمة . وزاد في ارتياعه الانقلاب المطبوع في ملامح الشيخ . فالاضطراب يعول فيها. فدعاه عبدالرحمن الى الدخول على عجل واقفل الباب قائلاً: حكمون، ما جاء بك اليّ الساعة ؟

فاجاب اليهودي وكل ما فيه على رهيب ارتعاش : الموقف خطير يا ابن معاوية. اسرع ورهطك في الرحيل والا دارت عليكم الدائرة. في نية الفهري ان يطرحكم بين انياب صالح بن علي . ولقد جازفت بنفسي كي انقذكم من الويل المتوعد. عليكم بالفرار وساكون رفيقكم في اتقاء المكيدة

والا لقيت ما أحاول صونكم من شره. اسرعوا قبل فوات الاوان !

فهتف عبد الرحمن مدهوشاً : أيبطش الفهري بضيوفه يا حكمون ؟

– المصلحة لا تقيم لحرمة الضيافة وزناً يا ابن معاوية . فالفهري يخشى ان تسلبه امارة الاندلس فنقم عليك واراد لك الموت !

فصعّد النبيل الاموي عينيه في اليهودي الشيخ وقال بعد لأي عسير : وهذا ما بدا لي منه . ولكن نفرّ الى اين ؟

– الى صحراء المغرب . انا ارشدكم الى الطريق !

فغلب على عبد الرحمن التفكير .قال حكمون: ان لم نسرع في الهرب فلا سبيل الى النجاة من صعقة القدر ايها الامير !

فايقن عبد الرحمن وهو يسمع حكمون في نبرة صوته وإلحافه ان اليهودي صادق في نصحه . قال : اذن فلنسرع !

وايقظ خادمه بدراً قائلاً له : حان موعد الرحيل يا بدر ، فالفهري يريد بنا شراً ، لننصرف قبل ان تدهمنا الغاشية . اين رفاقنا تدعوهم الى النفور ؟

واستفاق الخدم جميعاً . وانسلّ الواحد تلو الاخر من القصر يقتفون خطوات عبدالرحمن وحكمون وقد صانتهم الغبشة من عيون الفهري . اشباح تنفلت من الصرح كالنسمات العليلة، فلا تعلو لها ضجة حتى ولا حسّ كأنها تنتعل انفاسها . وجلت عن مقر الفهري تشق اديم الصحراء بحرص من يتقي مستفجل الخطر . ولم يطلع عليها الصباح الا وقد غلفتّهـــا الرمال. وماد الفهري وقد جاءه في مطلع الشمس من يبلغه خلو المكان من الاضياف . فصاح متضعضعاً : واين هم ، هل فرّوا ؟

فاعلن حاجبه هلوعاً : اراهم فرّوا ايها الامير !

فتولته الرعدة وزعق والهول يقيمه ويقعده : واين حرسي عنهم ؟... أأكون في صحراء ، في اموات ؟ ... ومن ابلغهم اني اكيد لهم ؟ . . . من الخائن في قصري ؟... ان هو الا حكمون اليهودي. طيروا الى داره واحملوه اليّ مكبلاً بالاصفاد . سوف يرى الماكر وقد مثلت به كيف يكون التنكيل بالخائنين !

وابى الا ان يشاهد بنفسه مثوى الاموي ورفاقه . فانطلق عاصفة مجتاحة الى الجناح المحبوس عليهم في الصرح واذا المكان قفر. فصرخ الفهري بمن حوله : إلحقوا بهم . ابحثوا عنهم في كل طريق ، في كل زاوية ، في كل منحنى . من المحال ان يكونوا ابتعدوا عنا . اريدهم في الحالين ، موتى او احياء !

وشعر بانه نذل وقد حاول الغدر باضيافه. وخوفه من ان يشيع عنه انه سعى للفتك بمن لاذوا بجاه زاده استمساكاً بالبحث عن الاموي . ثم ما يكون منه حيال صالح بن علي اذا درى صالح بان اموياً اقام في ضيافة الفهري وشيّعه الامان؟...وتعاظمت خشيته. فالملمات تعصف به من كل جانب. وبلغت حرقته مبلغها القاصم لما قيل له ان اليهودي ليس في داره. فاشتعل كالبركان في اقصى مدى من لظاه وصاح وهو يكاد يختنق : احرقوا داره ، احرقوها بمن وما فيها !

بل شدد في ان يضرم بيديه النار . وطفر الى دار اليهودي يشتفي من نقمته . واليهودي لم يكن رب أسرة . فهو يعيش في منزل صغير على انفراد وقد توفرت على خدمته زنجية من الحبشان . وابى الفهري لفرط

قهره الا ان تكون الزنجية كالمنزل طعماً للهيب. فدعا الى شدّ وثاقها واشعل فيها وفي المنزل الوقد. ووقف ينظر الى الضرم الناهش ، ويصغي الى انين الزنجية المحترقة والى خشخشة اللهبة الاكول وفي نفسه بعض العزاء . بل لم تكن نفسه تتعزى وقد افلت منه مزاحمه حاملاً عنه انكد الاثر . فيا لخزيته ورواية البطش بالضيف تذيع في القبائل ويتناقلها الحداة والركبان !

٣

حكمون الشيخ واسع الالمام بمنبسط الصحراء. فقد طوى تلك الفيافي ليّاتٍ على ليّـات في شخوصه الى القبائل السارحة فيها يعالج امرها ، ويحمل اليها رغائب الفهري ، ويحثها على الولاء والاخلاص . فازال الاحن ، وضمّد الجراح ، وذلل العقبات بخبرة يصقلها المرون والدهاء

وساءل نفسه وهو يعود الى ذلك اليمّ الاغبر عن مكان آمن يلوذ به. فخطر له ان يحتمي بقبيلة من البربر معقودة فيها الراية للزعيم «وانسوس» المجدول الساعد ، الرحيب الصدر

ولم يكن « وانسوس » ليطمئن الى الفهري وقد لمس فيه العدوان والحقد . على ان اليهودي الشيخ وفق مراراً بينهما بلين منطقه ، وبعيد حكمته . فانقاد اليه « وانسوس » مأخوذاً بحنكة هذا الوسيط العارف بمواضع الاستمالة ، الدمث البيان . ولولاه لانقلب على الفهري يناوئه ويبادره بالعصيان خالعاً عنه التحكم السليط والدلال المتلاف

وافاض حكمون بما ازمع عليـه فيما يستوضحه عبد الرحمن بن معاوية الحيلة في اتقاء خطر الفهري . قال: سنستعين عليه باخوالك البربر يا عبد الرحمن !

وعبدالرحمن بن معاوية ليس بالعربي الخالص . فهو هجين وأمه راح البربرية . وتنفس عن رجاء وهو يسمع بانه على مقربة من اخواله واستنبأ

مستبشراً : وهل تعرفهم ؟

– واحداً واحداً . كلهم لي خير صديق !

فابتسم عبـد الرحمن وترقرقت في اساريره نضارة الابتهاج وهتف بنشوة : اذن نجونا من كيد اللئيم !

فاعلن حكمون بما بثت الايام في روعه من عظات : نحن في طريق النجاة . واذا درى الشانيء بمطارح عزلتنا فسنجتهـد في الاحتجاب عنه والتوفيق من الله !

وسار برفاقه في هاتيك البطاح المتنائية ، المخيفة في اتساعها وسكينتها ، سيراً ملتوياً يحاول به التضليل . والتفّ بعباءة غبراء بدا بها ، على شيبه الناصع ، ذئباً يطفو عليه روغان ثعلب عتيق . ولم يندم على هجرة الفهري وهو الشديد الايمان بنبوءة مسلمة بن عبد الملك استاذه ، والكاره لهذه الدولة المنبثقة من اطلال سادته البائدين . فاذا ملك الاموي يوماً بلاد الاندلس – وهو مالكها لا محالة – فلا بد ان يرفعه الى مقام مرموق يرتع منه في مجد وارف ، ومورد نهلان

وقبيلة « وانسوس » ليست في المكان القريب وبينهم وبين مقيلها يومان طويلان . وجاهد حكمون كالفتى الماضي العزيمة في شق الرمال . فلن يدركه الفهري وفي قلبه نبضة ، وفي نفسه علالة من حياة

ولم يكن الطريق الى وانسوس آمناً وقـد حفّت به المكاره . فلا واحة ولا ظل . وانتشرت فيه الاسود فزادته رهبة . والخوف من العطش ومن الاسود اقلق اليهودي . فالفهري كان يجهزه بقبيل من الفرسان وبقطارة من الابل في مسيره الى الزعيم البربري . اما الآن فلا إبل ، ولا فرسان . فعليه وعلى رفاقه ان يجتازوا الصحراء على الاقدام وليس

من زاد يقيهم فتكة الجوع ، ولا ماء يرد عنهم حرقة الظمأ
وبزغت الشمس في ذلك المهمه المديد الجناحين تمعن في بسط الحقيقة العضوض. غير ان اليهودي لم يشأ الافضاء بما في نفسه وقد تبين في رفاقه ايثارهم خطر الصحراء على غدر الفهري . فكتم وساوسه وابدى المرح . قال: سوف يعجب الامير بحفاوة القبائل بنا، ولا سيما القبيلة الممتدّ اليها مسيرنا . فان زعيمها ليكره الفهري كرهه للموت الخطيف !
وحمي صدر الرمال والشمس تتأجج في لظاها . واكتوى الركب بالاشعة الحاقدة الناب.قال الفتى الاموي:اخشى ان نلقى في هذه البوادي ما لقينا في تلك ، فما رأيك يا سالم ؟
فابتسم الخادم واجاب بعزم المستبسل في التضحية:لا محيد عن الخطو المكتوب ايها الامير !
واستسلم الجميع الى القدر الغاشم على ايمان بالغد الرحيم . وشعروا بالعطش يلهب حلوقهم دون ان ترتفع لهم شكوى . ومشى في الطليعة منقذ وجابر الزنجيان . واذا بهما يلتفتان الى رفاقهما هاتفين : أتبصرون ؟
واشار منقذ الى الافق البعيد وهو يجلجل : هناك ، هناك !
ولاحت للعين بقعة سوداء مبهمة. فاستفهم عبد الرحمن : ماذا تريان؟
– قافلة من الابل ايها الامير !
فحدق الجميع الى اللطخة الحالكة البادية في منتهى الصحراء ذرةً دهماء في عالم ادكن.وخشي اليهودي ان يكونوا عند مسبعة فائرة، الا انه كتم خشيته . وجلّ ما تلفظ به قوله : لنكن على حذر !
ولم تكن البقعة السوداء لتتحول عن مكانها.فقال حكمون في نفسه:

هذه ليست مسبعة . اراها كميناً من صنع الفهري !

ولكنه لم يلبث ان خلع عنه هذا الرأي وقال: ولماذا لا تكون قافلة ضلّت الطريق ؟

واعلن كلماته بصوت لا يخلو من الجهارة. فقال عبدالرحمن: والصواب في ما تبدي يا حكمون !

وكلما تقدموا ثبت لهم انهم حيال قافلة منهوكة تائهة. وشدّدهم اليهودي في هذا المعتقد مخافة ان يهونوا . واضناهم التعب فبحثوا عن ظل يتفيأون فما اهتـدوا الى سوى اعبئتهم يدفعون بها عنهم القيظ الصهور . فنصب كل منهم عباءته على عصاه واستظلها كالخيمة . الا ان اصواتاً بعيدة ، ضعيفة الوقع ، ماجت في آذانهم تستغيث : الينا ، الينا !

فنظر بعضهم الى بعض مستوضحين وقد ظهر لهم انهم حيال غاشية . قال اليهودي الشيخ : نحن تجاه قوم تميد بهم النكبة !

ووهبت لهم الحمية قوة وبأساً فانطلقوا الى القافلة المستنجدة بهم كأنهم لا يحسون بعياء. ولم يتخلف الزنجيان عن الطليعة وقد ملكا وثبة النعامة. وانطبعت في العيون الابل الجاثمة في مباركها وكأنها اخشاب سُمّرت في الارض . قال منقذ وهو ينساب في الرمال شبه افعى في يوم مستفحل الهجير : ألا يخطر لك في بال يا جابر اننا مسوقان الى حتفنا ؟

ورانت على كلماته السخرية . فقال جابر وكان دون منقذ ذكاءً مع كونه اشد ساعداً : وكيف يا منقذ ؟

— ما يدريك ان الركب ليس من قوم عبدالله بن علي ؟

فشاعت في وجه جابر الكمدة وهو يسمع باسم الهاشمي الهدّام ونبر

مرعوباً : دعني من هذا الويل تنخعني به يا منقذ . والله ، لو تمثلت وجه عبدالله بن علي في الماء لامتنعت شفتاي من نقع غلتي مع كل ما اعاني من مستكلب الظمأ . ان عبدالله لشبح الموت في سمعي وفي بصري . فما ان يعرض طيفه لي حتى اغمض عينيّ مذعوراً ، مرتعد الضمير !

فضحك منقذ عالياً وقال : يا لك من جبان . أتخشاه وبينك وبينه مسافة لا يجتازها في شهرين طويلين ؟

فاجاب بقلق : والله ، انه ليبدو لي في كل مكان . فاتوهمه في الشمس ، وفي الرمل ، وفي الهواء ، حتى في جراب الزاد وفي كسرة الخبز !

فطنّت قهقهة منقذ في الفلاة عابثة ماتعة . وابصرهما رجال القافلة فاندفعوا اليهما يقولون : اقبلتما في الموعد . نحن من الشام وقد تهنا في هذه الرمال ، فهل لكما ان ترشدانا الى الطريق ؟

فاعترى الجمود الزنجيين وهما يسمعان ان ازاءهما ركباً شامياً . لا ريب انهما وقعا في مصيدة عبدالله . وتولاهما الخرس ووقفا ينظران الى مخاطبيهما برهبة صيّاحة . فقال رجال القافلة : ما بكما في جزع ولسنا نبغي بكما شراً ؟ ... كل ما ندعوكما اليه ارشادنا الى المسلك المأمون !

فتماسك منقذ واكره نفسه على القول : واي ناحية تبغون ؟

— مقر الامير الفهري !

— وما يدفعكم اليه ؟

فهز احدهم رأسه واجاب بالم حزين : كيد الايام يا ابن امي . جاءنا ان في ضيافته عبدالرحمن الاموي . أما تعرف عبدالرحمن بن معاوية سليل هشام بن عبدالملك ؟

قال منقذ مستنكراً بحرص وبدهاة: لست اعرفه. فما هي حاجتكم به ؟

فتنهد الشامي وقال متحرقاً : اننا لنحمل اليه ابنة عمه زينب بنت سليمان بن هشام. فتك الهاشميون بابيها وباخيها واحرجوها في عمرها، فقامت الى ابن عمها تبحث عنه وهو يكاد يكون سندها الاوحد. انه لبقيا الدوحة الاموية المستأصلة الجذور !

ومنقذ وجابر يعرفان ما كان من زينب في ميمونة بنت عبدالله بن علي في ساعتها الاخيرة ، بل هما يلمّان بحكاية الفتاتين إلماماً وسيعاً . فاستفهم منقذ متعجباً : أتكون زينب بينكم ؟

فاجاب الشامي: ما كنا لولاها لنتكلف ارتياد الفلوات. لاجلها برحنا الشام نقتفي خطوات الامير عبدالرحمن بن معاوية ونحن من رجال ابيها !

ولم يكن لمنقذ ولجابر ان يرتابا بما يسمعان. ما يعلن الشامي الا صدقاً. والتفتا الى رفاقهما المتباطئين عن المسير مخافة الاحبولة يصيحان بهم : هلموا !... الركب من الاصدقاء !

فقال الشامي : ومن تخاطبان ؟

– رفاقنا . فلا خوف عليكم منا . وقعتم فينا على البغية !

فهتف بفضفاض المرح : ومن انتم؟... أتكونون من رجال الفهري؟

فاعلن منقذ : اين زينب بنت سليمان كي نبلغها من نحن !

وأطلّ عبدالرحمن بن معاوية يتبعه الخادمان سالم وبدر وحكمون اليهودي . فصاح منقذ : هذا ركب ابنة عمك زينب ايها الامير . اودى الهاشميون بابيها وباخيها فانطلقت في اثرك تفزع اليك !

فصاح عبدالرحمن بدهش وقلق: ابنة عمي تبحث عني وقد فتك الهاشميون

بابيها وباخيها ؟... انه لنبأ أليم . ألا اين هي؟... كنت على يقين انهم لن يجلّوا في عمي الاخلاص السمين. وكم حذّرته منهم فما اهتدى برأيي. أيركن المرء الى اعدائه ، الى من لا يرتضونه منهم وهم لا يطيقون ظله ؟... اين زينب ؟... سيروا بي اليها. ان منها في نفسي لاشياء !

ونهد الى مرآها. سيبسط عليها حنانه ويصونها من العوادي . وتعاظم ايمانه بحبها له. فلو لم تكن تهواه هوى صحيحاً لجنحت عن ركوب الفلوات اليه . وتذكر ميمونة وتضحيتها المثلى فاطلق الزفرات الحرار وجمجم : كم ازهق الهاشميون من ارواح لاهتضام حقنا . ما كنت احسب ان في الناس من قُدّت قلوبهم من نصال !

ومشى الى ابنة عمه كما مشت زينب اليه . وصاحت باعلى صوتها وقد وضح لها انه هو: عبدالرحمن ؟... ابن عمي ؟... زينب تعوذ بك . طوت اليك القفار كي تدعوك الى الاخذ بثأر عمك سليمان . بطش به وبابنه الهاشميون يا عبدالرحمن لا يرعون فيها حرمة الولاء ، فوالهفتي على الشمم والمروءة ينهاران !

وتعالى بكاؤها فتماوجت الرمال بالولولة الشجية . ووثب عبدالرحمن الى ابنة عمه يخفف عنها ويجمجم: زينب، اقلقت روعي بالنعي الغاشم . لعمي وابن عمي الله ينتقم لهما ممن اضاعوهما إن تهن يميني في الانتقام. ألا كم اثقلَ الهاشميون عواتقنا بالمحرجات يا ابنة عمي وقد لطخوا ايامنا بالفواجع السخان!

وعُقدت في الصحراء مناحة كأن سليمان بن هشام وابنه ايوب يغوصان في دمها تحت مرمى الانظار . واثارت زينب في عبراتها الحرقة في كل قلب فانحنت الجباه حزناً واستكباراً وفترت الهمم لا تسعف في حركة حتى

ولا في اطلاق الانفاس على رحابة. وشوت لهبة الصحراء الرؤوس الخاشعة تحت وقع النازلة ، فتململ اليهودي الشيخ وقال بكياسة الذكي الفؤاد : رحم الله سليمان يا زينب . كان سيد القوم . واني لاعرفه معرفتي لنفسي وعلى حبكم نشأت ، وفي احضانكم تقلبت. ابو ايوب فارس الهيجاء، وندب المروءة والعطاء. وايوب يطبع على غرار ابيه في الندى والمكرمة. فالهاشميون بتقويضهم اياهما دلوا على هوان في الحمية وكفران بالجميل. الا ان عبدالرحمن سيكفيك عبء الملمة . فلتحبس عينك الرمداء دمعها ولك من التفات ابن عمك اليك خير العزاء !

فزحزحت كلماته عن الصدور بعض برحائها . واستطاعت الرئات ان تبلغ مداها . قال الفتى الاموي : اني لموقن ان عبدالله بن علي مصدر رزيئتك يا زينب . فما عرفت رجلاً يضارعه في كره الامويين !

قالت بنبرة الموتور: انك لمصيب. اثار على ابي واخي حفيظة ابي العباس فنقم عليهما الخدين الصفيّ وجدّ في اثرهما. ولكنه لم يدركهما الا بعد معارك حمر نازعاه فيها الظفر. على ان الكثرة غلبت القدرة يا عبدالرحمن، فقبض ابو العباس على عمك وابن عمك بعدما اثخنا رجاله جراحاً وصلبهما في الكوفة . وعبدالله مضرم النار . فواعجبا من حقود كالح الضمير يشرق فيه النبل . لا تنس ان عبدالله والد ميمونة يا عبدالرحمن !

فتأوه متحسراً على الضحايا البريئة وتمتم: ان من يعرفه ويعرف ابنته لينكر ان تكون هذه من صلب ذاك . ولكن الورد والشوك يجتمعان . زينب ، ما لنا ولذكرى الريحانة العطرة المقصوفة على طراوة عود. ميمونة شهاب علوي اطفأته ظلماً يد الغدر. عبدالله بن علي لن يهنأ في عمره. فالقاتل

المفتري نصيبه القتل الوبيل !

فهتف اليهودي الشيخ : صدق الامير العليم !

فقال عبد الرحمن: بمَ تتنبأ له يا حكمون وانت المالك اسرار الغيب؟

– أتنبأ له بالحزية ايها الامير. سيقتله بنو أمه قتلاً عجيباً. فلن يستعينوا عليه بالسيف . ولن يسفكوا دمه . ولن يدسوا له السم . بل يلقى حتفه بحيلة مبتكرة تضيع فيها التبعات !

فصاح الجميع وقد تناسوا الهجير اللاذع حيال الاحاجي المكتنزة الغموض: وكيف ، كيف يا حكمون ؟

فاعلن اليهودي الشيخ: هذا سرّ لم يكشفه لي علم الغيب. فصبراً، صبراً. ان الغد ليجلو الخفيّ ويحل العصيّ . فلكل مغلقٌ زمن يزيح عنه النقاب الصفيق !

٤

نجا عبدالرحمن ورفاقه من حرقة الظمأ ومشقة المسير على الاقدام وفي ركب زينب الابل الوافرة ، والقرب الملأى ، والزاد الثريّ . فتسنم ورجاله متون الرواحل بعدما ارتووا وشبعوا. ودعته ابنة عمه الى هودجها اتقاءً للشمس الكاوية فقال : بل ظللي صديقنا حكمون. فهو منقذنا من عدو في ثياب صديق !

واستأنس اليهودي بزينب واصغى الى روايتها فيما تقص عليه ما لقيت في براح الكوفة بعدما فتك الهاشميون بابيها واخيها ، وما عانت من الاهوال في بلوغ وادي النيل وقد جاءها ان عبد الرحمن ابن عمها فرّ الى مصر يروم منها المغرب . قالت : كل من سألت عن وجهة عبد الرحمن ابلغني ان المغرب هدف ابن عمي ، وان مصر طريقه الى هدفه . وليس يخفى عليّ ان الامير الفهري من انصارنا فقلت : « لا بد ان يكون عبد الرحمن نزل عليه ضيفاً ! » . فولينا وجوهنا شطر مصر ، بيد اننا خشينا ان يدري بنا جند صالح بن علي فحدنا قليلاً عن الطريق . وشاءت العناية ان نلتقي في هذه الفلاة . ولولا ذاك لضلّ بعضنا عن بعض في المجاهل السحيقة . انه لحظ يجاوز المأمول !

قال اليهودي: من حسبته لكم صديقاً كاد يودي بابن عمك وقد خشي ان يزاحمه على امارة الاندلس. واننا لهاربون من شره الى حيث يعصمنا الامان!

فجلجلت بذهول : أتفرون من الفهري ؟

– هو من قضى علينا بان نغور في هذه الصحراء على وهلة ونفاد زاد !

فاطرقت ثم تمتمت بالم : الدهر محكّ الرجال . فالصديق من والى في العسر لا من جامل في اليسر !

واستطلعت : والى اين نلجأ في فرارنا ؟

قال حكمون : الى قبيلة « وانسوس » البربري !

– أنكون فيها بأمن من الغواشي ؟

– نحن هناك في حمى منيع !

قالت بالتباك: وعلى مَ يدلك علم الغيب ايها الشيخ؟... أيفوز عبد الرحمن بالرجاوة الحلوة ؟

فاجاب بمهابة العالم الوقور: الفوز مكتوب، ولا سبيل الى محو المكتوب يا ابنة سليمان !

على ان ما كان يقلق حكمون اليهودي ما افضى اليه الرجم بالغيب عن الرحلة . فلا بد من عقبة تعترض السبيل . فما هو مبلغ الوعورة في العرقلة المتوعدة ، أيصاب فيها احد بضيم ؟

واندفع الركب الى قبيلة « وانسوس » واليهودي في تفكير . تحدثه زينب فيسمع، الا ان السهو يرين عليه فيبعده عن هذه الجالسة على مقربة منه النائية عنه . واذا الابل يعروها ارتعاش فتجفل . فماج حكمون بالرعدة وغمغم وقد اتسعت عيناه وارتخت شفتاه : هذه بوادر الكارثة !

وعلا زئيرٌ خشن ملأ الصحراء . ثلاثة من الاسود المفتوحة الاشداق تطلق الحمم اشبه ببراكين سيّارة . فصاحت زينب وقد لمست هول

الفاجعة : عبد الرحمن ، هذا سيف عمك فانقذ به نفسك !

وعبد الرحمن وراءها على بعيره. فرمته بالسيف فوقع في قبضته. فانتضاه الفتى الاموي وهو يصيح بمن حوله : استعدوا لحوض المنايا !

فارتجف اليهودي كأنه يودع دنياه .ربما طوي غده. فقد هاله المنظر الدميم. ووثب الزنجيان منقذ وجابر الى مصاولة الاسود الهائجة. والاثنان ممن بلوا الموقف الخطر وخضبوا نصالهم بدم الضراغم المستفحلة الزئير. وابى عبد الرحمن ، ويمينه تقبض على سيف عمه ،الا ان ينهج نهجها في نضال دعا اليه. فترجل ونفر الى دفع الاذى عن الركب اللهفان . وخاف عليه الزنجيان من الحطب الهادر فصاحا به:لا يكلف الامير نفسه المشقة الناهكة ونحن نكفيه اعباءها !

فلم يرجع لجرأة فيه وصوناً لنباهته من مضغة الالسن . واقتحم الشر اللهيم لا يبالي فوران الواقعة. واذا نصلة سيفه تغرز في لبدة الاسد السبّاق الى الغنيمة . فعلا زئير ارتعش لقصفه اديم السماء. فالطعنة اصابت الاسد الا انها لم تصرعه ، فعاد يتحفز للوثبة ويعينه عليها الاسدان الآخران . وتطاير الشرر من اشداق الاسود الثلاثة. وشزرت الاعين المضطرمة اضطعاناً وشراسةً الفتى الاموي. وشعر الجميع بحرج الساعة فاعولت زينب:يا لعبد الرحمن !

وايقظ صوتها الرهيف الركب الواجم واحيا الهمم المتداعية . فهّب الجميع لانقاذ الفتى من رهبة الويل . وكان الزنجيان قد وقفا بينه وبين الشر المتوعد فولغ سيفاهما في دم الاسد المشدوخ الرأس . وتعالت زأرة اطارت الرمال كالاعصار الحانق والتوى الاسد على نفسه هامد النبضات

ولكن الاسدين الآخرين لم ينثنيا، بل تابعا وثبتهما يهددان الزنجيين بانياب حداد وزئيرهما يهز الصحراء كأنه ينسف اركانها. فتخاطفتهما أسنّة الركب وقد وقفت سوراً منيعاً دون مبتغاهما. على انهما ما كانا ليرتدا الا ليرجعا بعزيمة امضى. وبدا للعبدين الاسودين ان الامير يعرض نفسه للخطر فمالا عليه يفتديانه بروحيهما. واذا اسد تتلظى فيه النقمة ينقض على جابر فيفلق رأسه. وحاول منقذ ان يجير اخاه فمزقه الاسدان المتوهج في انيابهما ومخالبهما الحقد الصاهر. فارتعدت القلوب. واضحى الامير هدف الاسدين الشرسين وهو الثابت على المحنة، الضارب بسيفه بلا رحمة. فكل وثبة من الاسدين تجد لها منه صدمة محكمة. الا ان العياء بدا في الامير. فارتجف ساعده، وخاف عليه كل من حوله. وانسابت صيحة زينب في كبد الصحراء تستغيث مرعوبة: الينا، الينا!

واقتحمت المعركة وقد طارت نفسها شعاعاً فرَقاً على عبد الرحمن ابن عمها. واذا صوت كومضة الامل في دهمة اليأس يشقّ الفيافي على صيحة: لبيكِ، لبيكِ!

فالتفت الجميع الى مصدر الصيحة ما عدا عبد الرحمن وهو يصاول الاسدين وينازعهما الغلبة. وما تخلى عنه في جهاده من حواهم الركب وقد شاطروه النازلة الحمراء. وصرخ اليهودي وقد عرف المجير الملتهم الفلوات على جواده الضامر السبوح: وانسوس، وانسوس، اسرع وابعد عنا الضيم المصور!

وانتصب في الهودج على بعيره الشارد وهو يرتجف لفرط ذعره كمن تعبث به البرداء. وخندقت في وجهه صفرة الموت كأنه موقن انه سيلقى حتفه. ولوّحت يمينه بكوفيته تحثّ الفارس المنجد على بلوغ ساحة الطعان

في الموعد

وكانت نصلة عبدالرحمن قد اصابت كبد احد الاسدين فسقت الرمال دمه. وغلى الاسد الباقي على المجزرة فانهال على النبيل الاموي بشدقين برزت انيابها المواضي. فهتف الجميع برعدة: يا للامير!

وخارت قوى عبدالرحمن واضاع الهداية. فالغضبة الهاجم بها عليه الاسد الناقم هدت حيله. واستسلم الى مشيئة القدر وقد افلتت منه الهمة. على انه ابى القاء سلاحه فمضى في المطاولة على وهن. وانصبّ الركب باجمعه على الاسد الشرس الوثبة، الرعّاد الزئير. وتدفقت الصرخات ابعد ارتعاشاً وأرهب اعوالاً: ادركوا الامير!

ولكن الاسد نهش بانيابه كتف عبدالرحمن. فزعزعت النهشة الفتى الاموي فشحب لونه ونزف دمه وأُصيبت يده بخَدَرٍ كاد يشلّها. غير ان الفتى عاند في الالتواء. فظل يقاوم وردّ الاسد عنه وهو على شفير المهواة. فاعاد الاسد الكرة، فانبرت له زينب تفدي ابن عمها بحياتها. الا ان عبدالرحمن سبقها الى الاسد يدفع عنها الخطر. فلم تسعفه يده في الضربة فدار على نفسه وهوى في الرمل مضعضعاً، فاقد الرشد. ومال عليه الاسد بانيابه واظفاره المستطيلة يروم نهشه. واجفل الركب على ذعر متمادي الرجفة. ورددت اصداء الصحراء الصمّ: يا لعبدالرحمن. قضي على الامير!

وتمثله الجميع ميتاً، ممزق الاشلاء. واذا ضربة سيف تفلق هامة الاسد الناعم بالفوز فيتدحرج ملك القفار على مقربة من الامير الاموي وليس في صدره قوة على تصعيد زأرة. والتفت الركب الى الضارب فاذا به الفارس المنقض من اعماق الصحراء كالسيل الجُراف. وهتف حكمون

الشيخ باعلى صوته وقد تبددت مخاوفه : وانسوس، وانسوس ، لا شُلّت يمينك !

ووثب اليه من الهودج يصافحه ويضمه الى صدره ويقبله في جبينه وهو يقول : انت منقذنا من هول الموقف ، زاد الله في قوتك وعمرك !

وكان « وانسوس » قد ترجل وهو يبتسم. وتعجب من مرأى اليهودي في الصحراء فقال مستفهماً : ما قذف بك الى هذه المفاوز يا حكمون ؟

فاجاب اليهودي بمداعبة وجد : الشوق اليك يا « وانسوس » !

— وكيف حال الفهري ؟

— لعنة الله عليه . أبقيته في بلاطه غريق مكره وعدوانه ، وجئتك بمن هو اسمى واعرق . أتدري من انقذت يا « وانسوس » ؟

واشار الى عبدالرحمن العاكفة عليه زينب تضمد جراحه وترش على وجهه الماء . فقال وانسوس : ومن الرجل ؟

فاعلن حكمون : امير اموي، جده هشام بن عبدالملك، وأمه راح البربرية !

— امير اموي ؟... و ما يدعوه الى اجتياز الصحراء الزاخرة بالمتالف في مثل هذا الركب الهزيل ؟... قبضة من الرجال لا تردّ شراً ولا تدفع جوراً يا صاحبي !

— انه ليفرّ من غدر الفهري . لاذ به فمال الى قتله !

فعبس الفارس المغوار واذناه تلتقطان كلمات اليهودي وغمغمت شفتاه : يا للنذل ، أيقتل المستجير بجاه ؟... انه لخسيس رذل عبدالرحمن الفهري !

فقال حكمون : أتجهله يا وانسوس ؟ ... خشي ان يزاحمه الامير على

الاندلس فاضمر له الشر. على اني فضحت مكيدته وانقذت الامير من شره ، وتوغلنا في هذه الصحراء شاخصين الى ربعك الامين !

وانكفأ به الى الامير المطروح في الرمال وقد وفقت زينب لانعاشه.

قال : هذا هو سليل الامويين الانجاد !

وخاطب عبدالرحمن بن معاوية، النافض عنه غبوبته، بقوله: هذا صاحبنا «وانسوس» ايها الامير. شخصنا اليه فهبّ الى لقائنا كأننا واياه على موعد!

فتمايلت ابتسامة عليلة في شفتي الامير تنطق بالشكر . وهي ابتسامة تجاوب صداها في كل فم . قال وانسوس : لست ادري من قادني اليكم ، أحسن حظكم ام حسن حظي ؟ ... بعدت عن الحمى في صيد ظبي اعفر ، واذا الزئير يملأ اذنيّ . وما لبث ان اختلط بالاعوال . فوهبت الظبي لسربه وكناسه ودفعت اليكم جوادي . ويسرني ان اكون وصلت في الاوان !

فقالت زينب : انك لمنقذ كريم ، فشكراً جزيلاً !

وقال حكمون اليهودي: سنكافئك على حميتك بالنزول عليك اضيافاً. نحن بعض قبيلتك ، بيت من بيوتها الفساح !

فضحك وقال : مرحباً بالاضياف !

واستقر بينهم يحادثهم بمرح ويصغي الى حكاياتهم. فيتألم حيناً ويدهش حيناً. وأمضّه غدر الفهري فقال : هذا رجل نشأ في المكيدة ، ويعيش في المكيدة، وسوف يموت فيها. عرفته واردت له الموت فما صدّني عنه غير هذا اليهودي الشيخ . كنت اسكت عن مخازيه اكراماً لهذه اللمّة البيضاء !

ولامست يده صدغ حكمون . فقال اليهودي : حسبته مع كل دناءة

فيه على نضاضة من شهامة ، فاذا الوغادة تخضب منه حتى قلامة ظفره !

وجاهد عبدالرحمن بن معاوية في النطق فقال بعياء : نحن فيما نصوغ لك الشكر يا «وانسوس» لانقاذنا من الملمة الناخعة لا نستطيع الا ان نبكي الزنجيين منقذاً وجابراً المطروحين اسدين رئبالين بجانب الاسود الضياغم. دفعا روحيهما ثمناً لنجاتنا . وددت لو أُصبت في عمري ورددت عنهما هذه الكارثة المنكرة !

وآلمه النطق والتحسر فلهث وكاد يصاب بالاغماء . فقال حكمون : لنمنع عن الامير الكلام ، فالكلام يضنيه !

ودعا الرفاق الى متابعة المسير خشية ان يفاجئهم الفهري. فاندفع الركب الى ربع «وانسوس» بخطوات وئيدة ، حزينة ، تشفّ عن سكون عليل خزيان. هي فترة الوجوم تتلو العاصفة العمياء. وطال الوخد ولم يرتفع صوت بنأمة. فالجميع يستكبرون الرزيئة في الزنجيين البطلين الوفيّين وقد ابقوا بعدهم قبيلة من الليوث تتوسد الثرى . ولو ان لاخفاف الاباعر وقعاً على الرمال لتجاوب في الآذان صداه

وامتطى «وانسوس» جواده. واقام عبدالرحمن وزينب معاً في الهودج وقد حرصت ابنة سليمان بن هشام على راحة ابن عمها . فحملت بيمينها مروحة تدفع بها عنه الهوام وتخفف من لوافح القيظ ساهرة عليه بقلبها وعينيها

وترددت في محادثته . فقد تؤلمه مبادلة الحديث . الا انها لم تكن قلقة عليه وما بدا لها من جراحه انها تنذر بالخطر . صرع اسدين على مرأى منها ، ولولا ان تنهك المصاولة عزمه لاردى الليث الآخر . وبلغ اعجابها به كل حد . وشكرت للمقادير سماحها بالنجدة وقد اوفدت الى الركب

«وانسوس» لدرء اذى الضيغم المتلاف

واحست بانها ملكت الفتى . فلم يبق من يزاحمها عليه. وتناست وهي تنظر اليه فجيعتها بابيها واخيها. وغابت عنها نكبة الامويين. فان مرجاها الاوحد هنا ، على قيد فتر منها . واشرقت في نفسها الآمال الصباح . فالغد لها . وانها لترضى بالفقر، وبما دون الكفاف ، على ان يظل لها ابن عمها ، فتعيش بقربه العمر المديد

وهدهدتها الاماني ساعة طويلة وهي في غبطة لم تشعر بها قبل اليوم . وطارت أنّةٌ من عبدالرحمن فانخلع قلب زينب وصاحت جازعة :عبدالرحمن!

واستفاق فيها قلقها عليه . فهمهم بحرقة : شربة ماء !

فمانعت وقالت : لا ماء وانت مثخن جراحاً !

– اريد شربة ماء !

– ان فيها للموت الوبيل !

– هاتي شربة ماء ولتذهب عني حياتي !

فتصلبت وتجاهلت ما تسمع. أتبيعه بشربة ماء؟.. قال: مابك تعاندين؟

فاجابت : لا ماء في الهودج !

– وعند رجال القافلة ؟

– القافلة في ظمأ !

فكادت الشتيمة تنفجر في شفتيه ،الا انه كظم فورته في حضرة ابنة عمه . وتلظت جراحه واشتدّ به الالم ، وتململ كأنه يشوى وزينب لا تجيبه الى المبتغى. قال يريد ان يلهو وان يدفع عنه اوجاعه: واين حكمون اليهودي ؟

فنادت حكمون. واتسع الهودج للثلاثة. قال عبدالرحمن: ألا حدثني عن الغد ايها القارىء في سفر المجهول ، حدثني بما يلوح لك من رحلتنا المستفحلة الشكوك !

وهو مع يقينه ان الغد خادمه، وانه بالغ منه أربه، ظل يرتاب بمصيره. كيف يسود الاندلس وهو ضيف قبيلة حسيرة ، والفهري، امير المغرب، يناوئه ويبث عليه الارصاد لقتله والخلاص من شبحه المقيت ؟ . . . قال اليهودي وقد تجلت له وساوس الامير: ليكن سيدي على اطمئنان !

– أننجو ؟

– النجاة يضمنها الله !

– وهذه المصائب تتقاذفنا يمنة ويسرة ولا يهدأ لنا بها حال ؟

– سنظهر عليها باذن الله !

فتعجب عبدالرحمن من ايمان اليهودي بالغد ، بل خشي استخفاف هذا الشيخ الداهية به. وغفل عن جراحه وظمأه وهو يفكر في مصيره. واغمض عينيه وسدّ اذنيه لئلا يرى ويسمع . ليتلاعب به دهره كيفما شاء ، فانه لمستسلم الى دهره ، على ان يصل به الى الشاطىء الآمن غير مهشم الرأس، ولا محطم الاضلاع !

٤

على فتحة عين الفجر دلف الركب الى ربع «وانسوس» الزعيم البربري. وعلى باب خيمة الزعيم وقفت امرأة في الرّيق الغضّ من العمر تستطلع مثاني الافق. هي «تكفات» زوج « وانسوس » سيد القبيلة. فمنذ يوم وليلة نأى زوجها عنها في طفرة الى الصيد والقنص ولم يرجع. فقلقت وجالت في المضارب تسأل عن المتخلف عن العشيرة . وجاوزت القوم في نفر من الاتراب تنادي « وانسوس » في متناوح الرياح فلم تظفر بجواب يبرّد خاطرها الحشيان

وانكفأت الى الخيمة ومقلتاها لا تسعفانها في غمض. وضاق بها مسكن الوبر فزحفت الى العتبة تستقر بها وتفتح أُذنيها لاصداء الليل . هي تحب «وانسوس» مع انها دونه سناً. تحبه لاقدامه وسخاء يده. فالبطولة والجلالة المعقودة له رايتها اعمتاها عن كهولته وهي في العشرين وهو في الخامسة والاربعين

ولم تكن تطيق فراقه . فاذا ابتعد عن الربع ألحّت في ان تكون بجانبه . فيرتدفها على فرسه ويجوب واياها الفيافي الفساح . وفي الندورة ان ترتضي وحدة الخيمة و« وانسوس » يرحل عن الديار

وشاءت ان تكون في هذه الغيبة رفيقته الى الصيد ، فعاند . سيبتعد الى الاطراف المترامية لاقتناص الظباء . ثم هي تزعجه في صيده، فلا تبيح

له حرية السعي . فبكت ، فاستعتبها بتقبيل شفتيها وناشدها السكوت والرضا ، فاذعنت على مضض حرون

ومسح بمنديل طرّزته له بخيوط الفضة دمعها المتزحلق على خديها السمراوين، الاسيلين. وطوّق خصرها وقال يناجيها: ألا تحب «تكفات» زوجها «وانسوس»؟

فاجابت وهي تشرق بدمعها : ما كنت ابالي ابتعاده عني لولا حبي له!

قال يتدلل عليها: ما دمت تحبينه فاقيمي بانتظاره. هي ساعات ويعود!

وضمها اليه بنهمة . ووثب بجواده كالسهم المرنان ينتطح الصحراء . ولوّح لها من بعيد بالمنديل المزركش بالفضة وقد عقده على رأس سنانه . فوقفت بباب الخيمة تنظر اليه حتى توارى . ولما أطلّ كانت بباب الخيمة ترقب عودته وقد احمرت عيناها وطافت بها هالة زرقاء وذبل خداها . فاشرق جبينه وهو يراها ترقب عودته بشوق. وحثّ اليها جواده والبسمة في محياه . ودنا منها يحييها بصوت جهير فآلمته صفرتها . كل ما فيها يشير الى وفور جزعها . قال بلهجة تنتفض على استحياء : هل طال عليكِ غيابي ؟

فاجابت بنبرة نائحة جيّاشة: يا ظالم ، أتستحلّ تعذيبي ؟

وتناهت في تعنيفه بصخب وغيظ ناعية عليه الحنان والمودة. لقد تحجّر فيه القلب. فضحك طويلًا وهو يبصرها في نزقها ويصغي بلذة الى تنديدها به . وترجل عن جواده كالشرر وفتح لها ذراعيه مؤانساً ومزدلفاً. فألقت رأسها الى صدره كأنها تبحث عن وسادة هنيئة تذهب بشجوها. وانطبقت باصرتاها استمتاعاً باللذة وقد انعقدت الاهداب على حبة دمع في الزاوية . قال وهو يرتوي من تقبيلها : اسمعي ، جئتك بحفنة من الضيوف اعتقدهم

من كرام القوم. ويكفيك ان تعلمي ان احدهم حفيد خليفة. فهو من الامراء الامويين. ورفيقته ابنة عمه. انها لمن نافثات الفتون. لو ابصرتها لقلت فيها انها افلتت من الجنة !

ففتحت عينيها باضطراب وهي تسمعه يحدثها عن فتون امرأة. وخشيت ان يكون سلاها حيال هذه الروعاء المتدفق بالحديث عنها . ولاحظ على مقلتيها انهما اعتكرتا فقال يحاول ابعاد القلق عنها : أتدرين من قاد هؤلاء الضيوف الينا ؟ ... أراهن انك لا تدرين !

وكان قد اشتد بها الاصفرار ، وعقد لسانها ، وتولاها السهوم لفرط غيرتها. فهي على ريبة بحب زوجها لها . وهالها ان تقبل الى الربع من تسلبها هيام «وانسوس» بها وهو اغلى ما لديها. قال: جاءنا بهم حكمون اليهودي . فالامير الفهري راعه ان يقبل الى هذه الارجاء امير اموي ، يزاحمه على السيادة، فاضمر الشر ونهد الى الفتك بالامير وبرفاقه. فاشفق عليهم حكمون واجتاز بهم الصحراء الينا !

فلم تجب . وأطلّ الركب فقال وانسوس : ها هم ، احسني لقاءهم !

فمالت عليهم بناظريها ولبها. ورغبت في رؤية الاميرة الهابطة من الجنة. لا ريب ان الحضارة جادت عليها بحسن تضنّ بمثله البداوة . وخافت ان تكون انتزعت منها الاميرة الفوّارة الوسامة زوجها «وانسوس» فحقدت عليها وكرهتها قبل ان تراها. وما تمايلت زينب في الحي وشاهدتها « تكفات » من بعيد حتى ارتجف قلبها. فمن يثبت حيال هذه الوضاءة الجموح ؟

وملكها الجمود فسمّرت في الارض كاوتاد الخيمة . ووهمت ان النعمة ذهبت عنها والغضارة جفتها . وتلفتت الى « وانسوس » ، هل

يحدق الى الحسناء المالئة القبيلة نوراً ؟

واستندت الى احد الاطناب وهي ترى . فمشى اليها « وانسوس » وقد راعه فيها الانقلاب الكاسف وهزها بشدة هاتفاً بها : اين ترحيبك بالضيوف يا « تكفات » ؟

فانتفضت وجرضت بريقها . وألقت عليه نظرات خادشة ترسخ في اعماقها السود الغيرة المستطيلة . ثم اطرقت كأنها لم تسمع . فنبر بحدة تختلج بالحض على الايناس والرحابة : من للضيفان يا اخت المها ؟

فاجابت وعيناها في الارض : من دعاهم اليه يتدبرهم بحميد سعيه وكريم طبعه !

ونضنض في كلماتها الحقد العضوض . ووقف الركب بباب خيمة الزعيم فكاد « وانسوس » يجنّ . أيدنو الاضياف من خيمته دون ان يهرع اليهم من يرحب بهم من اهل الربع ؟ . . . ولم يكن منه الا ان قبض على معصم « تكفات » والتفت الى الضيوف يصيح ببهجة : مرحباً بالغادين الينا . انتم اصحاب الحي !

وما استطاعت « تكفات » الا ان تبتسم تأدباً . على انها لا تكاد تبصر زينب بنت سليمان حتى تبلع ريقها وقد لسعت قلبها غيرتها . وحيتها زينب فردت لها التحية على غصة . قالت الاموية تخاطب وانسوس : أليس من محفة ننقل عليها عبد الرحمن يا سيد الحمى ؟

فوافاها بمطلبها . وتحلّق افراد القبيلة على الركب الطالع عليهم في جبين الصباح يحتفون بالاضياف ويحدقون اليهم بفضول لهيم . فصاح « وانسوس » بنفرٍ منهم : في الهودج جريح . دونكم هذه المحفة وانقلوه الى خيمتي !

وبدا عبدالرحمن لتكفات البربرية فوقفت منه كأنها حيال السحر المفاجىء. ما لهذه الوجوه الانيقة تقلق هدوء الصحراء؟... وراعتها فتوّة الامير فهدأ فيها بلبالها. من المحال ان تميل الاميرة الاموية الى «وانسوس» وبجانبها فتى كابن عمها يرفل في هذا البهاء الصيّاح

وجمدت عينا « تكفات » على الامير . فكأنه استهواها . وتضاءل في مودتها « وانسوس » الكهل حيال الضيف الفتيّ الوسيم . ومالت فيها الغيرة من ناحية الى ناحية . « تكفات » لا تزال تغار من زينب ، الا انها اخذت تغار منها على عبدالرحمن وهنيئاً لها بوانسوس !

وقادتها رجلاها الى الجريح الاغرّ ترحب به بابتسامة مشرقة . قالت: بابي انت وامي ، ما هذه الجراح في كتفيك ؟

فنظر اليها مشدوهاً. من هي كي تجترىء عليه بهذه الدالة المقحام؟... وطرب « وانسوس » للمرح النافخ فيها بعد الاكتئاب. ومال على الامير يجلو المبهم بقوله : هذه « تكفات » زوجتي يا عبد الرحمن !

فاطال اليها عبدالرحمن النظر والبسمة الرضيّة تحوم على فمه ، وقال برفق : هذا نصيبنا من الفلوات . هاجمتنا الاسود فمزقتنا . ولولا زوجك الاروع لكنا طعماً لها !

فاعلن « وانسوس » بحياء من يثقل كتفيه المديح : أيتجاهل الامير اقدامه وقد هشم بسيفه اسدين فتّاكين ؟

فاستدارت عينا «تكفات» اكباراً. أيبطش رجل فرد باسدين معاً؟... قال عبدالرحمن يلقي عنه جانباً من الثناء: لم افتك بهما وحدي وقد ظاهرني عليهما اخواني. وكان لزوجك الفضل الاسنى وهو من سدد ضربة الاجهاز !

فقالت «تكفات» وقد اشفقت عليه في اوجاعه: أيتألم مولاي الامير؟
فاجاب برقة حبته اياها الفطرة : مرآكم بدّد عني الآلام !
— أأجيئك باللبن تبرّد به لهبة حلقك ؟

فصاح «وانسوس» بطلاقة المضياف : هاتي كل ما عندك من افاويق !
فسمعت وابت ان تسمع. ليست تجهل ما ستحمل الى الضيف القسيم، فما لوانسوس يفرض مشيئته ؟... واختلج فيها روح العصيان. لن تطيع هذا الزوج المنطلق وحده الى الصيد والهائم بالنبيلة الفاتنة. أما درى ان كهولته هانت لديها حيال الضيف الطليل ؟ ... وتعمدت الكشف عن نقائصه واحدة واحدة لتقيم منه على نفار ومقت. انها لتنضوه عنها كالرداء الخَلِق

وحبت الى الاهراء تصطفي منها الطيبات وتهرع بها على طبق من فضة الى الامير النضر العود . وجثمت على مقربة منه تلقمه اشهى مأكل . فافاض بالشكران . واقامت زينب عند رأسه تشاطره اعجابه بوانسوس وبتكفات الزوجة الرحبة الصدر وبالقبيلة المسماح. فتضايقت « تكفات » من ثناء زينب وودت لو حبست الدخيلة مقولها بين فكيها. وازمعت ألا تكترث لهذه الدمية الساطعة اللألاء انتقاماً منها لحسنها ولهيامها بالامير الصبيح

وشعرت زينب بالزحام يدب دبيبه وتجاهلت. لن يعرض عنها عبدالرحمن لاجل بربرية وان تكن أمه من البربر . على ان « تكفات » ، مع اعجابها بالامير ، تعجبت من نفسها في حبها الطريف. وشاءت الوقوف عن الهيام بمن لا ترجو بقاءه على ودها ولا استبقاءه. وتقهقرت عفواً في وثبتها البعيدة الشأو وحاولت ان تخاطب زينب بكلمات عذبة ، هانئة ، فما آتاها المنطق الجذل

وغاظها ان تسلو زوجها وهو قائدها الاول الى الحب ومضرم بواكير احساسها. فما خفق قلبها لسواه منذ تفتقت فيها لذاذة النشوة . واعتزمت ان ترسخ في هواه فتحامت الجلوس الى عبد الرحمن . وانقضت على الفتى الاموي ايام رحاب و« تكفات » لا تبدو بين يديه وقد خشيت الاحتراق بناره . فهالها هذا الحب العجلان . أيكون الهيام نظرة ؟ ... لم تكن هذه حالها ازاء « وانسوس » . فتعب زعيم القبيلة في استدراجها اليه على بأسه ووضيء شأنه. فما احبته الا بعد تردد واحجام طويلين. اما النبيل الاموي الفتى فما كاد يلوح لها حتى خنعت حياله كأنها تشعر للمرة الاولى بضرم الجوى . على انها ستتقي الغاشية بما تملك من وسع . ومضت في الانحباس عن الفتى الوسيم . لن تراه كي تبعد عنها خياله وان يكن هذا الخيال يستطيل في قلبها وعينيها. وكلما طلع عليها الصباح دلفت الى خيام القبيلة تحادث اترابها دون ان تعرّج على خيمة عبدالرحمن. وعتبت في ضميرها على زوجها لايوائه هؤلاء الضيوف السحرة، الطغاة

ومع قعودها منذ ما استقرت بعصمة « وانسوس » عن ارتياد الواحة الدنيّة من الربع كانت تحمل القربة الى عين الماء النابعة في صدر الخميلة ولا تعود احياناً الى المضارب الا وقد غارت الشمس في الشفق. فتذيب نهارها في الابتراد بالماء النمير ، او في اقتطاف الثمار عن امها ،او في الاصغاء الى حكايات القبيلة تقصها عليها رفيقاتها. وكلما غشي طيف عبدالرحمن خاطرها تحدثت عن رجولة «وانسوس» ودعت لداتها الى الرقص والغناء كي تنسى. وهي نفسها كانت تلوذ ، لاجل النسيان ، بالغناء الشجي

وشاع في مبسمها الرضا . ناضلت وظفرت . لن يملكها حب غريب

فيقلقها في ضجعتها ويشوّه عليها الهناءة. وتململ « وانسوس » من احتجابها عن اضيافه فطار اليها يندد بها وهي تستظل نخيل الواحة الوقور. قال متأففاً: أيقيم الناس في ربعنا وانت دائبة في لهوك الغبيّ ؟

فقهقهت ملياً . ونطقت عيناها بكلام لم يدركه الزوج البريء النية وقد قالت له فيه: ولكني ألهو كي أثبت في حبك ايها الغافل عن نزوات القلوب!

فقال بامتعاض وقد اوجعته ضحكتها: هلا نهضت ؟... كلهم يسأل عنك!

فاجابت ببرودة مرحة : ما لي ولهم . لست ادري ما اخاطبهم به . انت اعلم مني بمساقطتهم الحديث !

وقالت هازلة جادة: ولا تنس الرفق بزينب. اراك بها على هيام وثيق!

فاستدل من كلماتها ان الغيرة تقصيها عن الربع وقد تراءى لها ان زوجها سلاها مشغوفاً بزينب بنت سليمان. وهذا الاعتقاد اطلق فيه الضحك . فدنا منها يمسك بذراعها ويقول بغبطة مستفيضة: انهضي. ان للترهات من خيالك المرتع الخصيب . زينب تهوى ابن عمها الامير الاموي . فاجتازت القفار وتعرضت للمكاره للاهتداء اليه . ولن تميل عنه مخدوعة بابتسامة خالبة ازفها اليها . حسبكِ ان تعلمي اني اعرضت عن نساء القبيلة باجمعهن في سبيلكِ . انهضي . كلنا يرقب طلّتكِ !

فكادت تصارحه بما يحملها على هجر الربع . فهي تخاف منها عليه وعبدالرحمن وقع من نفسها . غير انها اكتفت بالقول : دعني هنا . انا في هذه الواحة قريرة الجأش !

فشدّ بها اليه بعنف وهو يقول بنبرة تترجح بين الشدة واللين : بل أريدك على اللحاق بي . غيبتك تبعث على سوء الظن !

فلم تقوَ على الممانعة وهي بين ساعدين مفتولين . وصممت على مناهضة حبها للامير وعلى مخاطبة زينب بمودة وبشر. فلماذا تغار من الاموية وليس لها في عبدالرحمن رجاء ؟ ... وشعرت بذراعي « وانسوس » تطوّقانها وبانفاسه تسكب فيها الدفء ، فالتصقت به ورغبت في ان تستعيد هوى الامس الغضير . فلماذا الضياع في ابتغاء السراب العقيم ؟

وبلغت مضارب القبيلة وهي تختلج بحب « وانسوس » . ودخلت مثوى عبدالرحمن تبتسم للفتى ابتسامة هادئة تشفّ عن استئناس الصديق بالصديق . ومالت على زينب بقبلة صافية . فهي ترحب بضيوف اصدقاء . وصافحت حكمون والبشاشة تخضب طلعتها . وقضت نهارها في صفاء طروب . نسيت جائحة الهوى الارعن وقهرت فيها الميل الجديب . وقامت وزينب بجولة في الخيام وقد شاقها ان تضمحل فيها آثار الغيرة الضروس

ولكنها ما آوت الى مضجعها ، لقضاء ليلتها ، حتى دهمها ما حسبت نفسها بنجوة منه . فالحب الغافي في حناياها استيقظ بشدة لم تكن تعرفها فيه . فانغمست في شجو أليم وطغى عليها دمعها . اي نكبة حمل اليها « وانسوس » بهؤلاء الاضياف المحرجين ؟

وراعها ان تتعذب . فما تحنت ولا جنت كي تلقى هذه المحنة الاكول . واصغى اليها « وانسوس » في وحشة الليل فسمعها تئن . فجنح اليها يقول مؤاسياً : تكفات ، ما بك تنتحبين ، هل تولاك حلم كئيب ؟

فمسحت دمعها بيديها ورفعت عنها الغطاء وهي تقول بصوت جازع بكيّ : ليس بي شيء يا صديقي ، فامضِ في رقدتك . انت بحاجة الى الراحة ، فلا تزعج نفسك بما لا يبعث على اللبكة والجهد !

ولكنه انار السراج وادناه منها قائلاً بعطف يرشح بالالم: لماذا الكتمان يا تكفات ، عيناك الحمراوان تفضحانكِ ، فما بك؟... ألا تزالين تغارين من زينب بنت سليمان ؟

فاجتهدت في الابتسام وقالت وهي تحاول الخلاص من اسئلته الممضة: لا ، لا !

– اذن ما بكِ ؟

– لا شيء ، لا شيء !

– علامَ اذن البكاء ، هداك الله ؟

– لست ابكي . أترى في عينيّ بلّة دمع ؟

فارتمى بجانبها وألقى رأسها الى زنده وعانقها وهو يقول بحنان مستدرجاً اياها الى مطمئن الافصاح: لا يرضى « وانسوس » ان تتألم «تكفات». فان تكن تبغي منه حاجة فلن يتردد في قضائها. لو طلبتْ جبهة الاسد لجئت بها اليها في قبسة العجلان !

فلامست عنقه وطبعت شفتيها على خده وقالت تبدد وساوسه : تكفات لا تطمع في نعيم أرحب مما أعدّ لها « وانسوس ». فقد حباها ما اخرس فيها كل شهوة مطماع. وانها لتحبه وترجو المضي في شغفها به غير متوانية ولا سؤوم !

وسكتا معاً يلفّهما التفكير الشجيّ. «وانسوس» يحسبها على غيرة من الاموية وهي على غيرة منها ، ولكن على عبدالرحمن بن معاوية . فالواقع ندّ عن الزعيم البربري . واذا « تكفات » تقول : والى متى سيبقى بيننا الضيوف ؟

فزادته بسؤالها يقيناً انها تغار من زينب . قال : سيبقون ريثما يشفى الامير . أيروقك ان نحثهم على الرحيل ؟

فتمطت في جوابها : لا ... لا ...ليبقوا ما شاؤوا !

فقال وقد لمس في بيانها الرضا المتظلم ، المقهور : بل انت تريدين ان يرحلوا . وسيرحلون . سادعو حكمون اليهودي الى ابلاغهم اننا بتنا لا نطيق!

وتحرك كمن يتحفز للانجاز . فامسكت به وقالت بحدة :الى اين ؟

فجلجل بنفاد صبر : الى حكمون !

ـ وماذا يقول العرب في البربر وانت تقصي اضيافك عنك ؟

ـ ليقولوا ما يروقهم ان يصموني به من لوثة . فما دام هؤلاء اللاجئون الي يقلقونك في سكينة لبك فليس لهم في اكنافي مقيل !

فاعلنت تأبى عليه الخروج عن المبرة: ليس يقلقني احد. انا بخير ما دمت تجود عليّ بقلبك وتغمرني بحبك النصيح !

فجهر ببيان عهد وميثاق ايمان : ولكني لك بروحي ونعيمي . فاللذة انهلها من فواتنكِ ولا مطمع يقصيني عنك. على ان تكفكفي دمعك وتكفري بالظنة المبطنة بالاثم !

فعمدت الى الكذب تستر به فضيحتها . قالت : أيشوقك ان تعلم لماذا ابكي ؟

ـ بلا ريب يا نجيّة روحي !

ـ آلمني ألا أُرزق ولداً يرث من بعدك هذا المجد الرويّ !

فعلت ضحكته قاصفة مدوّية وقال: أيولمك هذا الحرمان؟... ستقرين عيناً . فالامر جد يسير !

وجذبها اليه بضلاعة فودّت لو طحن عظامها لتشعر به شأنها في مستهل حبهما، بل شأنها قبل ان يعرّج على القبيلة هؤلاء الضيفان ويعكروا الماء الرسيل. الا ان طيف عبدالرحمن كان يرفّ في عينيها، فيبعد بينها وبين «وانسوس» بعداً طروحاً يغيب به زوجها عنها، مع انها منه على عناق مستحكم، والتصاق صليب

٥

« تكفات » لا تدري لمن تشكو داءها . فهي خرساء . تحمل لوعتها في صدرها ولا تجرؤ على بثها . ومن تعالن أنها تهوى عبدالرحمن بن معاوية؟... أتذيع سرّها في سمع القبيلة وجميع من في القبيلة عيون عليها ؟

ودرجت الى حكمون اليهودي تحدثه عن الامير . حديثه او حديثٌ عنه يطربني. فافضى اليها حكمون بكل ما عنده. وما توّرع عن اطلاعها على ميول الفتى الاموي. كان يهوى ميمونة بنت عبدالله بن علي، واذا الموقف يدعو ميمونة الى اذابة روحها فدى الامير. فاقدمت على التضحية ووكلت امر الفتى الى ابنة عمه زينب . وزينب تهيم بعبدالرحمن . ولكن الفتى ... ووقف حكمون عن الايضاح . فصاحت البربرية بجامح الفضول : ماذا يا حكمون ؟... أيخونك الافصاح ؟... ألا انطق بما تحبس في حوانيك !

فدنت شفتاه من اذنها بحذر كأنه يخشى ان يتهادى مقاله الى سواها وهمس بصوت يرتعش فيكاد يمحى : ابلغني سالم ان عبدالرحمن لم يكن يميل اليها . اما الآن ... فلست ادري !

ونفض طوقه وانصرف يزوّي ما بين عينيه كأن اقلقه الافضاء بسر مصون. ونأى عن «تكفات» مخافة التمادي في البوح وفي التمادي العثرة. غير ان البربرية ادركت الفحوى اللباب وانتعش فيها الامل المريض. زينب على شغف بابن عمها ، اما هو فلا ينطوي لها من الهيام على سُقاطة . واطرب هذا الجهر

بالمكنون ابنة الصحراء. فما دام عبدالرحمن لا يدين بحب زينب فلماذا تخفي « تكفات » عنه افتتانها ؟ ... ربما مال اليها قلبه وقد امسى بعد فجيعته بمن احب ذلك الحليّ

واستفحلت فيها شهواتها بعد ركود. ستستأثر بحب الفتى. هذا الامساك عن الامير اعياها وقد تضاءلت دونه عزيمتها . فهي من عبد الرحمن على شغف اغلف لا تقوى فيه على تدويخ. باطلاً تجاهد في التحرر من منازعها. واهتزت بها قدماها الى خيمة الامير وقد طال انقطاعها عنها . فابتسم عبدالرحمن وهي تعرض له بسمرتها اللدنة وقال مداعباً : بتّ لا ادري من الضيف على الربع يا تكفات ، أنحن ام انتِ ؟

فاجابت ببشر طليق : انت رب الدار يا مولاي الامير !

فاستوضح برفق خميل : هل تبرّمتِ بنا فكرهت الجلوس الينا ؟... اننا لنراكِ منا على قطيعة ودأبك النأي عن الحمى منذ حللنا فيه !

فاتقدت باصرتاها باشعة وارفة من الجذل استضاء بها محياها. فان منها في نفس الامير شيئاً ما دام يلفته هجرانها الحيّ . قالت والبهجة المبسام تبسط شفتيها وتزمّ حدقتيها : عفواً يا مولاي ، ما انصرفت عن الحمى الا ضناً مني براحتكم . فقد خشيت ان تزعجكم خطراتي . انت في جراحك بحاجة الى السكون !

— وبحاجة الى حديثك العذب يا تكفات ، والى حنوّك الجمّ !

فكأنه صبّ في دمها النار . فارتجفت ركبتاها ويداها ورقصت حنجرتها . وما تراءى لها في ما تفوّه به مجاملة ، بل حب صفيّ . قالت وقد ماعت كالمعدن السائل صهره الضرام : مولاي الامير يشوقه المزاح ،

أيحفل بمثلي والى قربه زينب المعطار الانوس ؟

وتكلمت فيها غيرتها. بل شاءت ان تجس نبض الامير لتستجلي مقامها منه . أيعدلها بزينب ابنة عمه ؟ . . . فكان الجواب : انت وزينب في مقام واحد عندي يا تكفات !

فغمرتها موجة من نشوة أمالتها عن صوابها ، ولم يبق لديها ريب ان الامير يهواها. ونظرت اليه بعينين يندلع منهما الحب السبوح وما استطاعت النطق . فهي تحترق . ورمقتها زينب في غشيانها فخافت منها على نفسها . ففي ما اسمعها اياه عبدالرحمن ما يحيي في صدرها الامل الفسيح . فهل نُشرت ميمونة بنت عبدالله في « تكفات » البربرية ؟ ... أتظل تقع زينب على من يزاحمها في منيف رجاوتها ؟

ومع كل ألم سطا عليها وقف بها نبلُ الطبع عن مباحثة ابن عمها في ما اشعل من لظى. قد يكون عبدالرحمن بريئاً في مجاملته. فما لحقت به زينب الى كبد الصحراء لتحاسبه في كلمة ونظرة ، حتى ولا في هوى طريف . فاذا ران عليه وجد طارىء فانها لتستعذب التضحية ، والتضحية في الحب منتهى الولوع

وانسابت «تكفات» الى فراشها ، وقد اعتكر الليل ، تتمايل على منى بواسم . وتغلغلت بين الفراش والغطاء تحاول ان تضيع عما حولها. وناداها «وانسوس» ودفع عنها اللحاف وهزها فتظاهرت بانها غارقة في رقدتها . فجذبها اليه بشدة فصاحت بغضب : دعني ، دعني. ان تكن تستطيب السهر ففي سواك حاجة الى النوم !

وعادت تنشر الغطاء عليها. فقال وانسوس : انهضي ، جئتك بما يرضيكِ !

ولمع في يده عقد جميل الصياغة. ورفعها اليه كي يطوّق جيدها بالقلادة النفيسة. فتأففت ونبرت : ألا تصبر حتى الصباح ؟

واستهانت بالعقد وهي تنغمس في ما هو اروع واشهى. فقال «وانسوس» وقد استلذ احراجها: هذا عقد من اللؤلؤ لم يشرق نظيره في الربع . حمله اليّ رجالي من الشاطىء في غزوة موفقة. ويسرّني ان ازين به الساعة عنقك!

فهتفت متبرّمة بسلخها من رؤاها : بل دعني الى غد !

ـ محال !

وامسك بها ولفّ بالعقد جيدها وهو يقهقه ضاحكاً لممانعتها . وصاح بطرب : ما اجملكِ فيه . انك لآية من نضارة !

وقبلها في فمها الالمى وهي تشدد في الانفلات منه كي تعود الى ضجعتها. وما اسمعته كلمة شكر وقد ظلت حياله على برطمتها . وتهاوت في فراشها والامير الاموي في قلبها وبصرها. ومضى « وانسوس » في ضحكته راضياً مسروراً وفي ظنه انه ارضى امرأته فيما يحرجها في غفوتها وقد زان بالعقد نحرها . وما هذا الجفاء فيها غير حباب سريع الانطفاء مبعثه فرط الدلال

ولم تنم « تكفات » . فالجمرة الملتهبة تفاقم سعيرها . وطال عليها الليل. فنهضت مراراً من فراشها النابي بها لتستلقي الى ديوان في الخيمة. بل هي لم تكن تغفو حتى على الديوان، فتنقلب عنه كأنها تضطجع على شوك ومسمار

وتضيق بها الخيمة فتنطلق منها الى العراء لتستوضح الليل متى يأذن في الاحتجاب. واضناها ان يقيم عبدالرحمن على خطوة منها وليس لها اليه سبيل. وودت لو تنام كي تنجو من الارق ، من حرقة السهاد . فما ظفرت بامنيتها الا والفجر يسيل على نثير الرمال . سمرةٌ تلتوي على سمرة . ولم تستيقظ

الا والشمس تختال في رحيب الاجواء

والتهبت فوراً بحبها المجتاح وهي تنضو عنها غفوتها. فقامت الى الحناء تخضب بها يديها . ورجّلت شعرها . واكتحلت بالاثمد . وتبرجت مثلها في يوم عرسها . ومشت الى خيمة عبدالرحمن وفي جيدها عقد اللؤلؤ هدية « وانسوس » اليها ، وفي يمناها قارورة من العطر ، وعلى يسراها طبقٌ من الافاويه . وبدت بباب الخيمة مرنحة الاعطاف ، خضلة البشاشة . وافاضت بتحية عذبة : السلام على الامير !

وألقت بين يديه الطبق وهي تقول ببسمتها الخفيّة : هذا بعض ما وقعت عليه في خيمتي من خير سيدي ، انه لقليل في قدر الامير الكريم !

فاعلن الامير ببهجة غلاّبة : اسرفت يا تكفات . هذه الاريحية من شيم قبيلتكم المعطاء !

فالتفتت البربرية الى زينب تهدي الى ابنة سليمان بن هشام قارورة العطر قائلة : هي لك يا زينة الربع تتعطرين بها ، وقد فاتتك في الصحراء الجافة طراوة المدينة ، ونأى عنك ما تعوّدت من رخاء ثريّ !

فشكرت زينب للبربرية السمحة هديتها . وتوسدت « تكفات » البساط على خطوة من عبدالرحمن كأن الامير بات لها ، وكأنها تحميه من كل من يحاول اقتطاعه منها . ومالت الى بثّ هواها الطفحان . فالسر يجب ان يعلن وقد بات يهدد بالانفجار . غير ان زينب لم تكن تبرح الخيمة كأنها شعرت بما ينتفض في صدر البربرية من مقال لجوج نشوان . فما احمدت ظنونها قارورة العطر وقصد « تكفات » من الهدية ان تنيم في الاموية الحذر والارتياب وبدا « وانسوس » يجرّ وراءه غنائم صيد حظيظ ، فرحبت به القبيلة

بالاهازيج شأنها كلما عاد من نضال منصور. وغرّ المشهد زينب فدرجت اليه يصحبها حكمون. وتنفست «تكفات» والجو يخلو لها وسددت الى الامير عينين تفضحان ميولها الفائرة. وادرك عبدالرحمن ما بها فقال بابتسامة الاستدراج الخالبة: إيه يا تكفات، ما عندكِ؟... هاتي!

هذه نهزة التبيان. عبدالرحمن مهد عفواً للبربرية الى مشتهاها. قالت وهي تترجّح من الهوى على فيض تعلّة: لست اعلم ما صنعت بي ايها الامير. نفثت في عروقي ما يثلج صدرك ويكويني!

وتمطى فيها دمعها فاخفت وجهها بيديها وغارت في بكاء ملتاع. فصاح بها عبدالرحمن وقد آلمته حسرتها: تكفات، أتتوجعين؟... ما بك؟... بابي انت وامي!

فاجابت وهي لا ترفع اليه بصرها ولا تنقطع عن بكائها والدمع امضى سلاح في اقرار الغلبة: دع «تكفات» في حرقتها. ليت عينها لم تقع عليك!

فزادت في شجوه. قال بمرير لهفة: أيضيمك ان اقيم في هذا الربع يا تكفات؟

وامسك بذراعها يجذبها اليه مع ما به من وهن وهو يقول: انظري اليّ. لا تحجبي عني عينيك، بي شوقٌ الى رؤية مرتع الدرّ!

فانقادت الى حيث تجرّها يمينه. ورفعت اليه ناظرين غرقا في ناظريه. وامتزجت انفاسها بانفاسه. قال: لا تبكي. اني لشاعر بما يضنيك. واني لاتألم كما تتألمين وانا من هذا الحسن الانيق على فتون، ومن هذه الفتوّة الرّيا على شغف، الا اني مقيد بوثاق لا اقوى على فكّه عن ساعديّ!

وتنهد . اما هي فاشرق وجهها وجمد دمعها . فقد أحياها بما القى في سمعها من الندى القرير . وانتفى عنها الترح وصالت فيها الغبطة . قالت وهي تكاد تكون في غيبوبة عن نفسها لفرط المسرّة : أصحيح ان الامير يهواني ؟ ... أيصبو سليل المجد الى ابنة الرغام ؟

فودّ لو تريّث في اعلان ما في نفسه ، الا ان البربرية لم تفسح له المجال . قال : أهواكِ يا تكفات . فلماذا انكار ما تنبض به المهجة ، بيد اني لا استطيع التنعم بهواي وانت في عصمة رجل انا ضيف عليه ، بل انا مدين له بالحياة . فاذا كنتِ على صدق في هيامك بي فاخنقي الحب النامي ظلماً في ضلوعك وكوني مني في موقف المضحي النبيل !

فراعتها قسوته مع ايمانها بضرورتها . وتولتها الجهمة بعد الصفاء . فالوَلَهَ المتقد فيها مقضي عليه . ونظر اليها الاموي باسف واشفاق . انه لعاجز كليل . فالوفاء يفرض عليه الترفع ومن الحسة ان ينتهك حرمة المنقذ والمضيف

ونهضت « تكفات » دون ان تتفوّه بكلمة ، بل دون ان تلتفت الى الامير . فسألها عبدالرحمن والحزن يسدل على صوته غشاوة من بحّة : الى اين ؟

فلم تجب . فشاء ان يلحق بها فخذلته همته وهوى في فراشه بعياء . وأطل « وانسوس » يحييه ووراءه معظم افراد القبيلة . فاكره عبدالرحمن نفسه على ابداء الحبور وقال : وعليك السلام يا « وانسوس » ورحمة الله . ارى التوفيق حليفك في قنصك . عوفيت !

فطرح « وانسوس » بين يدي الفتى الاموي ظبيين وعدة عقبان وهو يقول : انه لتوفيق وثاب . ذكرت الامير في جولتي السريعة فحظيت

بما لم اكن ارجو. بارك الله في من حملوا الينا السعد وما نحن من اهله ولا من مستحقيه !

وتلفت «وانسوس» كمن يبحث عن مفقود. واذا به يستوضح بصوت جهير : ولكن اين « تكفات » ؟

ولم تكن في الحشد . وسؤال زوجها عنها دعا الجميع الى الاهتمام بامرها . وعادت العبسة الكالحة تتلبد في اسارير عبدالرحمن. الى اين انتهى الجزع بالبربرية الحسناء ؟

ووثب «وانسوس » الى خيمتها فلم تكن فيها . قال : قد تكون في الواحة . لها الله من عنود حرون !

واعتلى جواده يقفز به الى واحة النخيل . فخلا المكان من «تكفات». و«تكفات »حيث لا تدري . فقد جرّتها قدماها الى كثيب من الرمل ، بعيد عن مضارب القبيلة ، تبكي حبها الذبيح فور حبوته الى النور ، وتتشهى ان يكون نصيبها من دنياها ضجعةً في حفرة ،يحجبها فيها كفنٌ من تراب ، وأبدٌ من ظلام !

٦

قلبان طال عليهما الليل فما ركنا الى غفوة . قلب عبدالرحمن وقلب « تكفات » . فالشاب الاموي أُصيب في كبده وقد ايقن ان البربرية المحترقة بهواه هجرت الحي في سبيله ، وزاد في تفجعه انه لا يقوى على النهوض للبحث عنها ، ولا يطيعه خلقه في مسايرة جواه

ثم ان بجانبه ابنة عمه وهو لها . فان لحاقها به على طول الفسحة ، وهول المشقة ، اوثقه بها . وميمونة اطلقت انفاسها وهي توصيه خيراً بزينب . وانه ليأبى العبث بمشيئة ميمونة

وغاظه ان يكون نشر الامل في صدر « تكفات » وهو يجيبها الى نظراتها الهائمة بنظرات ندّية دلهّتها . انه ليميل اليها وفي نضارتها مواكب صبابات ، ولكن ليس الى حد سلخها من زوجها المفضال

وتململ في رقدته ، وشاء ان يعرف الى اين لجأت « تكفات » . ولو عرف مقرها لزحف اليها يعود بها الى الربع مع كل ما ينتابه من خور وسقام . وينادي في الفينة بعد الفينة خادمه سالماً ويسأله هل اهتدت القبيلة الى امرأة زعيمها الشرود ؟

والقبيلة باسرها انطلقت الى البحث عن « تكفات » وما كلفها « وانسوس » هذا الجهد . ولكن اخلاصها لزعيمها دفعها الى انتضاء مروءتها . فاقامت الليل بطوله تجوب المفاوز ولا تهتدي . وطلع عليها الصباح وهي لا تبرح تخبط

في ليل. فخلت الرمال من كل أثر للهاربة كأن « تكفات » طارت بجناحين من ضباب

وظل « وانسوس » على معتقده ان « تكفات » تغار من زينب . فقال حانقاً : عفا الله عن حكمون اليهودي ، رماني ببلية لست ادري كيف انجو منها . كنت في اسعد عيش ، فاذا بي في انكد حال !

واطلق جواده مرخيّ العنان يجري على هواه. وجالت باصرتاه في كل ناحية من ذلك الفضاء النائي الاطراف والمضض يغلي في صدره ويتنزى زفرات . ان « وانسوس » ليتقد شوقاً الى هذه السمراء الهاجرة وقد اعرض لاجلها عن جميع النساء

وشخص بلفتة متوترة ، حانقة ، الى البطاح المترامية عن يمينه ، فلاحت له في كبدها وشمة سوداء كبقيا كدرة تتلاشى في الضمير التائب الحي. فحثّ اليها جواده يحدوه املٌ رثّ . غير انه كلما دنا منها انتعشت في قلبه الواعي فضالات الرجاء . هذه « تكفات » تضاجع الرمال

ولكن ما بها لا تتحرك ؟... وقذف بجواده اليها على خوف وطرب. وناداها باعلى صوته : تكفات ، تكفات ، هوذا « وانسوس » يقبل اليكِ ، فهلا فتحت له الذراعين ؟

وقبل ان يتسع الاوان للجواب وقف الجواد بفارسه عند الجثمان الملّح في معانقة مثواه. ووثب اليه الفارس ورفعه بين يديه وهو يتطاير في عاصفة من الابتهاج والتأنيب: تكفات ، اي جنون نفخ فيكِ الحرد فاقصاكِ عني الى هذا المدى السحيق ؟ ... انك لحمقاء ، أتؤذين نفسك وتقلقين عيشك وليس للقلق والاذى مجال ؟

وما رقب منها بياناً . فهو لا يبغي الا ان يجدها على رمق . وألقى بها على متن جواده ينكفىء بها الى الحي وصيحاته في اعوانه تجوب المفاوز كالاعصار: عودوا الى الربع . « وانسوس » و« تكفات » يرجعان اليه معاً !

ولم يخاطب « تكفات » الا وقد اطمأن الى وقوع ندائه في مسامع رجاله . فرنا عندذاك الى امرأته الناشز وهو يعلن بموجة من امتعاض: لا اراك مذ حلّ الامير بيننا على سوى رجرجة مقطاع . فلا تهدأ في الحيّ قدماكِ . هذه مصيبة نفحنا بها حكمون اليهودي . والله لا كرهنّه الليلة ورهطه على الوداع . نزولهم بيننا كان ضربة علينا . فما عرفت قبل اليوم الى جانبك الكدر ، ولا خطرتِ امامي متألمة حيرى !

فلزمت الصمت كأنها في غفوة . قال : اريد ان اعلم ما يشجيك . فما بكِ تكتمين عني آلامك ؟ ... ألا يجوز ان توضحي لي امرك كي انقذك من اثقالكِ ؟

فلم تكن تسمع . وربما لم تكن تشعر بانها بين يديه . فهي في غفلة عما يحدثها به . انها لتفكر في هذا الحب الراسي في اعماقها وترغب في انتزاعه وليست توفق لمسعاها . فالتيار امضى ساعداً منها

وطرقت صيحات « وانسوس » آذان رجاله الباحثين عن « تكفات » فحاموا عليه يشاطرونه المسرّة . وانتظموا في موكب بهيج عائدين الى القبيلة على هزج ممراع . وسمعهم عبدالرحمن في حدائهم فترنح بلذة البشرى . عادت « تكفات » الى مضارب القبيلة سليمة من المضرّة . غير انه رهب هذه العودة مع صبوته اليها . وودّ لو لم يعرج على هذا الربع وقد اقلق ظهوره فيه القلوب المطمئنة . واوفد زينب ابنة عمه تستوضح امر « تكفات »

وتؤانسها . وبدا من البربرية جمود مخوف . فقال من رآها : مجنونة !

الا انه جنون عاقل يرين عليه الهدوء . وتعب « وانسوس » في حملها على النطق فاستعصت عليه . وتألمت لحالتها نساء القبيلة وهي تغوص في جمودها ساهية ، واجمة . فتعرض عن الطعام والشراب وكانت تعيف ما يلقى اليها من الطيبات

واندفع « وانسوس » الى حكمون اليهودي يشكو له امرها . قال : حكمون ، هي تغار من زينب على اعتقاد منها ان الاموية تهواني !

فاطرق حكمون . لا يبوح السر مغلقاً على « وانسوس » . اجل ، « تكفات » تغار من زينب ، ولكنها تغار منها على عبدالرحمن لا على « وانسوس » البربري . واليهودي الشيخ ملمّ بالنبأ الخفي ، بيد انه مطويّ على الكتمان . وخشي اتساع البلية فحدثته النفس بهجران القبيلة ، ولكن كيف يقوى على الهجران وجراح الامير لا تبوح سيّالة لهبى ؟

وساد البحران القبيلة . فتلاشت البسمات في الشفاه وتراكمت الاشجان في الحواني كأن الربع في مأتم . كلهم تائه اللب ، حزين . وما غاب عن زينب بنت سليمان لباب الاحجية . فهي وحكمون على بيّنة مما يقلق الحمى . وما برحت تستعذب التضحية ولن تكون عقبة في طريق عبدالرحمن

وعبدالرحمن شقّ عليه ان يثير الريب والالم في النفوس فصمم على الرحيل مستخفاً بالحياة . شاء ان يحتجب عن « تكفات » فلا يراها ولا يخاطبها . ففي الليل سيطوي بساطه ويعتلي أسنمة النياق فراراً من جو بات مظلماً ثقيلاً . وخجل من « وانسوس » السمح النجد . أيبادله الخيانة بالمعروف ؟

وتحفز للنهوض مستهيناً بجراحه . غير انه لم يشعر بسوى يد تهزه في العتمة . فارتعد . من انسلّ الى خيمته ؟.... وماج في مسمعه صوت أجش يقول : عبدالرحمن ، على مَ عوّلت ؟... أتسالم وتحقق طلبتي ، ام تخاصم وتمضي في الايلام ؟

وضغطت اليد الممعنة في هزه ساعده فارتج عليه . ما غاب عنه انه ازاء « تكفات » وقد زحفت اليه باحقادها وشهواتها . وتعالى فحيحها مهدداً ينم على ما تتلظى به من اضطغان : تكلم . أيشوقك ان تجفو ؟... والله ، لن ابقي عليك اذا جبهتني بالصدود !

فبلع ريقه . على انه استطاع ان يملك هدوءه وان يجمجم : تكفات ، خففي عنكِ واجلسي هنا ، بجانبي . فما لنا وللغضب وليس يجدي . علينا ان نتحدث برفق ولين !

فنبرت بغيظ : لا حاجة بنا الى الاستطالة في الحديث والامر لا يعدو كلمتين . أأنت لي ام لابنة عمك زينب ؟

قال يدّرع جميل الصبر : اجلسي . لا تحتدمي . ساعرض عليك موقفي . انا لست كارهاً لك كي تتفاقم فيك سورة النقمة عليّ !

فازال بعض حدتها . واستقرت بلصقه ترقب منه الايضاح ، فاعلن : حبك مالكٌ عناني ، الا اني فيه حسير . هلا رحمتِ ما ينبض في ضميري من احاسيس الوفاء ؟ ... ان « وانسوس » لمفضال شريف فلنحرص منه على الكرامة ولنخلع من نفسينا حباً يكتب علينا الغدر والعار !

فما كان منها الا ان انقضت عليه تمسك بخناقه بيديها المتشنجة اعصابها وهي تدمدم عليه : ايها القاتل ، أتتحدث عن الوفاء وانت تذيقني في كل

ثانية مرارة الموت ؟ ...انك لتقتلني بحبك الماحي ، فمن قادك الى هذا الربع؟... من رمانا بك تذبحنا ولا تشفق فينا على نزير من هناء ؟...أتجرح قلبي ولا تضمده وانت القابض بيمينك على البلسم والضمادة ؟ ...ما انت الا جلف . ولكن هذا الاعراض عن ضحيتك سيكلفك ايامك . فما ذنبي وقد شغفت بك ،ما ذنبي الا اني ابصرتك فينا وكان عليك ألا تبدو وانت نافث السقم والبخيل بالابراء .أتنطوون جميعاً ابناء الحضر على اللؤم والظلم ؟... لست اجهل ما دفعك الينا . فالفهري يبث عليك الارصاد !

وخشنت في وعيدها حتى تناست كل مهزة من نبل . فقال عبدالرحمن يداعبها وقد احتملَ فيها فحولة ثورتها : أأنت من الوشاة ؟

– من الوشاة . فمن يمزق قلبي اخطف روحه . لا تحسبن « تكفات » ترقد على ضيم يراد بها .ان انفاسك لفي يدي وبوسعي ان اطرحك الساعة بين اشداق اعدائك اذا مضيت في الاعراض عمن جذبتها اليك ثم رذلتها. أيلوح لك من الهين نسف العلالة ونحر الصبوة ؟

فاستطلعها بلين: أتبيحينني للفهري دون شفقة منكِ عليّ ؟

فتطاير من شفتيها الزبد وتدفقت كلماتها من صدرها عواء جريحاً يشفّ عن مديد التياع :لن اشفق على من لا يشفق على قلبي . حبي المنبوذ يحملني على الانتقام . انه ليقودني الى الجريمة ،الى سفك الدم . بل يقودني تناهياً في التشفي الى الزنى المباح يا كافر المهجة ، السافل القلب !

قال يدعوها الى الرشد: رويدك .نحن في موقف لا يبيح لنا الاستسلام الى امانينا .ألا تنبض فيك رَقّةٌ من تضحية ،خافقة من هدى ؟

فبربرت وهي تكاد تنشقّ : التضحية اجهلها وما خُلقت لها . ان حبي ليعصرني حتى يكاد يذيبني ولا اراني اقوى على الاحتمال . فان تكن تهيم بي ، كما تدعي ، فلنرحل الى حيث ننعم بهوانا ، او فليضمنا قبر . خذ بيدي وانقذني مما اكابد من ويل !

ومدت له يدها فلم يرفع لها يمينه . فاعولت من كبد تنزف قهراً ويأساً : أتتردد ؟ ... أتستهين بي ؟... لا والله ، لا انا ولا انت . موتك عندي اشهى اليّ من بقائك ما دمت تبغي تعذيبي . قطع رأسك بسيف الفهري خير امنية لي وانت تصدّ عني . وساشاهد بعيني هامتك تتدهده مفصولة عن عنقك المضروب . وساندفع اليك وانت تنتفض في دمك اسألك عن لذة التضحية . سارقص على اشلائك ولحدك و كبدي مبتهجة ونفسي مشرقة . يا كافر ، لتذوقن مضض الانتقام !

وبدت في ابعد مرحلة من مراحل النقمة . قال يلاطفها : عودي الى صوابكِ . ازيلي عنك الجنون المطبق . صدودي عنكِ مقدور عليّ وانا فيه شقيّ مثلك ، وربما كنت اشقى منك . آه لو تدركين !

وامسك بيدها وهو يزفر وقال بجفيّ الاباء : رفقاً بمن حولنا . ليتحطم قلبانا في سبيل زوجك الكريم . لنكن شقيقين لا حبيبين . نحن لم نخلق لنتبادل الهوى على شدة عصف الهوى بنا . يعزّ عليّ ان اخون «وانسوس» يا « تكفات » وهو مجيري . فاذا كنت لا ترحمين زوجك وقد نبت عنه نوازعك فارحميني وصونيني من زلة الغدر . فان لاقدارنا علينا حقاً . ولن تجيز لنا اقدارنا ان ننتهك حرمة ذي اليد عندنا . هلا عطفت علينا في احسابنا ومخايلنا ؟

فلم تسمع . بل هي لم تشأ ان تسمع وكل ما فيها يغلي ويفور. قالت: دع عنك المداورة . انت لا تهواني بل تضحك مني . انت تهيم بزينب. على اني ساهدم فيك كل حياة . ساطرحك للديدان تأكل قلبك . اني لمنطلقة الساعة الى الفهري ادله عليك لنهشك واتلافك . وسوف ترى !

واجفلت ترقب منه ان يناديها، ان يدعوها اليه. فتماسك يأبى الفضيحة وسيعلو صوته في الليل فيوقظ النيام وينشر في القبيلة ظنون السوء . لن يلطخ ثوبه النقي بالخداع ويطعن المحسنين اليه في سليم اعراضهم، والا فاين الولاء والحفاظ والاقرار بحسن الصنيع؟... وما كان ليؤمن بان «تكفات» ستطير الى الفهري لنفث نميمة، كأنه يجهل خوارق الحب الملسوع وتباريح الخيبة . و « تكفات » لما يئست من صيحة النداء ركبت فوراً قنوطها السبوح مندفعة في المدى الارحب الى الفهري الخشيان على نفسه من الفتى الاموي، لا ترهب وحشة الليل ولا هول البادية. وخيل الى عبدالرحمن انها عادت الى خيمتها فاعتزم في الصباح استرضاءها ولم تكن تسعفه قواه في النهوض الى هذه الحانقة فيجرّها اليه ويقنعها بفساد جماحها . ولكن «تكفات» تطوي الفدافد كالناقة الشرود، لا تبرد لها عين ولا تقرّ شهوة. فالحب المهين فيها ينتابه نواح وزئير

وهي تعرف الفهري وتعرف مقامه . جاء بها اليه «وانسوس» ونعما معاً بضيافته السمحة . ولم تكن تجهل انها ستلقى لديه الرحابة القصوى وقد اقبلت ترشده الى مكمن مزاحمه المخيف

ولم تحفل بما سيصيب الفتى الاموي منها مع يقينها انها تقضي عليه بوشايتها به . قتلها في اسمى عاطفة وستحرمه أجدى امنية ، بل ستحرمه

مدّة الانفاس وخنق الحب اشبه بالذبح الهتّاك . واحدة بواحدة !

ولم تشعر بتعب على بعد الدار، ولا رهبت ألم الجوع، ولا ارتعشت وهي تذكر وحوش الصحراء، بل ظلت تشق الرمال كأنها تستخف بالخطر وبالعياء. وما شكت غير العطش. فتجمد ريقها وطفا زبداً على شدقيها، الا انها غالبت كل عقبة. ولفّها الليل بعباءته السفعاء فما غمضت لها عين. وابت ان تتمدد على الرمال وتتذوّق بعض الدعة ولن تني عن وثبتها الا وقد بلغت المنتهى وتناست زوجها. ليقل فيها ما شاء. فهي ليست له وقد اضحت لانتقامها العنيد . وطلع عليها الصباح واذا عيناها ترّقان على قافلة تجتاز الصحراء. فلحقت برجال القافلة تستأنس بهم وترجو ان يهبوا لها شربة ماء. وادهشهم ان يبصروها وحيدة ، شريدة، في عرض المفازة القاحلة. وادركوها بالماء وهم يقولون : ما بكِ ؟... ان الكمدة لتنطق بجهارة في محياكِ !

فتنفست ملياً والماء يرطب حلقها وقالت: نزلت بي غاشية دهماء قادتني متظلمة الى الفهري !

— وما يشجيكِ ؟

فلاذت بالصمت . وأجّلوا فيها صمتها فتهيّبوا احراجها . قالوا: ونحن نسير الى الفهري . هذه مطايانا فاختاري احداها !

وحملوا اليها الزاد فاكلت مجاملة وليست تشتهي الطعام . لقد كرهت العيش وكرهت ما يستبقيها لغدها بعد نكبتها بجنانها . فكل ما اضحت تطمع فيه قتل قاتلها ، وبعدذاك فما اطيب الموت واحقر الحياة !

وترجحت على سنام ناقة ذلول . وانغمست القافلة في بهرة الرمال و « تكفات » على مطيتها لا ترى ولا تعي. فليست تدري كيف هي ولا

اين هي .وعندما تستيقظ آناً بعد آن من غشيانها تحدق الى الافق وتجود بزفراتها ، وتودّ لو تملك القافلة قوة امضى على المسير لتبلغ في اقرب آن عاصمة الفهري الامير

ويخطر لها احياناً ان تثب الى الارض وتنطلق ركضاً الى بلاط سيد المغرب . فالقافلة بطيئة المهزة و« تكفات » ترغب في الوصول الساعة الى الفهري وهي تتضرم شوقاً للنيل من الاموي الجميل العابث بمهجتها المريضة ، الصائرة الى الانطفاء. وذكرت امسها الوئيد المريء ويومها القلق السخين. وتعجبت من سرعتها في اجتياز مراحل الحب اللدود العاصف بها . فما ان اسفر حتى ادمى .بدا نسيماً ليناً وامسى اعصاراً ، بل زلزالاً .فاحرق والتهم واجتاح واباد. فما كان اغناها عن الذوبان في سعيره وقد اطاحها . وعادت تلعن حكمون اليهودي في سوقه الى الربع الضيوف المناكيد وكأنه حمل اليها الهلكة . وتخجل من نفسها ومن زوجها في استسلامها الى بادرة الحنين الهوجاء وفي ركوبها مركب الوشاية وتصمم على العودة ، غير انها لا توشك ان تعتزم الوقوف عن وثبتها الطائشة حتى تخجل من قلبها المشخن جراحاً وتذعن لنداء هواها الطعين المستنجد بها يحثها على انصافه وشفائه من طاحن الرزيئة

وما اشرقت طلعتها الا وقد تمايلت في عينيها المآذن الكاسية بوقارها عاصمة امير المغرب . فان بينها وبين هدفها لساعات قلائل . ولن تقضي نحبها في هذه الفترة وهو ما كانت ترهب في اجتياز الصحراء

وعمدت الى التفكير في ما تخاطب به سيد القطر . ستقول له: عدوك الاموي في ربع « وانسوس » وقد دفعه اليه حكمون اليهودي !

ولم تحفل بما سوف ينال زوجها من لهب الغضبة. ليمت عبدالرحمن بن معاوية وليذهب في اثره الجميع . وهي في الطليعة . وما دامت لا تبالي امر نفسها فهل تبالي امر سواها ؟

وعبدالرحمن بن حبيب الفهري، وقد هالته مكيدة حكمون اليهودي، ونجاة الامير الاموي من الفخ المنصوب ، اقلق المغرب في البحث عن الفارين . ولم يؤلمه خلاص الاموي من الاحبولة كخدعة اليهودي المحتال، ذاك الغراب الابيض . قال : نصف مالي لمن يأتيني بهما حيين او ميتين ، بل نصف مالي لمن يجيئني بحكمون على نزفة من رمق !

فما اهتدى الى الضالة . وخاف سوء المغبة فاقام على حذر . قد يجد الاموي انصاراً يؤيدونه وينادون به سيد افريقيا . وماذا يلمّ عندذاك بالفهري ؟ ... فلا بد من خوض القتال . وربما ضعضعته الصدمة . فان حفيد هشام بن عبد الملك ليلقى من العون والرحابة ما يضيق به عامل من عمّال الامويين

وشعر رجاله بجفائه ونفاره فتحاموا الدنو منه لئلا يغشاهم اذاه . وفيما يصغي في صباح احد الايام الى حديث نجيّ له عن استقرار العباسيين بالكوفة، وامتلاكهم الخلافة دون حفدة علي بن ابي طالب، اذا حاجبه يبدو ويقول: بالباب فتاة بربرية تستأذن على مولاي الامير !

فتضايق وتجلى امتعاضه في اساريره وحركاته . قال متأففاً : دعني منها . هذا ليس اوان المظالم !

– هي تلّح في رؤية مولاي. وسقط اليّ منها انها تحمل النبأ الخطير !

فومضت عينا الفهري ببريق الفضول واتسعتا وما لبث ان قال : لا

بأس ، فلتدخل !

وما كادت تمثل في حضرته بعينيها التائهتين، وسمرتها الدكناء ، وشعرها الجعد المنبوش ، حتى تجلى له منها انها تبطن امراً جللاً . واطال النظر اليها فارتعشت في خاطره ذكرى بعيدة. هو يعرف هذه المرأة الواقفة بين يديه، ولكنه يجهل اسمها . قال : ما بكِ يا ابنة الخير ؟

وفتح لها اذنيه . قالت : والله يا كريم الوالدين ، جئتك في ما تتحرق شوقاً الى ادراكه ولا تخترق سره . انا مقبلة اليك من قبيلة «وانسوس»، احد مواليك ، بل انا امرأة « وانسوس » نفسه . شهدتُ مداورة انت فيها مغبون الصفقة ، فاسرعت لاطلاعك على خبائثها !

فتذكر . هذه « تكفات ». وبسم لها وهي تكشف حقيقتها . الا انها لا تملك نضارة الامس ، يوم بدت له فاتنة مزهوّة . قال وكله صبوة الى سماعها : واي مداورة شهدت يا «تكفات»، يا لسان الصدق ويمين الحميّة ؟

فاجابت تتصنع الالغاز، وقد حاولت اعلان اسم عبدالرحمن بن معاوية فعاندتها شفتاها في التلفظ به : العتب كله على حكمون !

فصاح بارتعاش : حكمون اليهودي ؟

— هو هو !

— أيكون بينكم ؟

— اللئيم ورهطه في الربع . والجميع ممن لا يرضى عنهم سيدي الامير !

فزمجر بشراسة حاطمة : رهطه؟... ومن رهطه ؟ ... الفتى الاموي؟

— الاموي في النظيرة يا طويل العمر !

واباح لها حقدها المتلاف اطلاق وشايتها بمن قهر قلبها. وجمدت عينا

الفهري على مسرة وارتباك . قال : وهل اجاز لهم « وانسوس » النزول ضيوفاً عليه ؟

فعمدت الى انقاذ زوجها من الورطة . قالت: « وانسوس » لا يعرف من امرهم الا انهم ضيوف . ولما جلوت له سرّهم أنفذني اليك في ابلاغك جسيم النبأ !

— وهل شعروا بمجيئك الينا ؟

فقلبت شفتيها توضح انها تجهل ما تمخضت به المضارب بعد رحيلها عنها . ووقف منها الفهري موقف المرتاب وهو يراها تراوغ في اجوبتها . الا ان روغانها ليس دليلاً على كذبها في جميع ما أدلت به . قد يكون ما حملها على السعاية بالفتى الاموي وبحكمون اليهودي غير الاخلاص للوالي صاحب السلطان، على ان في مقالها زبدة من صدق. قال الفهري يجس فيها مناعة البيان : تكفات ، أتدرين ما تعرّضكِ له المجازفة بي ؟ ... أمؤمنة انت بما تعلنين ؟

فاجابت بعزم : للامير ان يضرب عنقي اذا بدا له مني اني احدثه بالبهتان !

فقال مهدداً : وهو ما سافعل يا تكفات . فاحذري الافك وهو يودي بك !

فاصرت على التوكيد وليست تخاتل . فنادى حاجبه يدعوه الى تجهيز مائة فارس لغزو قبيلة « وانسوس ». فاذا اهتدوا في الربع الى اليهودي، وعبدالرحمن بن معاوية الاموي ، فليخلوا سبيل « تكفات » بامان ، والا فليعودوا بها اليه ونصيبها منه التذليل ، بل سحق الرأس

٧

انطلق الفرسان المائة الى قبيلة « وانسوس » يزمّون اردان الصحراء و« تكفات » في هودج ثريّ ،وثير ، كأنها من ربات الخدور والقصور . على انها راضية وغير راضية عما تلقى . فتميل الى تحطيم الاموي وتعاند في الاساءة اليه وهي لا تبرح على شغفها به . فالحقد الكامن فيها ضلّ قصده ، فالتوى رحمةً فحناناً فهياماً ذكيّ السعير

وشعرت بانها لا تزال هي اياها ،تلك العاشقة الولهى . وتولاها كسوف مهيض . فمن نفر بها الى بلاط الفهري وهزّها الى السعاية بمن تفتدي ؟... يا للرحلة النكداء ،المجيء فيها حفيظة تثور والعودة ندامة تكوي الضمير . أتدري «تكفات» اي ويل حاكت يداها ،واي شر ضربت به أعزّ الناس عليها ؟

ستفرّ من الهودج وتضيع في الصحراء ، بل ستقتل نفسها . وقبضت يمينها على مدية تروم بها الانتحار ،ولكنها ابت ان تموت الا وقد انقذت عبدالرحمن بن معاوية من الخطر اللهيم . ولم تأكل ولم ترقد . فالندم كالحيية حرمها الهناء

بلى ،نامت ساعة من الزمن ،الا انها كانت عليها ساعة شؤم وهول . فتجلى لها الاموي يلعنها ويعيّرها الغدر بالضيف فيما تتخاطفه نصال الفهري . وخلع قلبها ما تراءى لها فاستيقظت تضطرب على ذعر . وتلفتت الى ما حولها تبحث عن عبدالرحمن لتستغفره وتسأله راجح المغفرة . ولكن اين

عبدالرحمن ؟... فانهلّ الدمع من مآقيها. هي سائرة اليه لتطرحه بين ايدي الساعين لحقه . واكبّت على وجهها تنتحب وتقول : عفوك عن الاثيمة ، عن الجانية عليك !

وصممت على انقاذه. هي جازفت به وهي ستصونه . فان ثمة طريقين الى القبيلة ، الطريق العريض السهل ، والطريق الضيق الوعر الحائمة عليه كثبان الرمل وليس يفوز باقتحامه غير من ركب قدميه . وهو طريق يختصر المسافة ، فيبلغ وشيكاً من يسلكه مضارب القبيلة ويسبق اليها الفارس بزمن رحراح

واعتمدت « تكفات » على هذا الطريق وقد ارتسم في ناظريها الحمى. فتدلت من الهودج على غفلة من الارصاد وارتمت على الرمل لا تعلو لها ضجة ، وزحفت الى الطريق الوعر تنساب فيه بخفة الظبي النفور

وبلغت المضارب وهي لا تصدق انها تجوس الحي . وسقطت خائرة متلاشية تجاه خيمة عبدالرحمن وقد اعياها النطق. فالقت يدها الى صدرها تجاهد في نفث سرها . قالت بكلام يقطعه اللهاث المستفيض : عجّلوا في الهرب ... اقبل رجال الفهري... للقبض على عبد الرحمن بن معاوية ... وعلى حكمون... ليسرع الرهط في الفرار ... سبقتهم باختصار الطريق !

فجزعت القبيلة و« تكفات » تفيض بانذارها . افتضح الامر . ما غابت امرأة الزعيم عن الربع لسوى الوشاية بالاضياف . وهي غيبة اثارت الظنة واطلقت لسان عبدالرحمن بن معاوية. فباح الفتى لحكمون اليهودي بما كان فيه من البربرية . فارتجف حكمون وقال مرعوباً : وهل ركبت هواها الكسيح الى الفهري الحقود؟... لا كانت المفضوحة العرض. علينا

بان نكون على أهبة !

وحدث « وانسوس » بالخبر اليقين. « تكفات » هجرت الربع للسعاية بالامير الاموي وقد صدّ عنها . فهبط الزعيم البربري من شاهق منعته . «تكفات» الحسناء تخدعه عن نفسه. فما ومضت فيها بوادر القطيعة والذهول لسوى هيامها بالفتى الاموي . يا للفاجرة المحتالة ! ... حسبها تغار عليه في حيرتها وكمدتها فاذا بها تغار على الامير

واتسع صدر «وانسوس» للرزيئة . واعلن في «تكفات» حكمه. قضى عليها بالموت. غير ان سجيته المطبوعة على المروءة والحلم فرضت عليه اخفاء نقمته والتوفر على انقاذ ضيوفه . فالانتقام طويل مداه ، حاضر اوانه ، اما انقاذ الضيفان فلا سبيل اليه ان لم يقرّ له قبل الموعد التدبير النجيع

ودعا « وانسوس » رجاله الى حفر نفق طويل تحت كثبان الرمل يقيم فيه عبدالرحمن واخوانه على طرف من دعة ريثما يتقهقر عن المضارب رجال الفهري . وما اذاعت « تكفات » في الربع ان الجنود أطلوا حتى كان النفق يرحب بالضيوف . فحمل رجال القبيلة عبدالرحمن بن معاوية على المحفة واودعوه المأوى الآمن ، بين حكمون وزينب والخادمين سالم وبدر . واستعاد الحي طمأنينته. فليس للاذية ان تخدش فيه هناءة المثوى

وطغى الفرسان على المضارب كأنهم يفجأونها بالغزو المتلاف . فطفر اليهم « وانسوس » يبدي البشاشة : مرحباً بالاصدقاء !

ونضا عن نفسه كل وهن وخشية . فهو اذا جرض بريقه ضاع واضاع قومه . ومال عليه قائد الكوكبة يحييه ويقول : نحن رسل اميرنا الفهري اليك يا « وانسوس » . بلغ الامير عنك ان في مضاربك لاعدائه متكئاً

فاطلقنا الى ربعك يشدد عليك في ان تهب له هؤلاء الاعداء !

فابدى « وانسوس » الدهش . أيكون اعداء الفهري في الحي ولا يطير بهم الى الامير مكبلين بالقيود ؟ ... قال : ومن هم هؤلاء الاعداء يا صاحبي؟... بابي انت وامي ، ليس في الديار غريب !

– ولكننا على يقين يا « وانسوس » ان مضاربك تحشد المناكيد !

– أأنتم على يقين؟...لا، وحرمة الفهري عندي، انكم لتركبون اليّ وشاية سافلة كذوباً . هذه مضاربي أبيحها لكم فابحثوا فيها عمن تشاؤون !

وجمعت كلماته الاداء الصافي والنبرة المطمئنة .وسدد اليه قائد الكوكبة نظرة يخترق بها عينيه ليقرأ في قلبه ، فما ارتجف « وانسوس » ولا بالى . قال قائد الفهري يرطب لهجته بالزلفى: وانسوس ،نحن على رباط من صداقة . ويشوقني ان تشتد بيننا الاخوّة. مولانا الفهري يرى فيك جناحاً من جناحيه ، فان يكن اعداؤه في ربعك فاعهد فيهم اليّ ولا تكرهنا فيك وفي قبيلتك على ما تعفّ عنه المودة الصدوق. ان من حدثنا عن ثواء اعدائنا في دارك ليؤاكلك ويشاربك وينعم برفدك،فلا عجب اذا وقف على سرك المكنون!

فاعلن «وانسوس » بنفرة : ما كنت لأتنكب عن الصدق يا صاحبي. فكل ما وقع في مسمعك تضليل. ومن حدثك عن نزول اعدائنا في ربعنا مفسد ما كر بودي لو عرفته كي اضرب عنقه !

فضحك قائد الفهري ضحكة تشفّ عن الارتياب الخبيث ، والتفت الى وجاله يقول : اين راكبة الهودج ؟

وشاء ان يجبهه بها ،وان يزيل عنه عنجهيته النطّاحة بمرأى من تنقض مزاعمه وتفحم فيه كل دعوى . ولكن اين راكبة الهودج ؟ . . . تلاشت

آثارها كالشرارة في الغمر . ورعد قائد الفهري في رجاله وقد فوجىء باحتجاب «تكفات» : اين هي المرأة ؟ ... الويل لمن نام عنها والويل لها !

وشزر « وانسوس » بنظرة تقطر اللؤم والمهانة صائحاً به امعاناً في التحقير : وانسوس ، أتدري من نمّ عليك ؟... لم يفضحك سوى امرأتك « تكفات » . هفت الى الفهري تذيع الكواشف . فحدثته عن ابوائك عبدالرحمن بن معاوية الاموي وحكمون اليهودي وصحبهما . على ان الحائنة طارت منا بباب الربع . وسترى ما يكون فيها من تنكيد . أما نزل خيامك الاموي واليهودي ؟

فاتسع لوانسوس المجال الى الضحك . قال باستهانة المزدري ، المقيم على غلّ : وهل آمنتم بامرأتي ؟ ... هذا اسرافٌ في الثقة بالناس . ولكني طلقت الفاجرة ثلاثاً وهي الجاحدة الكفور . والله ، لاذبحنها ذبح الشاة الموبؤة واروي بدمها الارض . اين تكون ؟

وامتدت يمينه الى خنجره ينتزعه من وسطه ويهدد به ساخطاً صاخباً : ألا ارشدوني الى الناشز الفارك . لن تدوس هذا التراب !

وحقده عليها وهب له صدق الاداء ، فما ارتاب به قائد الفهري . ليس ما ينفي عن رحبة السعاية الكاذبة ما دامت منبوذة من الحمى . ولكن من ألقى اليها ان الاموي واليهودي مغضوب عليهما من امير المغرب ؟... لا بد ان الرجلين ألمّا بالقبيلة لتقف « تكفات » على سرهما وتحوك وشايتها . قال سيد الكوكبة يستجلي بفرط اللين : وانسوس ، بحقك ، اصدقني الخبر . أما اجتاز ديارك عبدالرحمن بن معاوية وحكمون ؟

ورقّ في اساريره وفي مقاله . فاجاب « وانسوس » وهو يختلج في

نزوة النقمة على امرأته النّمامة المعشاق : بلى ، عرجا عليّ . بيد اني ما علمت انهما على نفار وسيد المغرب حتى نفضت منهما يدي. فلست ارضى بان يأوي اليّ خصوم الامير !

– ومنذ كم رحلا عنك يا وانسوس ، والى اين ؟

– منذ شهر اذا صدقت الذاكرة . غابا في بطون الفيافي يبحثان عن مفزع يركنان اليه . لا كتبت لهما العافية !

وقاد الى خيامه رجال الفهري . ودعا القبيلة الى نحر الذبائح السمان. فاحيا للفرسان الولائم يعميهم بفواضله. وما غفل قائد الفهري عن «تكفات»، فاوفد من يبحث عنها وينقب في الاهتداء اليها كبد الارض . أتخدعهم لشهوة اثيمة؟ ... وطاف مراراً رجال الفهري بكثبان الرمل المختبىء فيها عبدالرحمن بن معاوية ورهطه وما لاح لهم باب النفق . واعياهم البحث والطواف فودعوا وانصرفوا وفي نفوسهم من « تكفات » وهج السعير. أفلا تمسك بها أيمانهم لتمزيقها وتبديد أشلائها ؟

و « تكفات » ، وهي الملمّة بخفايا هاتيك النواحي ، اعتصمت بوجار معكوف الارنبة ، منحوت في صدر تلة من الرمل . وغرقت في مثواها لا تبدي حراكاً. فما بوزت الى النور الا والقافلة تلتحف بالافق. وحبت الى الربع بقحة غير المبالي كأنها لم تقدم على منكر ولم تهز القبيلة هزة الموت. فاي زلزلة كانت تنخع الربع لو ظفر رجال الفهري بالمخبأ المحتشدة في صدره بيّنات الاستخفاف بالحاكم الجازع الغضوب !

ونادت بوانسوس وبعبدالرحمن وحكمون وقد حظيت بهم عند فوهة النفق : نجوتم فابشروا . طرحتكم في انياب الذئب وانقذتكم منها.

دُفن الويل في قرابه ، فلا عليكم. انتم بامان !

ودنت من الفتى الاموي تقول وهي على خجل من نفسها :عفواً عني، قسوت عليك في الجفوة ، فاصفح عن امرأة حمقاء مثلي !

والتفتت الى زوجها المتطاير النقمة والمتحفز للفتك بها تعالنه بجرأة المقحام : وانسوس ، أريدك على شكر هذا الضيف النبيل. عرضت عليه نفسي فابى حفظاً ليدك عليه . اجل يا وانسوس ، أحببته حباً أذلني ، فلم يشأ ان يمدّ اليّ يداً بسوء .وما انقطاعي عن الحي، واضطرابي ،وانطلاقي الى الفهري اسعى بك وباضيافك لديه ، غير مراحل قواصم اكرهني على اجتيازها حبي الغشوم.اقتلني يا وانسوس . اذبحني واغسل بدمي خيانتي . لست جديرة بعد كل ما بدر مني بان اتمتع بحلمك الوسيع !

وجثت امامه تعرض عنقها للذبح .فليقتلها وليذهب بسخطه وكسوفه دمها المسفوح .فارتعش « وانسوس » ازاء صراحتها.أتأثم وتقرّ بارتكاب الاثم ؟...هذا افراط في مستبشع الوقاحة .وهوت يده على مقبض خنجره. سيرديها . واذا بالجميع يصيحون : عفوك عنها . كن اكرم منها . هب لها من سموك نعمة الغفران !

ونهض اليه حكمون يمسك بيده ويقول : وانسوس، قبل ان تغمس خنجرك في نحرها أغمسه في قلوبنا .نحن حملنا اليها الاغواء.فاما ان تصفح عنا جميعاً او ان تقتلنا جميعاً !

فناح في « وانسوس » قلبه الطعين ، المعتلج فيه الحقد والعطف ، وقال متوجعاً : حيّرتني يا حكمون !

قالت « تكفات » وبودها لو تنجو بالموت من اعبائها بعدما تدارکت

عاقبة طيشها الجاني : بل ليقتلني وحدي . ليذهب دمي فداكم. اموت لتسلموا !

فهدرت الاصوات : عفوك ، عفوك !

فاطرق « وانسوس » مغلوباً على امره . ليس له ان يخيب الضيوف في رجاوة لا تبرح تلقى فيه خفقة من نزوع . وتزحلقت يمينه وئيداً عن مقبض الخنجر . لقد عفا . فطغى عليه كرم الطبع حتى بات معين عوارف ومنن وقد ضارع عفوه جدواه . أمرأته مع هيامها بالاموي لم تدنس قميصها بالفحش. فاذا صانها من الموت فما أذلّ بسماحه ما يستعلي فيه من عرض نصيع

٨

– لنرحل ايها الامير !

وجزم حكمون اليهودي بقولته . فلم يبق من سبيل الى البقاء في مضارب « وانسوس » والفهري بات يرتاب بالمكمن ، وهيام « تكفات » بالفتى الاموي ينذر بالفضيحة . قال عبد الرحمن : اجل ، لنرحل يا حكمون !

وهو يصبو الى الرحيل . كفاه ما لقي من رحابة « وانسوس » النجد ومن عطف القبيلة البارّة . وشدد من عزائمه . ونهض من فراشه ينضو عنه اتعابه واوصابه . وغالب رجليه في الخطو يشكر للزعيم البربري رفده ، وللربع رفقه . فقال وانسوس : سيدي الامير ، اقسمت ان اكون في ركابك حتى تتبوأ سدتك !

وغمغمت « تكفات » وهي تسجد بين يديه : لا تخيّبنا في الشهوة الجُسام . عاهدنا النفس معاً على خدمتك ريثما تبلغ شأوك . فنكون حجراً ، او نزفة من طين ، في صرح مجدك !

فنظر اليهما والحيرة في قسماته ، واللعثمة في مقوله . وجهل ما يعلن . أيرضى عن مسيرهما في القافلة ام يمانع ؟ . . . فهو يخشى ان تبدر من « تكفات » بادرة ادهى . وشزرها بقسوة . فادركت مرمى النظرة الثاقبة وتمتمت بمنهمر التوبة : سيدي الامير ، ما مضى لن يعود !

فآمن بصدقها . وانفرجت شفتاه عن القول الحفيّ : ألا مرحباً بكما !

ومشوا الى « سبتة » وفيها يقيم اخوال عبدالرحمن الادنون . وضم الهودج الواحد زينب و « تكفات » .ولقد تفاهمتا . وقصت « تكفات » حكاية حبها على زينب وهي تضحك وتقول: انها لفورة جنون انقضى زمنها، فلا تعتبي !

وفي « سبتة » لقي عبدالرحمن الاكرام الوافي. فالقوم أحلّوه منهم في الحواني وقد حدثهم عنه حكمون وعن مبغاه الاثيل . وتشاوروا فلم يجدوا لابن اختهم في امارة افريقيا مرتعاً. فالفهري اوطد منه أساً .قالوا: مجالك الاندلس فلا تمل عنه . اصحابنا هناك على تمزيق وتفريق . ما ان تطلّ عليهم حتى يقيموك فيهم حكماً وازعاً وسيداً آمراً. وللامويين بينهم انصار اشداء . وليس ما يحول دون الكتابة اليهم في مطلبك . فانك لتلقى فيهم اجناداً مجنّدة ويلقون فيك الوالي الصفيّ !

وكتبوا الى اثنين من زعماء الامويين في « طليطلة » ينبئونهما بسلامة عبدالرحمن بن معاوية من اذى الهاشميين ، وبرغبته في امتلاك السيادة في الاندلس وليس لها اصلح منه. ولكن من يحمل الى الاندلس الكتابين؟... فصاحت تكفات : انا !

وهتف وانسوس : انا !

فقال حكمون : نعم الرسولان !

فمانع عبدالرحمن بن معاوية. هذا ارهاق للزعيم البربري ولامرأته. حسبهما ما اقدما عليه من مأثرة ومبرّة. فاعلن اليهودي الشيخ: دعهما في ما يصبوان اليه . وانسوس ، دونك الكتابين . سِرْ وامرأتك على بركة الله !

وجاءت كلمته قاطعة لا تفسح للفتى الاموي الى معاندة . وتناول

« وانسوس » الكتابين وركب وامرأته البحر الى اسبانيا، الى الاندلس الغناء ذات الرياض الزواكي والعمران الفيّاح. واقام عبدالرحمن وصحبه بالانتظار. فهم بعيدون عن الفهري لا تمتد اليهم يده بأذية. وان هو تعرض لهم بسوء لقي من اخوال عبدالرحمن ما يكتب له الاخفاق الجهم

وكلما انقضى يوم سأل الفتى الاموي عن «وانسوس» وعن «تكفات». هل يخلصان له ويوفقان للرجاوة؟... فيجيب حكمون اليهودي: اما الاخلاص فانا له ضمين، واما التوفيق فمع ايماني به فهو من عند الله ايها الامير!

وبلغ « وانسوس » و « تكفات » خمائل الاندلس بسلام لا تقلقه كدرة. وهزهما ما تواثب لهما فيها من فرائد كالاعاجيب. قالت «تكفات» مدهوشة مبتهجة: هذه هي الجنة!

وقال وانسوس: ما اقربنا الى المبدع الرحيم!

وسلكا طريقهما الى «طليطلة» يبحثان فيها عن الزعيمين الامويين فراعتهما البدائع المنثورة يمنة ويسرة في كل منبسط وكل منحنى، في النجد والغور. فهما نائيان عن بساط الرمال المتناهي الفسحة، الواحد اللون واللحمة، وقد تغلغلا في رياض يتنفس فيها الاخضلال كأنها جنات الخلد بوفور خصبها ونداوة ظلالها. وتخشخشا بين الاشجار المثقلة ببواكيرها فتولاهما مستطير الشده وما كانت الفتنة لتنجلي عنهما الا لتتلوها فتنة اوقع وامتع. ورفرفت حولهما ذوات الاجنحة من عصافير وفراشات حيارى وما كانت تدري اين تحط في هاتيك الخمائل الفياضة بالفيء وبالاماليد المورقة المثمرة، والازهار السمينة الشذا وقد اغار عليها النحل يرعى لبابها. فمن خرير كالتسبيح، الى زقزقة كهمسة الوتر للعود، الى ثمار كالوجنات الزهر،

الى شلالات يخيل بها الى الرائي ان السماء تهبط في احضان المروج

وما الزعيمان الامويان الشاخص اليهما « وانسوس » و « تكفات » سوى عبيدالله بن عثمان وعبدالله بن خالد . وهما من انصار بني أمية لا من اصلاب الامويين . حملا لواء خليفة دمشق يوم كانت الريح الاموية تهب على الدنيا غازية فاتحة ، ولا يزالان في اخلاصهما لقوم سادوا العرب دهراً وازناً في الجاهلية والاسلام

ولقد تبدلت الحال في الاندلس بسقوط الامويين وقيام العباسيين . فولي الحكم يوسف بن بخت الفهري يعاونه الصُمَيْل . والصميل قويت شكيمته ، وترامى اقدامه . على ان المنافسين عكروا الجو فباتت الاندلس مهد قلاقل وإحن متماسكة الاردان . فلا تسكن « سرقسطة » حتى تثور « اشبيلية » . ولا تخمد نار « اشبيلية » حتى تتوهج « قرطبة » . فكل صقع من الاصقاع الاندلسية جنح الى السيادة يستأثر بها وقد هان الرادع وشلّ الوازع

وفي « طليطلة » اهتدى « وانسوس » و « تكفات » الى عبدالله بن خالد فقادهما الى صديقه عبيدالله بن عثمان المنتحي في حصنه في « طرش » . واطرق عبيدالله مدهوشاً وهو يقف على مطاوي الرسالة . ألا يزال في الامويين نبضة عرق ؟ . . . اذن لم يتهدم المجد التليد ولم تتقوّض جميع دعائمه . ولم يلبث ان ابتسم طروباً للبشرى . ما هوى واتباعه عن مكانتهم الباذخة . سيسودون . والتفت الى « وانسوس » يقول : إيه ايها المبلغ تباشير الخير ، حدثنا عن الامير الاموي . نحن بشوق الى بيانك السميح !

ودعا « وانسوس » و « تكفات » الى صدر القاعة وقد لاح له فيهما

ذكاء العرف . قال الزعيم البربري : بماذا احدثكم عن الامير عبدالرحمن بن معاوية الفتى الغضّ الاهاب، ايها السادة، ومن اي ناحية اتيتموه فهو السيد الضخم؟... في خلقه يتقد الحزم وفي نهيته تلتمع الفطانة. يدرج في ريعان الفتوّة الا انه يعتصم بحكمة الشيوخ . فالنبل في قلبه والمضاء في مهزته . فان تعتمدوه وقاكم البلبلة وقادكم الى النجح !

فهتف عبيد الله بمستفيض البهجة : ان يكن يرمي عن هذه السجايا النضرات فيا لها من مخايل تعلل باطيب المنى . اننا لنجري في ركابه بلا امساك ، فليقبل الينا وهو فينا الامام !

وقال عبدالله بن خالد : سنخاطب في امره الصُمَيْل بن حاتم ونتفق جميعاً على ايلائه امارة الاندلس. فتزول بيننا كل خصومة ويركب الحكم اربابه!

والصباح الباكر حمل القطبين الامويين الى الصُمَيْل المنيخ بسرقسطة. والصُمَيْل ، مع همته وضلاعته ، سكّير، طلْبُ نساء . يذري ايامه بين الكأس الرويّة والكف اللدنة المخضبة بالحناء . وباحثه الزعيمان الامويان في البغية فهشّ لها وبشّ وقال : والله ، لا اجد للعقدة المعقّدة خيراً من صاحبكما الندب يحلّها . وهو اولى منا جميعاً بامتلاك الامر فينا . فيجلو الفتن المتلبدة حتى كادت تمنع عنا الضوء . اني لمن دعاته وانصاره. فاكتبا اليه ان يأتي وسيفي ورجالي وقفٌ عليه !

فاستفهم عبيد الله : وما يكون من يوسف بن بخت سيد الاندلس ، أيجاريك في الرأي يا ابا جوشن ؟

— يوسف خاتم في يدي . ساقنعه بان يزف ابنته الى الامير ويُقضى ما فيه تستفتيان !

فعزّ عليهما الايمان . أتزول العقبة في لمحة ؟ ... وانصرفا على ريبة . أيكون الصميل صادقاً في ما عاهد عليه ام نطقت فيه الخمرة ؟ . . . وفيما يتهاديان مترجرجين بين شك ويقين علت وراءهما صيحاتٌ أن قفا . فالتفت كل منهما الى الآخر على رهبة . هل طاب للصميل الغدر بهما فدفع اليهما من يقتلهما ؟

وواثبتهما الوهلة فتأهبا للنضال . لن يموتا رخيصين . ودنا منهما رهط من الرجال يقولون: مولانا الصميل يبلغكما ان تناسيا جميع ما صارحكما به . فالمجال يعاند في الانجاز . اذا شاء صاحبكما ان يقبل الى الاندلس فمرحباً به. على ان يكون فيها بمقام سائر الناس. وجلّ ما يعاد اليه ضياع اجداده وهي المترامية البساط ، الوافرة الجداء !

واذا بالصميل يبدو بنفسه معلناً بفاصل نبرة كأنه خشي ان لا يجيد اعوانه البلاغ : على رسلكما. قلّبتُ في الامر وجوه الرأي فظهر لي ان ليس لصاحبكما امل بادراك الطلبة . ليبقَ حيث هو ان يكن طامعاً في الامارة. اما اذا كفاه ما لجده هشام من ضياع عامرة فليقبل الى استغلالها وليس عليه حسيب. وحذار ان تحدثه النفس بما هو ابعد مدى. والا كان اشبه بمن يحفر قبره !

فقال عبيدالله يستجلي : وما دعا الى هذا الانقلاب يا ابا جوشن ؟

— هي المصلحة يا ابا عثمان . ليس لصاحبكما ان ينام على ما نسجتما له، او نسج لنفسه ، من خميل العلالات !

— أيكون دون الامارة ؟

— بل الامارة دونه. فما ان يبدو فينا حتى يطفئنا بمستضعف النسمة.

أتريدان لنا الضياع والخسران ؟... والله ، مهما بلغ مني الجهل فلن اقتل نفسي بيدي . استودعكما الله !

ولفّ المسافات الطُوَل الى يوسف بن بخت الفهري يطلعه على النبأ الصؤول ، فتهزهز يوسف هلعاً وادركته صفرة الموت . وجمجم بصوت تتنزى فيه الحشرجة : ألا يزال في الميدان امير اموي يحبو الى النور؟... انها لاحدى القواصم يا ابا جوشن !

فاعلن الصميل بصوت تيّاه : لا تخش . نحن امضى ساعداً واوفر ناصراً . فلن يجازف ويسلك طريقاً يخيب فيه وليس له في الاندلس قوة منيعة يركن اليها . اوضحت لجماعته اننا له من الشانئين !

على ان اقوال الصميل المطمئنة لم تشدد من عزيمة سيد الاندلس . فاعول وهو في اضطراب يخشى عليه منه : ارى ان اكشف لك صدري يا ابا جوشن . والله ، اني لاحذر الفتى . فكأنك نعيت اليّ نفسي وانت تفجأني بخبره . فهلا حرّرتني من شبحه الراعب قبل بلوغه الدار؟... ادفع اليه من يغتاله ولسنا بحاجة الى من يكسفنا ويزيد بني قومنا شقاقاً على شقاق !

فاطرق الصميل مرتبكاً ، مستيقظ المخاوف . واشتد به اليقين ان الخطر الماحق سيعصف به وبيوسف بن بخت معاً وينسفهما بارتياد عبدالرحمن بن معاوية الاندلس . وانتفض الصميل وزمجر : سنسلخ منه روحه وليس باول من سفكنا دمه . لن يدوس حياً هذه الامصار !

ونزل بالامير الاموي حكم الموت . فمن فهري الى فهري ، بل من هاشمي الى فهريين . فالجميع ارادوا تجفيد هشام بن عبد الملك الاذلال والمحو وهو سليل اقيال وطالب سلطان . فالمطامع ارهفت نواجذها وقهقهت الاقدار !

٩

الصميل جالس الى الخمرة يحسوها والدنيا لديه رشفة من كأس وقبلة من خد. نال من دهره ما يتشهّى ولن يجنح به الحمق الى الاستخفاف بعطايا الزمن، فيبيح لاموي طريد دخول الاندلس وامتلاك الدفة وتزول عن الصميل واخوانه النعمة الجرّارة الاذيال

وبجانب الصميل ، الى الخوان الحفيل بالافاويه ، الناطق فيه خضيب السخاء ، جلست امرأة سمراء ، في لدونة الاماليد ، رجراجة العينين ، عذبة المحيا ، تبسم لسيد المكان وتلقمه التوابل من يد رشيقة ، بضّة ، فيما تفضي بصوت أغنّ : اجل يا مولاي ، شريدة ملتوية الحظ ، لا اهل ولا اخوان. اطلقني القدر من بلاد المغرب ابحث عن رزقي فافلت الحرون مني . واقمت ثلاثة ايام على الطوى لا اعرف لون الرغيف ولا طعم اللقمة. وارشدني حظي اليك والكريم من جاد على المعدم بما يقيه فتكة الحدثان!

فنظر اليها باستهواء وقد حنّ الى سمرتها الرضيّة وفتوّتها المخصاب . فهي تخاطبه بمذلة ، ولكنها مذلة لا تسفل فيها ولا اكتراث لها كأن من بليت بها تعوّدتها واضحت لا تقيم لها خطير شأن . فقال الصميل بابتسامة سمراح : أتشقين ويمور فيك هذا البهاء ؟

فتولاها الاطراق والخجل. قال: كان بوسعك ان تكسبي لقمتك خضلة ثرّية ، فما منعك من الغوص على الطيبات ؟

فازدادت اطراقاً والتهبت وجنتاها خفراً . قال الصميل بن حاتم : أتعانين منذ ثلاثة ايام لوعة الحرمان ولا تجدين من يخفف عنك جوعك؟... ولكن القوم في هذا البلد بحاجة الى مضغ الحسن الفتيق، فما بهم لا يشترون اكلةً باكلة ، وطيباً بطيب ؟

فرمته بنظرة شاع فيها العبوس الحَرِد وقالت بشموخ: أُريد من مولاي ان يحسن بي الظن . ليس البلد اعمى ولا انا معطاء . فلو شئت بذل نفسي للقيت كل متلاف . ولكني شببت على العصمة وهي اطيب غذاء . لقد عرّضتني للبؤس ، اجل، الا انه بؤس احتمل وقعه وعرضي حميّ . وما اقبلت اليك في مساومة ، بل في استعطاف . واني لشاكرة لك انقاذك اياي من السقوط في مهواة الجوع وقد دفعت عني بمعروفك الجمّ ما يقود اليه البؤس من فحش وابتذال !

فوقفت به كلماتها عن ضمها اليه وقد اشتاق هذا الضم يلهو به كما يلهو بكأسه . قال وقد اكبر فيها عفتها مع استباحته الطهر والعفاف : أرأيت ان تستعيني بالصميل على اتقاء الاثم ؟

فزادت في تحشيمه واستحيائه معلنة بصوت بليل الجَرْس : اني لمستعينة بمكارمك على فقري وطهري !

فكاد يضحك من المستجيرة من الرمضاء بالنار، من النعجة اللائذة بالذئب الخطّاف . وتعجب من نفسه كيف يكون واقياً للطهارة وهو المستحل المحارم على غلوائها . بيد انه ما استطاع الا ان يؤمن بما ليس فيه فقال : لا تخافي ، انت بامان ، فالصميل لن يغدر بكِ !

فشكرت وهي تبتسم . وابتسامتها امعنت في احياء شوقه الى الحسن

الجاثم بقربه والمكفوف عنه . فدغدغ كأسه يرشف الخمرة وليس يدري كيف يخرق حرمة العهد المقطوع . وندم وقد خلع على جليسته امانه . قال : وما اسمك ايتها الصبحى ؟

فاجابت بغنج ميّاس : عبدتك « تكفات » يا مولاي !

فقهقه ضاحكاً وهو يردد بمزاح : تكفات ؟ ... تكفات ؟ ... اسم جميل . بيد اني اراك ابتدعته لتكفّيني عنك وليس يدل على انك تلك الرحبة المسماح !

فشاطرته ضحكه ولمعت بضحكتها ثناياها . فكاد يجنّ الصُمَيْل وقد غلبت الخمرة نهاه. قال : كل ما فيك يشغلني بك ، واني لاتعجب من نفسي كيف وهبت لك الامان !

واتسع المجال لقهقهات فساح . وبدا للصميل ان الفتاة من البربر ، من هؤلاء اللاجئين الى الاندلس يتكسبون فيها بما يقدمون عليه من زريّ الاعمال وقد نبت بهم ارض المغرب الصلود. وتذكر ما تآمر فيه ويوسف ابن بخت الفهري وما اتفقا عليه . وخطر له ان يركن الى بربري في امر عبدالرحمن بن معاوية. فيكلف من لا صلة توثقه بالعرب الفتك بسليل العترة الاموية . فيجهل قدر الفتى ولا يتهيب . وغرزت عينا الصميل في البربرية المتوهجة فيها شعلة الصحراء وقال : شاقتني فيك طبعة الحسن الجافي يا «تكفات» . واخشى وانا اداعبك ان اعبث بعهدي لكِ . على اني وقد آليت على نفسي ان اصونك من وثباتي فسارعى فيك ذمتي . وجلّ ما ادعوك اليه ان ترشديني الى بربري ضليع لا ينوء بما ساكلفه من عبء . ألا تعرفين فتى شجاعاً من بني قومك يقوى على انقاذي من عدو بغيض ؟

ففتحت اذنيها وعينيها على مدى وعيها . بمن يريد الفتك الصميل بن حاتم ؟... وهي زوج « وانسوس » نفسها، « تكفات » العاشقة التائبة . دفعها الزعيمان الامويان الى الصُمَيْل لاغرائه واغوائه قائلين لها : « هو رهين طلعة روعاء ، على ان تحسني اسره والنجاة من شره وليس يعفو عن محيا وسيم ! » . فاطلقت ضحكة دلت على اعتداد وقالت : اما ان اقيده وامتلك لبه فليس اسهل من ذلك عندي، واما ان انجو من براثنه فسوف يبدو لكما انه عاجز عني . ارمياني به وانا اقوده الى النار !

فارشداها الى مقره واشارا عليها بان تدخل داره مستغيثة به من فقر ألمّ بها. قالا: لا بد ان يستهويه جمالك. فاذا تودد اليك فلا تجيبيه الى الزلفى ولا تخاشنيه ، بل كوني منه بين بين . واطلعي بمداهنة بارعة على ما يحاول في الامير عبدالرحمن . فاذا وضح لنا انه يريد بالفتى الاموي شراً أبحنا دمه لوانسوس زوجك . وللشفرة الرهيفة ان تتكلم وتختلس الانفاس !

فاجادت « تكفات » تمثيل دورها وحبت الى دار الصُمَيْل تلتمس الرفد . فابصرها سيد المكان ووقع فيها على جواذب صوارخ . انها لمن هؤلاء المناديات اليهن ذوي الصبابة والموحيات بلاعج الهوى . وراق الصميل ان تكون من جواريه فاباح لها صدر مأواه. غير انه كساها الحرمة فباعد ما بينه وبينها . ولكنه اذا أباها على نفسه فهل يأباها على ما ينشد من مأرب؟...وهو يعرف في البربر الشدة والشره الى البلغة . فالدريهات القلائل تحمل البربري على سفك الدم عفواً، دون ان ترتعش يده او يتحشّم. ومن المحال ان تسلك هذه البربرية الجهيرة الطّلة طريقها الى الاندلس بلا

رفيق قد تكون ابواب الرزق سدت امامه فاطلق لصاحبته امرها في البحث عن لقمتها. ولماذا لا يستطلعها الصميل امر رفيقها الناضب اليد ويستعديه على حفيدٌ هشام الهابط من الغيب بفجاءة الزلزال ؟

ان النزر من المال ليكفي ذلك الرفيق . ثم هو مغمورٌ ليس من يكترث له ويحفل بامره اذا ما ترصّد عبدالرحمن بن معاوية وحام عليه للغدر به . و « تكفات » طربت لسؤال الصميل بن حاتم وما ركبت المتالف لسوى هذا الارب السمين . وادهشها من الوالي الحازم تسرعه في ائتمانها على سره . فلا ريب ان الخمرة تتكلم فيه . واستوضحت بحذر : أيروم سيدي بربرياً يثأر له من خصم عنيد ؟

— اياه أُريد يا « تكفات » ، فمن لديك ؟

فاطرقت كأنها تنقب اعماق ذاكرتها . وما لبثت ان قالت: يلوح لي اني اهتديت الى الرجل . بنو قومي في « قرطبة » كثيرون . متى يحتاج سيدي الى الكفيّ الندب ؟

— عندما تأتينني به يا ابنة الرضا !

— ولكنه طوع يدي ، اجيئك به في موعد عجلان اذا شئت !

— أيكون صلب العود ، ماضي الفتكة ؟

— انه لذو عضل صليب وطعنة بكر !

— أيسفك الدم ولا يرهب ؟

— بل يشربه لفرط ما يستعر فيه من ظمأ اليه !

— وهل يكتم السر ؟

— هو في السر أبكم، نسيّ !

فصاح لفرط طربه: لا تبطئي به عليّ. فهو منشودي. أيكون في «سرقسطة»؟

– هو فيها ايها المولى!

وما ابطأت عليه بالضالة. فجاءته برفيقها تقول: ها هو يا سيدي!

فتأمله الصميل معجباً منه بعرض صدره، وفتلة ساعديه. قال يستجلي امره: من انت يا هذا؟... هل لنا ان ندري اي ارض قذفتنا بك؟

فاجاب البربري المطلّ على الكهولة بتباشير تكاد تمحى، فلا تبين الا بمقدار: انا من اصحابك البربر. هجرت «سبتة» منذ عهد طويل واضحت الاندلس وطني. غير اني شقيت فيها. فلا شجرها اورق لي ولا زهرها أثمر وما زلت في مغانيها المرزوء المضيم!

فراق بيانه الصميل. ليس ما يثنيه عن استعباد هذا الصفر اليدين. قال يلاينه خاطباً وده: أتقضي ايامك في املاق ولا تأتي الينا فنجود عليك بما يكفيك ويقيك؟

فاعلن بحسرة المنتوف الريش: أطال الله بقاء مولاي، وقفت بابواب فساح ينبع منها الخير الدفوق فما لقيت ذا معروف، فيئست من زمني وكرهت دنياي. ولولا ان تقنعني «تكفات» بان الرزق لديك موفور لتحاميت ازعاجك بشبحي المقيت!

فضحك الصميل وقال يؤاسي: مرحباً بك. ستلقى مجيباً. ما اسمك؟

– «وانسوس» ايها المولى الكريم!

– اسمٌ بربري قحّ. أتكون ذا اخلاص لنا يا «وانسوس» اذا دعوناك الى احدى المهمات الشاقة واجرينا عليك العطاء الجزيل؟

فانحنى «وانسوس» خاشعاً وقال: أيتم لي ان اعتكف على خدمة

مولاي وارفض النعمة ؟ ... اني لكافر اذا فعلت !

فقال الصميل يدعوه الى الجلوس بجانبه : تعال اذاً . خذ لك هنا مكاناً ، على مقربة مني . سافضي اليك بامر جسيم . ومطلبي منك ان تعتصم بالكتمان والا جنيت على نفسك . كنت اعهد في الامر الى رجل من اعواني ، ولكني اؤثر ان يتولاه غريب . أتطيعك يدك في الاطاحة والتنكيل ؟

فابتسم البربري الكهل مستهيناً بما يدعى اليه وقال : ليطمئن سيدي. لست بمن يخيبه في الشدة !

فرشقه الصميل بنظرة حادة يعتلج فيها الاعجاب والاحتراز وقال: اذن يكفيك ان تعلم اننا سنعتمدك في الفتك برجل ناشز سوف يبدو فينا . دخيل يحاول فرض سيطرته على ارباب المكان !

وافلتت الكلمات الاخيرة من فم الصميل على كره منه . جاوز الحد في ما ادلى به. وومضت عينا «وانسوس». ادرك المبتغى. ما يريد الصميل سوى عبد الرحمن بن معاوية. فيا للانكد، وقع على مجيب !... ليتدحرجن رأسه عن كتفيه قبل ان تسقط شعرة من رأس عبدالرحمن . غير ان « وانسوس » اخفى ما يموج في ضميره من نقمة والدهاء يفرض التستر في النيات وقال : كل من يدعوني سيدي الوالي الى القضاء عليه فهو هالك . ليثق مولاي بمضاء هذا الساعد وبامانة هذا القلب !

فقال الصميل وقد سكنت في جوانحه وخزة الوشك : بورك فيك . تعال ابداً الينا وانت على أهبة . لسنا ندري الموعد ، على انه قريب كما يلوح منه !

ونقده بضعة دنانير واوصاه بان يحترس من البوح بالمضمر. قال : كن حافظاً للسر. رسولنا اليك هذه البربرية وهي من قومك وعارفيك. واياك والتأخر عنا في النهزة. واتّق الخداع. فاذا رتعت في رضا الصميل فاخش غضبته وانت تخاتل . وان تكن تجهل من هو فلتحدثك عنه ضحاياه !

وسدد اليه نظرة قاسية يروزه بها . فاطرق « وانسوس » لئلا تفضحه عيناه الساخرتان المتوعدتان. وانصرف يتمتم كلمات الشكر ويعد بالولاء. سيكون مطواعاً وفيّاً . والتفت الصميل الى « تكفات » وقد خلا بها يقول : يتراءى لي انك احسنت الأختيار . فمن جئتني به وثيق مقحام لا تروّعه الدواهي !

قالت تترنح اعجاباً بوانسوس: هذا خير من يعتمد مولاي في الصعاب. فهو افضل بني قومي . ما عرفت رجلاً يضاهيه في ركوب الغمرات !

فاطرق . ان دعوة البربري النكرة للفتك بعبدالرحمن بن معاوية ضرب محكم الدهاء . فاذا افلح تألقت الامنية وحلا قطافها ، وان اخفق وظفر الاموي بسيادة الاندلس تبرأ الصميل من البربري المجازف واستحل دمه. وهكذا يربح في الحالين ، سواء نجح «وانسوس » او خاب . فليس من رجاله ولا من قومه هذا اللاجىء المسترفد كي يجوز اتهامه بمشاطرته مكيدة الاغتيال

وشاع في الاندلس ان عبدالرحمن الاموي مقبل اليها برجاله ، وان خادمه بدراً يغدو ويروح على مفاوضة ومباحثة بينه وبين اليمنيين والمروانيين انصار بني أمية . فاقلقت الصُمَيْل هذه الانباء تسقط في اذنه وخشي الغد الجهم . فماذا يبقى له ، بل ماذا يبقى منه وقد تولى حفيد هشام بن عبد الملك

امارة الاندلس المجلوّة العز ، الحيّرة النوال ؟

واستمال اليه « تكفات » يحاول ان يتلذذ بها لينسى . فمانعت البربرية وهي تصيح : مولاي ، لا تنسَ عهد الامان . الامان !

فشدّ بها الى صدره قائلاً بصبوة جامحة الى اقتناص اللذة العجلى : ومتى كنا نقيم للعهود وزناً يا عائبة ؟

فانتفضت على متطاير صيحتها : الامان ، الامان !

وافلتت منه تشقّ طريقها الى الباب. فجلجل مهدداً : لا تلعبي بدمك!

فقالت وقد ماعت خشية واسترحاماً : هل يجوز ان يحنث سيدي في يمينه وينكث عهده ، هل يجوز ؟

فابتسم على كره منه وهو يراها غريقة مذلتها ، وقال وقد رقّ لها فؤاده الحيران : تعالي ايتها المحاسبة في كلمة اطلقتها عفواً شفتانا. سنكتفي منك بضمة وقبلة !

فلم تجد بداً من الامتثال ، واباحت له خديها . فطوّقها بذراعيه بعنف وجمجم : بل فمك اريد ، بل فمكِ . اني لفي شوق الى تقبيل هذا المبسم الريّان !

١٠

– ما وراءك يا بدر ؟

وبدر وثب الى الاندلس لاستجلاء امر « وانسوس » و« تكفات ». ماذا كان منهما في انصار الامويين ، واي طريق مهدا للامير ؟... واتصل الخادم بالرسولين وبالكتلة الاموية وايقن ان لعبدالرحمن بن معاوية بوارق من مستبشر الامل بنزول الاندلس سيداً . ولا بد ان تعترض الصدمات عزيز الامنية ، الا ان لا فوز بلا جهاد . قال والامير يسأله عن الاندلس وما فيها : تركت ورائي اصدق المؤيدين يا مولاي . انصارنا في الاندلس يتربعون في عنفوان القوة وكلهم يرجو الخلاص من حالة تمسخها الفوضى ويزري بها الخمول . وليس غير الامير لنفض الهوان واقرار النظام . فهو المنقذ الاوحد. ولقد ألحّ الحزب اليمني في رؤية اميره ممسكاً بقياده للعود به الى سامق مجده وفارط علاه !

– ألا تداهن يا بدر ؟

– اني لاتكلم في حضرة الامير مولاي !

فانتشرت البهجة في طلعة عبدالرحمن بن معاوية . سرّه ان تنطوي له الاندلس على وفاء واجلال. ودعا اليه حكمون اليهودي يقول: ليتكلم فيك علم الغيب يا صاحبي . أوضح لنا أديم الغد . أنتابع الرحلة ؟ . . .هل آن لنا ان نتنفس ، وان نبدد سحب القلق ، وننجو من دامغ البحران ؟

فاجاب حكمون برزانة العلم ووقار السن : رأيي في الغد لا يتبدل يا ابن معاوية . فالتوفيق مكتوب لنا باحرف من نور ونار !

فقال عبد الرحمن والثقة والتردد يعتلجان فيه : لننطلق اذاً !

واعلن بدر متحمساً : لننطلق ايها الامير . فالمركب في الشاطىء بالانتظار . جاء بي من الاندلس فليعد بنا جميعاً اليها !

فعلت في الجميع صيحة واحدة تنبسط على نشوة : الى الاندلس ، الى الجنة الممراع !

وانـدفعوا الى الشاطىء يحدوهم وهج من رجاء . ولاح لهم المركب الراسي في الخليج فوثبوا اليه وفي نظيرتهم عبدالرحمن بن معاوية. وعبدالرحمن، مع شديد ايمانه بعلم الغيب، كثير التفاؤل بالاسماء . فامسك باليد الاولى الممتدة اليه من المركب ونظر الى من ينجده بهـا ويحييه بحفيّ الاكرام وقال يستأنس : ما اسمك يا صبيح الوجه ؟

فاجاب المرحب المنجد بمسرّة تطفو على اساريره الملاح : تمام يا مولاي!

— وما كنيتك ؟

— ابو غالب !

فشاع في قسمات عبدالرحمن الرضا، وطابت له التورية فهتف: الله اكبر، تمّ امرنا وغلبنا بحول الله !

واستقرّ وصحبه بالمركب. وداعبت نسمات الخريف خدّ الماء الساكن فارتعش وتجمّد كزمزمة الشفاه . واسعفتهم ريح ليّنة فجرى المركب على طمأنينة وبلغ ساحل البيرة في ناحية المنكب. وما اطلّ الفتى الاموي على عشيب الديار حتى ادركته حماسة الطرب فصاح : السلام على ارض

سنحيي فيها المجد الخابي اللألاء !

وقفز الى الشط بهمة الفاتح الصؤول يطلق صرخته المرنان : دخلناها غزاة كماة كما دخلها طارق بن زياد !

واقتحم خادمه بدر هاتيك الخمائل الندية شاخصاً الى الزعيمين الاموين ابي عثمان وابي خالد هاتفاً بهما : بشرا كما ، اقبل سيد الحمى وحامي الدار !

فزحف الى الامير جيش ضخم العديد من حملة الراية الاموية على حداء وهزج . فاليمن عاد ادراجه . وانتعشت الصدور بفوح المنى . لم تذبل ريحانة المجد . ووقف عبدالله بن خالد داره في « لوشه » على الاموي النبيل يرصع بالحسب اللباب جيدها . فمن الفخر لها ان تعبق خلاياها بانفاس سليل القادة الميامين . وجاءه بقليل من الخمر دفعاً للوهن والصفرة الآخذين به . فرفض عبد الرحمن ان يمد يداً الى الكأس وقال في من حوله : انا بحاجة الى ما يزيد في عقلي لا الى ما يذهب حتى بمسكة منه !

فاستطار الاعجاب . هذا قبس من الهداة الراشدين . ودلفت اليه جارية في حسن ازهر ، فاشاح عنها بعياف أثيل معتذراً بقولة أرق من النسيم في عشايا الربيع : اني لاشفق على هذا البهاء من نفسي وزمني يشح عليّ بالمتعة . فعفواً عن التوائي في اقتطاف نواضر الرونق الزكيّ !

فتعالت صيحات الاكبار من الحواني وابتهجت الارواح . فالقوم حيال سيد نجيب لا تشغله ملذات دنياه عن ملك يتطاول الى تشييده ومجد يبغي نشر بساطه المطويّ . وتناقلت الالسن باعتزاز احاديث الزهد في الاباطيل . وطنّ في مسمع يوسف بن بخت الفهري نبأ نزول الامير الاموي الاندلس فكاد ينكب بالحبل . وطار بصلعته البرّاقة كأنها صفحة المرآة المجلوّة

الى الصميل بن حاتم يتلهف ويستغيث بنائح الكلام : رحماك ، خولط في نهيتي . عدونا في دارنا يا ابا جوشن !

والصميل بوغت بالنبأ . فما شخص له ان الطفرة تستطاع . فالامير الاموي يطير باجنحة رحاب . وطما أن ابن حاتم ووعد ، بل عاهد . فانطلق من لدنه يوسف بن بخت على استنامة . ونوديت الفتاة البربرية فصاح بها الصميل : اين « وانسوس » يا « تكفات » ؟

فاجابت متحمسة منتخية : في خدمة سيدي ومولاي !

— ولكن يجب ان اراه الساعة . فالامر وافي الخطر !

— وساجيء به الساعة . فاني اعرف اين اقيم !

— عجّلي في دعوته . لمثل هذا اليوم ادّخرناه !

فتوارت كالومضة واطلت في ومضة . فكأن « وانسوس » يقيم بالباب . قالت وهي تدخل به على الصميل : ها هو . انه لينتظر العمل بما يريده عليه مولاي !

فاطال ابن حاتم النظر الى البربري العريض الالواح ، المتوقد الهمة . أيكفيه هذا الصلب الشكيمة شر المفاجيء المقيت ؟ ... والتفت الى « تكفات » يعلن بلهجة قاطعة : دعينا على خلوة !

فلم يجد من الحكمة الافضاء بسرّه على مسمع امرأة . قال يخاطب « وانسوس » والقلق يعصف به : هذا اوانك . فهل تكون على أهبة ؟

فاعلن الزعيم البربري : انا على ما يرغب فيه مني سيدي . ليدفعني الى الموت اصارعه فيجدني المطيع المجيب !

فاذاع الصميل وقد انتفى عنه الحذر : إذن فاسمع . هبط الاندلس

فتى بغيض الينا يروم تعكير الماء . فاسق نصلتك دمه ولك العطاء الغمر !

فاستوضح « وانسوس » متجاهلاً : ومن هو الانكد يا مولاي ؟

فحاذر الصميل النطق بالاسم كأنه يخاف الاعلان . وحدق اليه «وانسوس» يرقب منه الجلاء فغمغم بلعثمة : هو . . . هو عبدالرحمن بن معاوية، دخيل سليط ينساب الينا على كاذب دعوى !

فتظاهر « وانسوس » بانه لم يفهم واستوضح : من ؟

– عبدالرحمن بن معاوية ، امير اموي طريد زحف الينا في رهط من اصحابه يعيث في الربوع فساداً وينفث في الالباب سماً !

– امير اموي ؟ . . . واين يقيم يا مولاي ؟ . . . لاطحنن عظامه ، والله !

– هو في دار عبدالله بن خالد في « لوشه » ، أتعرف عبدالله ؟

فهتف «وانسوس» كمن تجلت له حقيقة ليست خافية عليه : اعرف ابا خالد واعرف مقره يا مولاي . اما الاموي فاجهله . غير اني ساسأل عنه واجيئك برأسه . ثق بوانسوس وهو نصيح في الخدمة . اكل من خيرك ونعم برفدك وسيحقق رغائبك على مطلق اعنتها . في هذا الاسبوع سينتفض رأس العاتي عند قدميك هامد الطماح !

فابتسم الصميل مغتبطاً وكأن الاعباء المتراكمة عليه هوت عنه . وما تمالك ان جهر يعالن « وانسوس » الرضا : عوفيت . لكأني بك من طينة سامية المنتمى . ألا بالله عليك ، هلا حدثتني عنك ؟

فاحس من نبرات «وانسوس» ومن ملامحه بانه حيال مومق مرموق . فتأوه الزعيم البربري ، غير انه ما لبث ان ابتسم وقال بتمتمة الاحتشام : انا ممن ارتضوا خدمة مولاي !

فجلجل الصميل : يبدو لي منك انك مجلبب بسرّ عجيب كأنك عزيز ذلّ ، فمن انت ؟ ... قل ، بحياتي !

فاوضح « وانسوس » بصوت انوف ، عريض ، مغلّف بالالغاز ، يوحي بالثقة ويمحوها معاً : سيقف مولاي على سري بعد انجازي ما عهد فيه اليّ . انا اليوم في خدمته لبلوغ مطلبه ، وبعد ذاك ساميط عن وجهي اللثام وتنجلي لسيدي دخلتي . اما الآن ...

وانقطع عن الكلام متحسراً ، مكتوياً بالشجن ، وهمّ بالانصراف . فناداه الصميل بحضه على الاعلان : وانسوس ، هلا تكلمت ؟

فاجاب باعتداده الاشمّ : الامور مرهونة باوقاتها يا مولاي !

وتوارى كالحلم في اليقظة . وتبطن الليل الى دار ابي خالد في «لوشة» . أيبدو في الاندلس عبدالرحمن بن معاوية ولا يكون «وانسوس» في طليعة المرحبين بالامير الطرير ؟... وعبدالرحمن ما نغش في بصره الزعيم البربري حتى هفا اليه يعانقه على مرأى من الجميع وهو يعلن في من ضمهم مجلسه : هذا هو رجل المروءة والولاء . هجر ربعه وقومه لتأييدنا في وثبتنا الى الاندلس وليس له بنا معرفة ، ولا لنا عليه فضل وقد اثقل فضله عواتقنا . ان هي الا المكرمة الغراء اهابت به الى البذل من نفسه ومن يده . حياه الله !

فترقرقت عينا « وانسوس » وملاغمه بالبسمة الحييّة وقال : نحن في خدمة سيدي الامير على الامد . ولن يهدأ لنا سعي الا والحق مرفوع الهامة . فالمجد لا يهنأ في مثواه ان لم يتربع حفيد الامويين في المكان الاسمى . ولاحقاق الحق نذيب المجهود وفي القلوب غمرٌ من عزاء !

فاذاع عبدالرحمن بفيض من اكبار وقد كاد يضيع في هذا السيل الهادر من

الاريحية والمعروف: عوارفكم تنهال عليّ كعطايا النعيم في ليلة مهداء لا تضيق بالنوال . ولست ادري، ورب الكعبة، ما اقوى عليه في وفاء دين فادح اثقلتم به عنقي !

فضج المقام بصيحات السماح : كلنا للامير الهمام !

واستأذن « وانسوس » في خلوة بالامير وبالزعيمين عبيدالله بن عثمان وعبدالله بن خالد . قال وقد جمعتهم حجرة ضيقة : يشدّد عليّ الصُمَيل في اغتيال مولاي الامير وقد امهلني اسبوعاً . فالقوم دروا بنزول سليل الامويين هذه الارجاء وكلهم على هول ونقمة !

وجالت عيناه في عيني الفتى الاموي. فابتسم الامير ابتسامة بليلة وقال يستوضح مداعباً: وانت ما تنتوي يا «وانسوس»، أيشوقك الفتك بصديقك عبدالرحمن ؟

فضحكوا جميعاً . وقال عبيدالله بن عثمان : وانسوس ، عليك ان تشغل الصميل عنا برغبتك في انجاز طلبته ريثما نكون قد حشدنا قواتنا ، وفاجأناه وصاحبه الفهري بما يذل فيهما الشموخ ، ويلوي الدلال الارعن . رجالنا يتلظون شوقاً الى هدم هذه الاصنام المتصدعة وسنظفر بها باذن الله !

فاعلن «وانسوس» بمضاء: انا لكم على ما تريدون. فلن اتورع عن سفك دم الخبيث يوم تشتاقون محوه . ولا تنسوا ان بجانبه « تكفات » . فهي تخادعه عن نفسه ريثما نضرب ضربتنا ونسود !

فصاح الفتى الاموي بمستفيض الدهش: أتكون « تكفات » في خدمة الصميل ؟

فاجاب « وانسوس » خجلاً : هي ابداً في خدمة مولاي الامير، وفي

سبيله تستطاب انكد التضحيات !

فتعاظمت المبرّة لدى عبدالرحمن بن معاوية. أيجازف لاجله «وانسوس» وامرأته بكل ما يملكان ، بجاههما وراحتهما وعرضهما؟ . . . ان هذا الافراط ليعدو كل منّة. وتولى الاطراق الامير. فالى كم يحتاج بناء العروش من فديات جسام ؟

وهاله الاسراف في السخاء، بل هاله الحب المتقد في صدر «تكفات». فهي تجود بكل ما عندها كي تضمن لمن تهوى ، على ضائع أملها به ، العزة والهناء

١١

هذه الكاويات يطلقها الصُميل بن حاتم تتطاير من شفتيه حمماً دوامغ. فهو في غضبة شرسة وقد ابطأ « وانسوس » في تحقيق المشتهى . فالاسبوع لفظ النَفَس . واليمنيون ، انصار بني أمية ، جمعوا افواجهم وارادوها حرباً دامية لنصرة الفتى الاموي . مع أن الصميل وعد حليفه يوسف بن بخت الفهري بانقاذه من مزاحمه ولم يفعل . ويوسف يستغيث وتملأ صيحاته متناهي الآماد

وجلست « تكفات » بجانب هذا المخلوع الصبر تصغي اليه في سبابه وحنقه وهي تتظاهر بانها تشاطره التذمر والحقد مع انها في مستقر دخيلتها على مثلج الحبور . ونبر الصميل متوعداً وهو في اقصى مدى من هياجه : تكفات ، ان لم يرجع اليّ « وانسوس » حاملاً رأس عبدالرحمن بن معاوية انتقمت بك منه . فلست اطيق ان يخدعني من عاهدني على الطاعة . اوهمني انه سيقتله في اسبوع فاذا به يمسك عنه ويهب له من العمر ما حفزه الى حشد الجيوش لقتالنا . ولسنا نعجز عن مناجزته فنهدم منعته ونفلّ من غربه ، ولكنا أردناها ضربة حاسمة يتدحرج فيها رأسٌ ، لا رؤوس !

ففزعت فيه الى المداورة تقول : رويدك في غضبتك يا سيدي . ربما عانده التوفيق . ساجيئك به وتستمع الى عذره . فما عرفتُ اصدق منه مخبراً ولا امضى يداً . الا ان العقبات قد تكون صدته عن المأمول !

وخففت من لظى فورته . فهتف من حنجرة بحاء يطغى على ألفاظها الالم المشوب بمسحة الاستعطاف: واين هو يا « تكفات » ؟... يجب ان اراه على الفور .ان حاجتنا اليه لماسة وهناك مصير امة ومستقبل دولة !

— لا يغضب مولاي . سأجرّه اليه بخيط اوهى من رثيث الصبر!

وبرّت في وعدها وهي على تفاهم وزوجها وكانت تلقاه خفية في مواعد اتفقا عليها .وما كاد «وانسوس» يبدو ازاء الصميل حتى رعد ابو جوشن بغليان الموتور : وانسوس ، ماذا فعلت ؟

فاجاب « وانسوس » متظاهراً بالحيرة واللهفة: مولاي، بذلت جهدي في الوصول اليه فسدّت دوني الشعاب . كلهم له سياج وهم يلتفون عليه التفافهم على كنز وزين يخشون عليه من الارصاد. وخطر لي ان ادهمه في ليل،فاذا المنافذ موصدة، واذا جموع وافرة من الحرس تقوم عليها وتأبى ان يلجها راكب شبهة !

فارتبك الصميل وتعاظم فيه القلق . فالامر من الخطورة بما لم يكن يتوهم . قال وقد لانت فيه حدته حتى امست ضراعة مكلومة: وما العمل يا « وانسوس » ، أليس من تدبير اصيل ؟

فاعلن الزعيم البربري : سانقذك منه واطفىء نور عينيه حتى وهو يعتلي سدّة الامارة . ولكن هب لي من الوقت ما يعضدني في الاحتيال على الفرص !

واذا الباب يدق . واذا يوسف بن بخت الفهري يبدو وهو يرتجف . فوثب الى لقائه الصميل على جزع رهيف مستوضحاً بلجلجة : ما بال سيد الاندلس في ارتعاش واكفهرار ؟

فتمطّت في الفهري المخاوف . وهوى في اقرب مقعد اليه متلاشي العزم، قائلًا بكلام مهشّم وقد انتضى عمامته يكشف بها عن صلعته الوارفة وهو يختنق ويتحرق : اين وفاء الوعد يا ابا جوشن ؟... افلتت الاندلس منا وسلبنا عدونا حقنا في السيادة وكاد لا يبقي على نصير لنا . جماعته مشوا الى « قرطبة » وقهروني فيها واضحوا سادتها. قاعدة الاندلس دانت لهم وتربع الاموي في دستها . فاضحى سيد البلد وخذلني في الامارة . وتكررت وعودك لي باغتياله ولم تنجز . أتنتظر حتى يخلعنا ويطيحنا ؟

فزاده رهبة على رهبة. غير ان الصميل ابعد همة من الفهري واصلب عوداً. فجاهد في امتلاك نفسه وقال يأسو الجراح: رويد الامير. من يجرؤ على اقتحام العرين لم تحبل به امه. سنقتله في مستقره وعندنا من الجيش ما نحصد به كل معاند. وانت يا «وانسوس» متى تشحذ خنجرك؟... أتريد مالاً ؟... الى اي مبلغ تحتاج ؟... أتريد رجالاً ؟... في انصارنا كل بطّاش. لا يخطر لك اننا في قحط باعتمادنا اياك وما ندبناك للجلّ لسوى كونك غريباً عنا، فلا يرتاب بك الامويون وانت تنساب في الصفوف !

فقال «وانسوس» يتكلف المذلة : عفو مولاي عني في تقصيري . لم يخدمني الحظ الحرون. على اني ساغالبه واتمكن منه. لن يصفو للاموي الجو وانا له بالمرصاد !

فدمدم عليه الفهري متأففاً : هذه وعود أتخمنا بها . فمتى يحين العمل ولم يبق للتراخي متسع ؟... اننا لفي الموقف الفصل !

فرفع البربري رأسه واعلن بصوت جهير كأنه يذيع يميناً صارخة : سأجيئكما برأسه وهو يوشك ان يصادمكما. فاوهمه اني احمل اليه انباءكما واودي به !

– أتفعل ؟

– ما كنت لاعاهد وأخادع ايها السيدان !

فضحكا معاً ضحكة حانقة مرتابة . هذا البربري القبيح يعد ولا يفي . فبدا من « وانسوس » انه تأثر وامتعض من سوء ظنها به وهتف بشدة : مصير الارواح بين ايديكما ، فاذا لم احقق مطلبكما مني فاقطعا رأسي واطرحاني لكلاب الازقة !

فصاح الصميل : والامر ما تقول . ان تكن تخادعنا فما عندنا لشفائك من قحتك ومكرك غير الخنجر والسيف نحصد بهما روحك ولا أسف عليك !

فابدى الرضا . وغادر قصر الصميل وهو يفيض بالوعود والعهود . وجلس رب القصر الى سيد الاندلس يتباحثان والاضطراب يسودهما . قال يوسف ابن بخت الفهري بصوت ينوح : ماذا ترى يا ابا جوشن وقد اغتصب مني الدخيل «قرطبة» ورسخ في صلب الامارة ؟... طارت منا الاندلس يا صاحبي ولم يبق علينا الا الرحيل او الاذعان !

فاجاب الصميل جازماً ناقماً : قرطبة ليست الاندلس على مطلق مداها يا ابا عبدالرحمن . فلا نزال قابضين من الامارة على الشطر الاوفر ومعظم القوم في نصرتنا . فان يكن ظفر الاموي بقاعدة الدولة فما ظفر بالدولة كلها وسنذيقه حتفه قبل ان ينعم بامنيته الظلوم . اصبحنا من الطوارىء على احتراس . فان لم يكفنا شره البربري دفعت اليه احد ابنائي ينسفه . فلم يتحطم سلاحنا يا ابا عبدالرحمن ولم تجنح عنا الغلبة !

فطاب للفهري الايمان بما يلقي اليه الصميل ، الا ان الموقف لا يبعث على خصيب الامل . قال سيد الاندلس بارتباك يخلع الطمأنينة ويعمي البصيرة :

وهل نقوى عليه يا ابا جوشن ؟

– أتساورك الريبة بكوننا اشد ساعداً واوفى عدة ؟... هو لا يثبت على منازلتنا . ان فوزه في « قرطبة » لسحابة عارضة . وما استنجدنا عليه بمن يقتله لسوى حجب الدم . فاذا قضى استرحنا ونضونا عنا الحشية . فليس سوى شبحه يقلق الصفو ويؤلب علينا الحثالة . وان يعزّ علينا اغتياله فلن نمسك عن هدمه بقواتنا . فالى المضي في المناهضة يا ابا عبدالرحمن !

فظل الفهري في ميعان . اما والصميل بن حاتم يريده على التمادي في النزال فسيقتحم على رغمه النار . وحشدا قواتهما على ضفاف نهر الوادي الكبير . فانطلقا بعشرين الفاً من جيش «قرطبة» وبعشرين الفاً من «اشبيلية» وقد نصرهما القيسيون . ووقف ازاءهما ، في الضفاف المطلة عليهما ، عبدالرحمن بن معاوية بجيش ضخم من اليمنيين . فالاندلس شُطرت شطرين على هاتيك الشطآن . فاقامت تناوىء بعضها بعضاً بحزبيها المزمنين القيسي واليمني . واستبطأ الصميل اقدام « وانسوس » على الفتك بالامير الاموي فصاح بجاريته البربرية : انت خدعتني به وتبعته في عنقك . ما جررتك الى الهيجاء الا لاحرقك بنارها انتقاماً ان لم يبرّ رفيقك الاشأم في عهده . أتركن اليه ويواربنا ؟ ... والله يا «تكفات» ، اني لافني البربر على بكرة ابيهم إن يعرض لكما في بال الغدر بنا . انا لست ممن يؤمنون ببربري ، الا ان عذوبتك جنحت بي الى الثقة بمن لا اراه خليقاً بها . على ان لي من شفرة سيفي ما يقيني الندم ويشفي الحسرة . فحذار يا ابنة الانكاس !

فجهرت بنبرة ذليلة تسكّن بها وساوسه : مولاي ، في هذه الليلة يتم لك ما تشتهي . فيقبل اليك « وانسوس » بما وفق له في طاعتك من سعي !

– أبجيئني برأس الاموي ؟

– سيطرحه تحت قدميك ناضب الرمق ، خزيان الناصية . ويكفيك طامة النزال الاسحم ، المجهول المغبة . الليلة موعد الضربة البكر ، لدالقة الدم !

فصاح وقد ذهبت البهجة الشبعى بكلوح الاسارير : ومن زفّ اليك النبأ المفراح ، رضي عنك الله ؟

فاعلنت بقوة في الاداء تروم بها صادق الاقناع : شاء « وانسوس » ان يفاجيء سيدي بالبشرى دون ان يدلي اليه بطرف منها . فيجلو له بغتة الهامة المضروبة امعاناً في المسرة . غير ان اللجاجة ، قاتلها الله ، قضت عليّ بالبيان المكره . « وانسوس » استطاع بدهائه ان يكايد الاموي . فاوهمه انه من النصحاء وبات لديه من الثقات !

– أتذيعين حقاً ؟

– اني لاردد على مسمع سيدي مقال « وانسوس » كلمة كلمة وحرفاً حرفا !

فامتدت يده الى خصرها يطوّقها بيمينه بمفرط الجذل ويقبلها في شفتيها ويصيح بمديد الغبطة : والله ، انه ليزجي اليّ السعد على جمام اذا فعل . هذا منتهى الصبوة . اني لفي نشوة روّية مما تهدهدين به روحي من امارات الخير يا « تكفات » . ولكن حذار التقهقر عني في سورة اليمن . فلن يشفع في استكبارك عذرٌ وسا كرهك على ان تكوني لي . فلست اعرف امرأة عاندتني وصانها عنادها مثلك وكلما هممت بك انسللت مني . على ان لكل دلال اجلًا يا ذات الحسن اللهّاب !

فابتسمت وقالت بغنج : ليتئد سيدي في عبدته المطواع !

وماجت اعتداداً وهي ذات قدرة على المغالبة لا يقهرها فيها ذو حيلة وسلطان. وان تكن ونيت حيال عبدالرحمن بن معاوية فالحب أذلها وخضد فيها منعة الشكيمة فتخاذلت . على انها كبوة لا رجعة اليها، ورضّة برئت منها. فهي للحبيب الاول ،لوانسوس، على ما اعتراها في مودته من فتور وبحران. وليس للصميل ولا لسواه ممن يدعون السيطرة على الخواطر ان يظفروا منها برعشة جوى . وليحاول ابو جوشن ما يختلج فيه من وسع ولا عليها اذا ناء بالخيبة !

ولم يقلقها ان تقيم في مضارب الجند وان يقول فيها كل من رآها انها احدى جواري الصميل . فالفداء الحابسة عليه نفسها يقدر الاستخفاف بالظنون. ثم هي مؤمنة بان ثواءها في معسكر ابي جوشن قصير الامد . فما ان يطلّ « وانسوس » حتى تنساب في خطوه الى موئل السلام

والزعيم البربري سيبدو في مضارب الصميل . فلم تكذب « تكفات» في ما اعلنت . وتبرم ابو جوشن بما تهيب به اليه في وصالها من تؤدة فنبر: اراني صبرت طويلاً على تيهك يا «تكفات». والاستطالة في تماديها مهانة. وما انا بمن يغفو على قهر . فاذا ابيت الا ان تبخلي على الصميل بنواضرك اغتصبها وانفك راغم . فلا تكابري اذا شئت ان ترسخي في مكانتك مني !

فرأت ان تلاين وان تعد . وبين الوعد والوفاء مهيعٌ سحيق وعر . قالت بابتسامة حييّة تنبسط على مواءمة : ما كنت لاوجع روح سيدي . ففي هذه الليلة سنندفع الى لقاء « وانسوس »... وسنرى !

فصاح وقد اضاءت في ناظريه الامنية الخضلة :نرى ماذا يا«تكفات»؟

فاطرقت وتورّد خداها وتمتمت بخفر عذب : سنتدبر ما يبتغي مني سيدي ومالك عناني !

فشدّ بها الى صدره حتى كادت تقضقض اضالعها وجلجل : أتكونين لي فاغرف على مدى وسعي من هذا الحسن السيّال بلا منّ ولا امساك ؟

فحدجته بنظرة واعدة ، واسرعت فاخفت وجهها في صدره خجلا . وسمعها تغمغم : ليس لي ان ازيغ عن شهوة مولاي !

فتناهى في العناق هاتفاً : يا لها من ليلة زكيّة العرف وساظفر فيها باغلى أمنيتين !

وحن الى الشراب واستوضح بجزيل البشر : واين نلقى «وانسوس» يا « تكفات »؟

فاجابت وقد اضحت مّلمة بخفايا المكان : عند عين الصخرة يا مولاي. فالجلوس يطيب في ظل السكون النديّ !

وعين الصخرة رسيلة الماء ، بعيدة عن المضارب والحراس ، يخيم عليها السنديان ويترنح حول مساربها القصب وقد تفجرت من كبد جلمود اصم شاهق املس. واستلذ ابو جوشن اقتطاف ثمار الهوى في المنتجع السلسال ، بيد انه استجلى : وهل يلمّ « وانسوس » بمقامنا هناك ؟

فابدت البربرية بتوكيد حاسم : عين الصخرة طريقه الينا . فلا بد ان نشعر به وهو يجتاز الى خيامنا هاتيك الانحاء !

فاطمأن الصميل وركن الى ما تبثه « تكفات » من صبيح المقال . وما اكتنزت العتمة وخلعت على المضارب ملاءتها الدكناء حتى كان خيالان ينسلاّن من المعسكر كالارواح . وهتف بهما الحرس فاعلنا كلمة السر

ومضيا في شق حجاب الليل يتغلغلان في جوانح الظلماء. وما قعد بها الجهد الا وقد تبطنا عين الصخرة. فجثما في كنف السنديان الجليل الكبير، الوقور الصمت. انهما الا الصميل و«تكفات». اقبلا للقاء «وانسوس» وللاكتواء بلاعج الاشواق. ولا بد من الجمرة تذكي لهبة الوجد وتزيد في بسطة النشوة. فصب ابو جوشن لنفسه كأساً وللبربرية كأساً وهو يقول بفيض من جذل: لنشرب يا «تكفات»!

فاجابت بمستطير الايناس: لنشرب يا مولاي ولنطرب. فهي ليلة جمعت المتعتين معاً، الخمر والامر!

فشاقته براعة الاداء. هذه الاعجمية تلمّ بنجائب العرب. وهوى عليها يرشف من كأسها الراح ومن شفتيها، ويقول متعتعاً في البيان: والله، حرقتني بنارك. فما انا غير وقود افنى في لهيبك. فكيف استطعت حتى الساعة الصبر عنك؟... اني لاجهل نفسي وقد جلست اليك ولا اراني غير مسحور يتلاشى هياماً بك. ألا اين «وانسوس» يقبل برأس الغرّ المأفون فيتناهى حبورنا؟ ... أيجيئني به الليلة؟ ... ماذا قلت؟

فابانت تبالغ في الارضاء: الليلة، الليلة يهلك الوغد يا مولاي!

وسقته من فيها ومن يدها وهي تعلله بالامنيتين الصبيحتين، بنفسها وبرأس الامير الاموي. وجارت عليه وهي تسقيه. فألقى رأسه الى زندها، فالى ركبتها، وسخا بالهذيان. وما لبث ان غفا منهوك المهجة لا يلوي على الكأس والساقي. فارهفت «تكفات» اذنيها ترجو ظهور «وانسوس». انها لنهزة يتيمة تستصرخ اليقظة لئلا يحرد الحظ وينثني. و«وانسوس» وعد بالانسلال الى العين الروّية، بل هو دعا «تكفات» الى الاندفاع بالصميل

الى المكمن الخالي. فاليد يده في التدبير، فما به يتباطأ عن اقتطاف الجنى؟... وتململت البربرية وهالتها الخيبة. فليس لها في كل آن ان تظفر بالمغنم السمح، فتجنح بالصميل الى النأي عن جيشه في خلوة مهدت لها في العراء

وسمعت وطء اقدام . أيكون « وانسوس »؟...وقلقت واطمأنت. ان يكن زوجها من يضرب كبد الليل فيا لنداوة اللقيا ! . . . وعرفت الساري من وقع خطوه فخفق قلبها خفقة المسرة . هذا هو . « وانسوس » بعينه . وشقّ عنه الظلمة كنصلة تندلق من غمد . ففحّت البربرية وقد نغشت اغتباطاً : جئت في اوانك . اليك به . سقيته حتى انطفأ وخشيت ألا تبدو . هو هامد الحس ، فافعل به ما شئت !

فاضاءت وجهه بسمة ارتياح شامتة تكشفت عن نوازعه الى الاستئصال، ونبر جذلان : أحسنتِ !

وانقضّ على الصميل المتلاشي في غيبوبة السكرة يكمّه ويشدّ وثاقه ويحشوه في كيس رفعه على ظهره فيما يعالن زوجته : إلحقي بي !

وغارا في الحلكة. واجتازا المعابر الآمنة الى الضفة المنتشر في منبسطها جيش الامير عبدالرحمن الاموي . واتسع للزعيم البربري الامد الى خيمة الامير الساهر لامتلاك الاعنة . وعلى مرأى من الفتى الاموي المهيب ألقى « وانسوس » عن ظهره الكيس الراجح الزنة ، الطفحان . وتنفس ملياً واجال في من يضم المجلس باصرتين ترشحان بفضفاض البهجة . وتألقت في وجهه المتحلّب اقداماً بسمة يموج فيها اعتداد الكفيّ . فهتف ابو عثمان وابو خالد وقد لاحت لهما على ضوء المشاعل اساريره المكتنزة بشراً ومضاء : ماذا يا « وانسوس » ؟ ... هل افلحنا ؟

فاشار الى الكيس المطروح في صدر الخيمة واعلن بطرب وفور : صاحبكما هنا ، في هذا الكيس. لا تزعجاه. فهو سكران !

فانتفضا للمباغتة. ووثبا على الكيس بدهش وذهول. فنضا «وانسوس» عن الجثمان ونبر جازماً مباهياً : هذا هو الصميل !

فاخرس الاعجاب والارتياع الزعيمين الامويين وقد بدا لهما الصميل ابن حاتم مشدود الوثاق ، مكموماً ، شبه ميت ، تنتشر منه رائحة الخمر كأنه حانة. فهما مع اكبارهما جرأة «وانسوس» خافا يقظة العاتي الغضوب. فما يكون من ابي جوشن وقد استفاق ورأى نفسه موثوقاً ، محشواً في كيس ، واسير عبدالرحمن بن معاوية ؟ . . . وتهيب عبيدالله بن عثمان وعبدالله بن خالد الموقف الحرج ، الوخيم. وشعر « وانسوس » بما يعانيان من رهبة فقال هازئاً : أتخشيانه ؟ ... ولكني اقتله لكما الساعة . فاي باعث على اتقاء صولته وهو ينوء بقيوده في قبضتنا ؟

وانتشى عبدالرحمن بن معاوية والصميل يلوح له مضروب الرباط وجهر: عوفيت يا « وانسوس » وبورك فيك. انك للهام الندب !

وانطوى على الزعيم البربري يعانقه امعاناً في الشكران ، وشخص برخيّ المرح الى جثمان ابي جوشن وشفتاه تغمغمان : حمداً لمن جرّه الينا مخذولاً ولم يجرنا اليه مدحورين !

وفي هذا الجو الخانق نفض الصميل عنه غشيته وهزته الوهلة . فاين هو ؟ ... أيحلم ؟ ... انها لرؤيا صاعقة هذه الاشباح الدميمة المتألبة عليه. ورفّت دراكاً اهداب عينيه وماع قلبه. هذا ليس حلماً بل حقيقة صارخة. فان ابا جوشن ليبصر ابا عثمان وابا خالد الزعيمين الامويين. وهذا من هذا

الفتى الغضّ الاهاب ؟ . . . ليس يعرفه . على ان ملامح النبل الناطقة فيه تشير الى انه الامير الاموي عبدالرحمن بن معاوية ، أفلا يكون عبدالرحمن ؟

وايقن الصميل انه بين ايدي اعدائه ،فمن دفعه اليهم ؟ ... هل ألمّ به الغدر الماحي؟...وماجت عيناه بخجل على ما يزحمه من صدعات . واجهد ذهنه فذكر . كان عند عين ماء يجرع خمرته بجانب « تكفات » ويضم اليه الفتاة البربرية . ثم ماذا ؟ ... ليس يدري وقد رنحه السكر . بلى ، كان يرقب « وانسوس » كي يجيئه برأس الامير الاموي . ولكن«وانسوس» و« تكفات» هنا.« تكفات »تبسم للامير والامير يبسم لها.و«وانسوس» ينظر الى الصميل مستهيناً ساخراً. أُفٍ لهذه المشاعل المتوهجة كم تعرض عليه من رسوم نكر . ولكنها رسوم واضحة متكلمة . فتجلى الموقف للصميل . ذهب ضحية مكيدة دهياء.فما كان « وانسوس » و«تكفات » غير عينين عليه للامير الاموي ، فاوقعاه في الاحبولة واقتنصاه

وجرض الصميل بريقه حرقة . واغمض عينيه لشدة وجله . ليس يريد ان يرى . وسمع من يناديه باسمه . فاضطرب . قال مخاطبه بجفاوة تختلج بوميض من مزاح : مرحباً بك يا ابا جوشن !

وما خلت النبرة ،على رشحها بخفيّ السخر ،من جلال الاداء . فادرك الصميل ان عبد الرحمن بن معاوية يخاطبه فاستخذى. وشاء النهوض من بطحته وقد اذلت ناصيته فتململ في وثاقه واغضى . فاعلن الامير الاموي بدمائة الحلم: فكوا عنه وثاقه . ما جئنا به الينا كي نرضّ منه الانفة !

ونظر اليه وقد استوى عوده يقول بكلام باسم ، غضير ، بريء من

درن الشماتة والحقد: يسرّنا ان نتعارف يا ابا جوشن. هذه الطلعة المهيبة طالما اشتهينا الاستئناس بها . والله،ما اردناها لك ذلة تكويك ، الا انها الحرب وهي خدعة يا صاحبي. فرميناك بمن يحتال عليك كي يقف على مأربك فينا . وبدا لنا منك انك لن تزأف بنا فدعونا الى اسرك، لا الى قتلك. فما «وانسوس» و« تكفات» من سوى الدعائم الركينة في شملنا ، من الاصلاب. وهما زوجان من كرام البربر. ان «وانسوس» الا زعيم قبيلة يافعة من قبائل المغرب جاد علينا برفقه وبمروءته. ولقد كان بك براً فامسك عن ايذائك والامر بوسعه. فعفواً عما نالك من جهدنا ، ان الصفح لمن سجية النبيل يا ابا جوشن. ويحلو لنا ان تتوسد في نادينا ما انت به حقيق من مقام وعزة، وان تشفق على الارواح فتنادي بالمهادنة وتسلم الاندلس من الدمار !

فثارت في الصميل عنجهيته وقد تبينت له معامي الاحبولة المضروبة عليه امراسها، فجهر بقسوة الحانق الموتور : لا تحدثني بما ليس امره في يدي !

فما زاغ الامير الاموي عن ليانه واستوضح بتؤدة كأنه لم يسمع الصميل في خشونته الجافية: ومن نحدث بالمهادنة يا صاحبي رحمة لبني قومنا؟

فجلجل الصميل بغلاظة غامزة: عليك بيوسف بن بخت الفهري ، فهو سيد الاندلس واليه مرّد الامر !

فسأل الامير الاموي بوحابة لا يزال يشيع فيها مكتنز الحلم : واين هو سيد الاندلس صديقك الحميم يا ابا جوشن ؟ ... فلسنا نرغب في نفث الاحقاد بما لا يأذن في اندمال الجرح !

فكان الجواب خادشاً نابياً عن كل احتشام: إبحث عنه فتجده، لست موكلاً بالاهتداء اليه !

– أنبحث عنه وانت تعلم اين هو ؟... لماذا تكلفنا المشقة ؟... صان الله مهجتك من العناء !

فهاجت في الصميل ضغائنه وصاح بغيظ واستطالة : والله ، لو كنت ادري ان يوسف تحت موطىء قدمي وكلفتني رفع رجلي لتراه لابيت تحقيق الرجاء. ومن تكون فينا كي تباحثنا في المهادنة وما انت غير دخيل طريد؟

فصرخ عبدالله بن خالد منكراً على الصميل الصلف والزراية : بل هو الداخل لا الدخيل يا ابا جوشن. هذا من دخل الاندلس بقوة ساعديه لتنظيم امرها واقرار حق اهلها فيها !

وعلت الاصوات من كل جانب : الموت للوقح السليط !

ودنا «وانسوس» من الامير الاموي ينشده : أبحْ لي دمه يا مولاي !

فرسخ عبدالرحمن في حلمه وهو الموقن ان الصفح ادعى الى الظفر بالمودات : بل انا اعفو عنه واودعه السجن ريثما يستعيد هداه. فهو الساعة في نزوة تتنكر لكل رشد !

فهدر الصميل : الموت احب اليّ من عفو تطوق به عنقي ايها المستعين علينا بالختل والغدر !

فاكتفى عبدالرحمن الداخل، كما قال فيه عبدالله بن خالد، بان يرفع يمينه ويذيع في رجاله باعتزاز المقتدر العيوف : أحدوه السجن !

وسرح في الآذان ان الصميل بن حاتم ضاع اثره فقلق رجاله حتى كادوا افرط ارتياعهم يعمون عما اقبلوا فيه. وهلع يوسف بن بخت الفهري والصميل لديه البصيرة المحمكة والكلمة الهادية . وتطايرت غمغمات الجزع والحقد لما سقط الى القوم ان ابا جوشن اسير عبدالرحمن الداخل . فانخلعت

الاكباد وهاجت الاوتار . فاي مغامر اقتحم حرز الصميل واختطف عنوة ابا جوشن هازئاً بالسور الاشم من الجند الشاكي السلاح المضروب عليه كالخاتم في البنصر ؟... وتداعى الفهري كأن بُترت يمينه وهو يصاب بابن حاتم الكفيّ النصوح . وبدا في اعوانه ضيق الصدر، مرضوض النهية

وزحفت اليه قوات الامير الاموي فكاد يغور في نفسه ذعراً ويدعو الى النجاة . ولكن ابنه البكر عبدالرحمن ألحّ في المواقعة وقد امسى القتال ضرورة ملحفة. وتصادم الجيشان . وخاض حفيد هشام لظى النار بهمة غلباء لا ينثني له دأب. فقاتل برمحه وسيفه لا تنبو له فتكة ولا تكبو عزمة . فاحيا ومحا . احيا رجاله وقد خجلوا ان يهونوا فيما يستبسل، ومحا اعداءه وهو ينقضّ عليهم صاعقة كاسحة وسيلاً جرافاً. فتخاذلت كتائب الفهري وقبض عبدالرحمن الداخل من النصر على الازمّة

وجاء من يفاوض في الصلح . ان يوسف بن بخت الفهري ليستهدي الامان . فما تعبّس الاموي الظافر للسلم ينشر ظلاله وما هبط الاندلس مدّوخاً بل واقياً عاصماً . ولكن هؤلاء الناعمين بالجاه في حمى الفهري خافوا ان يشيح عنهم الرفد وقد ذلت للاموي الناصية فحرضوا ابن بخت على المضي في المناحرة. لا مقام في الاندلس لدخيل. فكبر الامر على عبدالرحمن ابن معاوية وخشي ان تزلق عنه الغلبة وهو يوالي الطعان. فالميرة نفدت ، والجيش يلتمس الزاد . وباح الامير بما يشيع في نفسه من وهلة ، فهتف « وانسوس » بحماسته الدفوق : على رسلك يا مولاي . انا اخلع عنك شر العاجز الجبّير !

ودهم الصميل في محبسه صارخاً به بشراهة الى اختلاس الارواح :

ابا جوشن، حان الحين . فتأهب للقاء ربك نقيّ الضمير !

وهجم عليه فخنقه . واحتزّ رأسه واخفاه في جراب شاخصاً به الى معاقل الفهريين . فبلغها في الديجور . والفهريون ما برحوا يرون فيه جاسوساً على الامويين اعدائهم . فما استكبروا ظهوره فيهم وقد تحلقوا عليه يستوضحونه الحالة في مضارب عبدالرحمن بن معاوية . فابتسم الزعيم البربري معلناً : كلهم على ضعضعة . فالاشراق سيعقبه الافول . ألا خذوني الى سيد الاندلس . فان لديّ ما يثلج صدره ويمرع بالغبطة نفسه !

وسيد الاندلس، يوسف بن بخت الفهري، يحبو الى « طليطلة » ليستعيد فيها روعه وينضو عنه خيبته . فيجمع جموعه ويستنقذ امارته المهيضة الضلع . وضرب خيامه على اربعة اميال من المدينة بغيته في النصرة والعون . وما ثقب وعيه ان « وانسوس » البربري يزحف اليه في بشرى ندّية الوجه حتى جهر مستمسكاً بحبل الامل الرثّ : ألا يزال على حياة هذا المماطل الكذوب ؟

وفسح له اليه . فما يحمل « وانسوس » من نضير ؟ ... وأُضيء في خيمة الفهري سراج من الزيت كشف عن اساريره تغشاها الحيرة والغمة وينطق فيها الخوف والهزال . وانحنى « وانسوس » في حضرة سيد الاندلس المدحور يقول ببسمة ترشح بالاجلال والطاعة : عفواً عني وقد تقاعدت عن الانجاز . فالمواقف عاندت ، الا اني ما برحت اصاولها حتى تمكنت منها وشفيعي عطف مولاي !

فاشرقت اساريره الفهري وهو يبصر بالجراب في يمين البربري . واستقصى بغبطة رقصت لها مهجته : وهل جئتني برأسه ، هل فتكت به ؟

فاجاب «وانسوس» وفي ناظريه بريق: اذا خلا بنا المكان علم سيدي من امر عدوه ما ينتشي به خاطره !

فاعلن يوسف بن بخت في رجاله : ألا انصرفوا . سانشر عليكم النبأ السارّ فور انقضاء خلوتنا !

وبقي في المضرب ثلاثة ،الفهري ،وابنه عبدالرحمن ،و«وانسوس». ومال سيد الاندلس المتداعي الشوكة على الزعيم البربري بعينيه واذنيه وقلبه مستوضحاً بوارف الحبور : هل انقذتني منه ايها المكافح البطل ؟

ورقب ان تقع في اذنيه البشرى لتتعاظم المسرة . فاجاب البربري بانتفاخ عارم : لم أُبقِ فيه على نبضة . فليهنأ مولاي !

فغمرت موجة من البلسم يوسف بن بخت الفهري وهدهدته المنى السماح. اضحى وطفاح يديه النصر بعد الادبار . كل منافس في الاندلس سكتت نأمته وبات ابو عبدالرحمن سيداً فرداً . وجمدت عيناه على الجراب وهو يتوهج شوقاً الى رؤية الرأس المقطوع . ولاح له من « وانسوس » انه يتباطأ فصاح به : عجّل ، ويحك !

ففتح البربري فوهة الجراب ونظراته تنصبّ على الفهري. واذا وجه يوسف يبدو في كشرة دميمة تتطاير رعباً. فاتسع فمه وجحظت عيناه في وقبيهما كأنهما تبغيان الفرار للخلاص من هول ما تريان . وتلجلج في قولته فدمدم على البربري هلوعاً : لك الويل ،هذا الصميل بن حاتم لا الفتى الاموي!

فاذاع « وانسوس » بحدة يتواثب فيها صافع الازدراء : بل هو الفتى الاموي يا مولاي !

وانحنى عبدالرحمن ليلمّ بما يبطن الجراب فما كان من « وانسوس »الا

ان صدم سراج الزيت فقلبه عن مستقره فانطفأ. وبوغت الفهريان فصرخا صرخة مروّعة يستنجدان بها من الملمة الشادخة ، الا ان الزعيم البربري قطع فيهما كل نفَس بطعنتين حاسمتين كأنه النمر الخطّاف الوثبة ، الظامىء الى النجيع . وشقّ بنصلته القاطرة دماً صدر الخيمة وفتح له بمضاء الشرر منفذاً وهبه للظلمة تعيده الى معسكر الامويين

وفيما تمور المضارب الفهرية بالرعدة والقحمة المفاجئة ، الدامغة ، تهزها ولا تبقي فيها على نضاضة من هدى ، وقد جمدت العيون هولاً على جثمان امير الاندلس وجثمان ابنه عبدالرحمن يغوران في دمهما، وعلى رأس الصميل ابن حاتم المقطوع والراكد في قعر الجراب الاغبر ، كان « وانسوس » يلتهم السبل من غور ونجد ، وسهل ووعر، الى عبدالرحمن الداخل الجاثم في كتائبه في حصن المدور يستنبىء النهار والليل اخبار البربري الامين

واطلّ « وانسوس » عاصفة كانسة يعرض على الفتى الاموي شفرته المخضبة بذوب الاكباد . فهتف عبدالرحمن وقد ابصر البربري الصؤول هتفة المقيم على تعلّة قلقة : الا ماذا يا صاحبي ، ماذا ؟

فابتسم الزعيم البربري ابتسامة خضلة معجبة، وادنى النصلة الحمراء من حفيد هشام معلناً بمرح رخيّ : ألا يرى سيدي الامير ؟

فومض الاستبشار في طلعة عبد الرحمن واستنبأ باسراف في المرح : هل اوديت به ؟

— بل بهما ايها الامير. به وبابنه معاً. وسخوت عليهما برأس الصميل . فالثلاثة يعضون في جوانب «طليطلة» التراب بين عويل الجند المذعور ووعيده. أعز الله مولاي و كتب له دوام السعد. كل عقبة اضحت ممهدة. اني لاهنئه

بملك وطيد ويمن مديد باقيين على الدهور !

فوثب عفواً عبدالرحمن الى « وانسوس » يعانقه بفيض من اعجاب وشكر ويعالنه بنداوة الاقرار بالجميل : ولكنك مشيد هذا الملك يا « وانسوس » . انت باني الدعائم على الاس المنيع . فشكراً للاقدار وقد انعمت بك عليّ !

وصرخ برجاله : هلموا !

وحشد حوله سبعمائة فارس احرق اغماد سيوفهم لئلا تجد نصال بواتهم اجفاناً غير الصدور تنغمس فيها ، وهجم بهم على معسكر الفهري هادماً ، قاهراً ، مزلزلاً . فاضطرب جيش يوسف بن بخت وسقط في يده حيال المغامرة الكاسحة ، وطوى جناحيه مستنيماً الى تيه القدر الزلوج

واغار « وانسوس » على مضرب الفهري يفصل رأس يوسف بن بخت ورأس ابنه عبد الرحمن عن جثتيهما ويدعو اعوان الاموي الى رفعهما على نواصي الحراب . ولقيت جمجمة الصميل هذا المصير الاشأم ، الدميم . وظفر الامويون بابن الصميل البكر ، بجوشن ، فعدلوه بابيه وقد خلعوا هامته وشكّوها في ناتيء السنان . وطافوا بالرؤوس الاربعة في ساحات « طليطلة » ينادون بسيطرة عبدالرحمن الداخل على الاندلس جمعاء . قضى امير وقام امير . فكبّر الناس . رسخ الحق في اهله وزها السلطان بابن الاكرمين . لم تضق الارض بوكر وثيق يشيده نسر اموي رهيف المنسر ، مكتنز الريش

١٢

بعد ثورات ومحن، وصدعات وطمحات، من جحود نسيب الى انقلاب صديق ، ومن فضح مكيدة الى حبك دسيسة ، ومن درء عدوان الى فورة بطش، وبعد سعي للوثوب على المشرق لاستعادة المجد السليب، واحتراز من هجمة ابي جعفر المنصور الناظر من صدر العراق بعين خشيا الى الدولة المتحفزة الى الاشراق في ربوع الاندلس المورقة الاماليد ، وبعد اتقاء اغارة ملك الفرنجة «شارلمان» على الامارة المستطيلة اقداماً يهدد بالاندلاع والتدويخ ، هدأ جنبا عبد الرحمن الداخل على مضجع وثير ، وديع ، وتنفس المجاهد الاروع عن اطمئنان وخفض . فالزمن استراح بعد كيد ناهش وغدر حثيث

وفي احدى العشايا ، المترنحة فيها انفاس الربيع حتى لم تكن تتماسك لفرط نشوتها الوهون ، حفلت خمائل قصر قرطبة المنيف بخمسة من ذوي القدر يستظلون في ء السرو الجليل. هم ثلاثة رجال وامرأتان. وضحك البشر في الوجوه . وتكلم احدهم وهو شيخ طاعن في السن انتشرت البسمة في اساريره فزادتها غضوناً على غضون . قال بدالة فيحاء : والآن ايها الامير ، وقد ملكت الامر من جميع اطرافه ، وانضوت الاندلس اليك على متمادي بساطها ، ولم يبقَ لاعدائك شبح يهدد ، ولا اثر ينتفض ، فلنعقد لك على زينب ابنة عمك وكلنا يرقب الموعد الانيس !

فرّفت بسمة الرضا في شفتي عبدالرحمن بن معاوية واعلن بلين مسماح مطمئناً الى الرغبة الحلوة : ليُعقد لي عليها الليلة يا حكمون . زينب ابنة عمي ومكان الروح مني . ولقد جاهدت في سبيلي جهاد المغاوير . فلتكن اميرة الاندلس ولن تزيد فيها الامارة المجد الاثيل !

ومال على « تكفات » يقول مباسطاً كأنه يروم استشارتها في ما يتأهب له من اباحة قلب وعقد مصير : وما رأيكِ انت يا ذات الاخلاص الاوفى ، الباذلة في سبيلي خفقة الروح وضياء العين ، في ما يدعوني اليه حكمون ؟

فاجابت البربرية بنقاوة ضمير تدفع بها عنها خلجة الحب الفارطة : سيدي ابن الاماثل الصيد ، انت وزينب كوكبان نستضيء بوهجهما . واروع ما نتشهى ان نبصركما تتهاديان معاً في موكب الحب الهنيء . فالاندلس تتعاظم غبطتها وانتما تدرجان فيها على بسمات الهوى النضيد !

فقالت زينب وهي لا تتمالك لبليغ مسرتها : شكراً يا « تكفات » ، فالدر من معدنه . لك ولزوجك علينا يد المنقذ الصدوق !

فاعلن عبدالرحمن ببيان نمير يجري على سلاسة ريّا : اني لغريق افضالكم جميعاً . كلكم ردّ عني الهوان . فهل انسى جميل صنيعك يا حكمون وقد سللتني من مكيدة امير المغرب عبدالرحمن بن حبيب الفهري ؟ ... وانتما يا « وانسوس » ويا « تكفات » اي مكافأة استطيع فيكما ومروءتكما دفعت عني مستفحل الشر ، فساعدتماني على بلوغ مطلبي بتضحية المتفاني النصيح ؟ ... ما انتم سوى اجنحتي بها أُصفق واطير . اقمتك وزير امارتي يا حكمون ، وفوضت اليك امر جيشي يا « وانسوس » وقد اظهرت لي انك

الهمام البصير . اما انت يا « تكفات » فان لك في نساء قصري المرتبة الاولى بعد زينب ابنة عمي وزوجتي !

فسجد بين يديه « وانسوس » و « تكفات » يشكران ويستأذنان في العودة الى الربع . فالقبيلة ترقب رجعة الزعيم . فقال عبدالرحمن بملحاح نبرة : بل تبقيان هنا ، بجانبي . فمن شاطرني البؤسى له ان يشاركني في النعمى . أما وكلت الامر في القبيلة الى اخيك يا « وانسوس » ؟... ألا نعم الوكيل !

والتفت الى حكمون اليهودي يقول بانس النجيّ : ألا حدثنا عن الغيب يا صاحبي ، كيف تجري الامور في المشرق ، كيف حال بني امنا في المنبت الحبيب ؟

وقبل ان يفيض اليهودي الشيخ بمكنون علمه اقبل على عبدالرحمن من يبلغه ان رجلًا من الشام هبط الاندلس وفي صدره اخبار تسرّ الامير . فقال عبدالرحمن : علينا به . طال انقطاعنا عن الوطن التليد !

فوقف في حضرته كهلٌ وخطه المشيب الا انه اخو همة . وقبل الارض بين يدي الاموي يسلم عليه وينتسب . فهو عبدالملك بن عمر المرواني . ومضى في البيان معلناً : اني لمن اعوان بيتكم يا ابن معاوية . جدك هشام كان يلقى فينا الاكفياء الاوفياء . ولقد كافحت المغتصبين حتى ضاق بي وسعي وتنكر لي قومي ، فزففت اليك احتمي بمنعاتك الشمّ . فالقوم عندنا يستطلعون انباء مولاي معجبين . فما كانوا يعتقدون ان الطموح يبلغ بفتى كسير الضلع ، بيد انه سبّاق في الجلّى ، هذا المبلغ العزيز . وبمَ احدثك عمن ابقيت بعدك ؟ ... شمخ عبدالله بن علي عدوكم الانكد ، وهو يتولى

الامر في دمشق ، على ابن اخيه الخليفة ابي جعفر المنصور يروم الاستئثار بالخلافة بعد موت ابي العباس ، فقذفه ابو جعفر بابي مسلم الخراساني يطاوله ويضيّق عليه حتى تمكن من حطمه . وفزع عبدالله الى البصرة يعتصم باخيه سليمان وهو واليها ، ولكن المنصور احتال عليه واسره . وانشأ له صرحاً على ضفاف الماء يقيم فيه ، الا ان اركان هذا الصرح شيدت على الملح . فما استقر عبدالله بمعزله حتى اجرى ابو جعفر على الدار الماء يلمّ باطرافها ، فذاب الملح وانهار الصرح على ابن علي وطارت روحه غير مأسوف عليها !

فصاحت زينب وقد هاجها الطرب : هذه آخرة السفّاحين الطغاة . ربِّ ، شكراً وحمداً ، انتقمت لنا من جزّار الامويين !

فقال عبدالرحمن بوقاره النبيل وما نسي ان عبدالله والد ميمونة : زينب ، ليغفر له الله . ان الله غفور رحيم !

فابان عبد الملك بن عمر المرواني متمادياً في سرد انباء الوطن النائي : وابو جعفر المنصور ، وقد توسد مقام الخلافة بعد اخيه ابي العباس ، بادر الى قهرك ايها الامير وحشد الجيوش للقضاء عليك وهو يرى فيك خطراً ينذر بالهلكة . ولكن ما بلغته مآتيك ، فوقف على مغامرتك ونجحك ، حتى ابتلّت لحيته بالدمع وافاض بندم رويّ : «جاوزنا الحلم في بطشنا بذلك الرعيل الصالح من بني اعمامنا الامويين . اللهم غفرانك وعفوك ! » . فقيل له : « أترضى عن عبدالرحمن الداخل وقد سلبك الاندلس ؟» . فاجاب برحابة واجلال ما عرفناهما فيه : «هذا صقر قريش ، فانه ليعيد الى اذهاننا سيرة بني قومنا الميامين !» . وهي شهادة بالف وقد جاد به رجل ضنين بالقول الجزاف ، خبير بوزن الرجال وبمقامهم من المكنة والنباهة !

فتأثر عبدالرحمن بما ألقى اليه عبد الملك من نديّ المقال وصاح بمن حوله بصوت رهيف : نادوا من اعلى المنابر باسم ابي جعفر المنصور . فهو هو خليفة المسلمين . فليس في الاسلام خليفتان يتنابذان ويهون بهما الدين . ما انا فيكم غير امير، ارعى شؤونكم واسوسكم بالعدل والنصفة . ربِّ ، حنانك وعونك . بسم الله الرحمن الرحيم !

ـ تمت ـ

مطابع « الف ليلة وليلة » – بيروت – ١٩٦٨

Back

*PB-37348
5-20T
C-C

PERMA-BOUND

NYU - BOBST
31142 02889 0427
PJ7842.A68 S3
¿aqr Qura

من كتب المؤلف

دمعة يزيد

صرخة الالم